

UNEVEN PAGES WITHIN THE
BOOK ONLY.

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190719

UNIVERSAL
LIBRARY

مِصَاهِرُ رَاتِ الشَّعْبِ

أكبر وأقدم المجلات الروائية المصرية المصورة
لصاحبها : خليل صادق

الرواية السادسة

الْمَلِكُ الْمَفْقُودُ

نقلها الى العربية الكاتب الكبير

عباس حافظ

الثنى ١٠

قيمة الاشتراك ١٠٠ غرش عن السنة في القطر المعمرى والسودان
و ٤٠ غرشنا في الخارج

مُطْبَعَةُ الشَّعْبِ لِنَايَةِ مَجْدٍ عَلَى بَيْتِهِ

الرواية السابعة

٥٢ فصل عن الهموم

الرواية الثامنة

أقضية لا شكك في

مقدمة

ما أظن في العالم كله بلداً تناوبه الحُكام . وتعاقب عليه
 الفُتَحون ، بتلك السُكُرة التي تعاقبوا بها على امتلاك وادي النيل
 الخصب ، فقد أغارت على تلك الحقول السَّريَّة الناضرة ، والارض
 الطيبة الزهراء ، جيوش الأُشوريين ، في أثر المشاة من اهل بابل
 القديمة . ثم تبعهم الاغريق . ولم يلبث ان جاء على آثارهم فيالق
 الرومان . ثم مضى عنها هؤلاء واختفوا من ارضها . ليفسحوا
 الميدان للعرب وخلفاء بغداد ودالت كذلك دولة أولئك فحلَّ
 في الوادي جيوش سليم التركي .

على انه لم يكن في هؤلاء جميعاً ممن ملكوا مصر بمجد السيف
 غزاة تفوقوا عن أولئك الممالك الذين ساموها ذل الاسار من
 القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر فان امتلاك
 أولئك العصابات الاجنبية لتلك الارض لاتزال عجيبة لاتقل في
 غرابتها عن تلك العجائب العديدة التي اشتهرت مصر بكبرتها . بل
 ان تلك العجيبة لاتزال فريدة لا مثيل لها في تاريخ الأمم جميعاً
 ولما اشترى الملك الصالح في منتصف القرن الثالث عشر
 من جرگز خان أولئك الأسرى الذين وقعوا في قبضة يده لم

يكن يدرى انه قد جلب على الارض بابتياعه أولئك الأسارى
 شراً وويلًا. ورمأها بالضر والحرّ . فانه ما كادت جيوش التتر
 ومهاجرتهم تعود الى ذلك الحمول الميهن الذى وثبوا منه . وتصبح
 بغداد وخلفاؤها أثرا بعد عين . حتى أمسك أولئك العبيد فى
 مصر بالصوالجة . وجلسوا مجالس الحكم والامارة . وراحوا
 بروعة مُملّك لم يكن لهارون فى ايام عزه . وشرخ شباب دولته .
 وفى عصره الذهبى السعيد

ولم يبطىء أولئك الشباب الناعمو الجلود . والفتيان الذين
 ركب الله فى نفوسهم طبيعة الجند وبث فى ارواحهم حب
 الحرب . والصبوة الى الممترك . والشوق الى الحومة . فى ادراك
 قيمة تلك الفرصة التى وقعت لهم ولا عجب أن تصبح تلك البلاد
 فى قبضة أيديهم . ذلولاً راضية صاغرة . اذ كان القدر قد رمى
 بهم فى اخصب بلاد الدنيا . وفى بهرة شعب وديع مسالم هادىء
 لا يحفل من امور العالم بشىء غير حرث الأرض وحصاد ما تنتج
 الارض

وكذلك مضت خمسمائة عام وذلك الفيض العظيم من أولئك
 الشباب المحمولين من أوطانهم فى جبال جورجيا المخطوفين من
 عشائهم فى القوقاز يتدفق على مصر . ليسد الثغرات فى صفوف
 المماليك . وليرد عليهم ما نقص من عديدهم . فقد كان أطفالهم يموتون
 اشبه شىء بالذباب . والقليلون ممن بقى منهم وتزاور عنهم الموت .

لم يكونوا من الميل الى الحرب . وحب الجندية . كما كان الذين طاح الردى بهم . فقد كان جو مصر العليل السجسج الهادى يخرج زراعا وعملة فى الارض وحُرّاثا . اكثر مما ينتج جنداً وشجعاناً ومساير حرب

ولئن كان أولئك الحكام لا تجمعهم جامعة وطنية . ولم يكن فى نفوسهم أثر من الزهو بجنسيتهم . واخلاء بقبيلهم . فقد ظلوا مع ذلك متماسكين متواصلين . متواصلين بالألفة . وبذلك استطاعوا أن يضعوا أقدامهم على أعناق خمسة ملايين من مخلوقات الله فى خمسة قرون . ومضت دولتهم أطول عمرا . وأنساء أجلا . من الفتح العثمانى . وان لم تكن فى مثل سلطانه . وروعة نفوذه

ولم تكن القاب الفروسية فى عهد الحروب الصليبية لتدانى فى سطوتها وتراخى أجلها وكثرة مزاياها ، والحقوق التى تكتسب من ورائها ، ما كان لأولئك القوارس الصناديد ، اذ كان الشرط الأول للدخول فى صفوفهم أن يكون المتطلع بعينه الى هذا المجد مملوكا . أو من سلالة الممالك .

وقد ظلوا مستمسكين بهذه العادة حتى أن ابن شيخ البلد لم يكن ليستطيع أن ينهض الى مرتبة فوق مرتبة « الكاشف » ما لم يكن قبل ذلك مملوكا ابن مملوك . كابرآ عن كابر . ولقد كانت تلك الطريقة عجيبه فى بابها . فان الفقى الجركسى

ليخطف من وطنه . وأحضان أهله . أو يُبتاع منهم بيعاً . على يد نخاس من النخاسين . فيحمل الى مصر حيث يشتريه أحد الممالك « البكوات » ويقوم على تأديبه وتربيته في داره . ويعلمه فنون الفروسية ، ويدفع به الى المعلم يمرنه على حمل السيف . ويلقنه آداب الممالك وعاداتهم وشعائرهم وتقاليدهم . على نحو ما كان يفعل الاشراف في إنجلترا على عهد الاقطاعيات . اذ كان الفتيان ينشأون في بيوتات الاشراف . ويكبرون في ظلال القصور . حتى يكون منهم فرسان يروحون في خدمة ساداتهم ويقاتلون في صفوف جيوشهم

فأذا ترعرع الصبي الجرکسى وشب عن الطوق . وألمّ بماتعلمه . خلع عليه سيده بردة الحرية . واعتق رقبتة ، فان كان له عند البك حظوة . استخدم السيد نفوذه في جعله من « البكوات » مثله أو وظف عليه وظيفة « السنجق »

ولئن صحّ ما حدثنا به التاريخ من أن الجنديّ البسيط في جيش نابوليون قد لا ينيّ يحمل عصا الماريشالية في جعبته اذا توسط الحومة . وأبدى ضرباً من الشجاعة يروق في عين ذلك القورسيتي . فأقرب الى الحقيقة منه أن تسمع بأن الغلام في دولة الممالك . كان يحمل حظه ومستقبل مجده في وجهه . ومظهره وغلالة أثوابه . فاذا شاءت مشيئة الله أن يكون كذلك . وقف ذلك الصبيّ وأمام عينه منحة طالما تنافس على امتلاكها الامراء .

ولم يرَ الملوك عليهم عاراً ولا طاباً أن يتطاحنوا من اجلها .
ويتهاكوا في سبيلها . تلك مصر وجباية أرضها . وخراج وادياها ...
ولقد كان السبيل الى السلطان والتربع في الدست طريقاً
دموياً ...

وناهيك بأن عُمر امارة الامير منهم لم يكن يتعدى ثلاثة
أعوام . في تلك القرون الخمسة المستطيلة . وكما فتح السيف الطريق
الى السلطان . كذلك اغلقه الى الابد .

وفي كل مديرية من المديريات الاربع والعشرين التي اقتسمها
البكوات بينهم كان « البك » منهم يحكم ويأمر وينهى اشبه شئ
بالبارون في عهد النورمان وسلطانه في اقطاعيته وولايته .
وفوق أولئك « البكوات » جميعاً . كان شيخ البلد أوزعيمهم
ووليهم الاكبر وكانوا هم الذين يختارونه ويبايعونه على التملك
والترأس عليهم .

فكان ذلك الشيخ يظل في منصبه الخطر المخوف بالاهوال
حتى ينهد له رجل ابطش منه فينازعه الملك . ويشتجر معه على
الامارة ، فاذا القوم يتنادون الى السلاح . والهبة الى السيف ،
فيتلاقى الرجال ، ويتطاعنان ، فمن تصب طعنته يتول الامارة ،
ويتربع في الدست . وهو مطمح أعين الكثيرين ، حتى يسقطه
عنه من هو أشد منه بأساً ، وأعز نفراً .

على أنه ما كاد القرن الثامن عشر يُحَوِّر الى ختامه . حتى بدت

دلائل وتجلت علام . تم عن اقتراب اقراض دولة الممالك .
وكما نهضت . أبت الاقدار لها الا أن تسقط في لجة من الدماء .
وهاوية من الفوضى والسلب والنهب اذ مضى رجلاان يتواثبان
الى عنقي . بعضهما البعض نزاعا على السلطان .
ولسنا نحن الآن بصدد سرد قصة ذلك النزاع الذي استحر
يومذاك بين مراد الجندي المقاتل . و ابراهيم الداهية الخبيث
صاحب المكائد . وانما نحن نقص عليك نبأ قوم من
الغرباء رمى بهم القدر الى مصر في تلك الايام الغريبة الهوجاء
الناثرة

« المؤلف »

لفصل الأول

في حيّ الأفرنج

« حيّ على الصلاة . حيّ على الفلاح . الصلاة خير من النوم »

ارتفع هذا الصوت الجهمير الجليّ الواضح الكلام من مأذنة جامع الحسين حيث كان يُرى شبح المؤذن مظلماً . يرسل ظله المقم على صفحة السماء وهي تزداد شيئاً فشيئاً سواداً يخفى زرقها الصافية

وفوق المنازل صوب الغرب . ظل بصيص من النور بقية تراث النهار المحتضر . اذ كان وهج الشمس قد ذاب عنه في رفق احمراره القرمزيّ وتوات خجلته وصفاء زرقته وخيوطه الخضراء الناضرة . فساد السكون وعمت الرهبة . وقد سقط ذلك الصوت الاجش العميق في بهرة ذلك السكون . فكان ارباب منه أو مثله في رهبته .

ولكن لم يكن النوم ليجد تلك الليلة في القاهرة خلقاً كثيرين يطلبونه أو يهبطون في احضانه . ولم يكن للصلوات

ولغشيان المساجد عبدة عديدون . فقد كان اليوم يوم قطع
الخليج وهو الرمز الجلى الى أن ذلك النهر المحسن الفيض بالخيرات
قد بلغ نهاية فيضه وحمل الى الارض ما وعدا من الخصب
والنماء والخير العميم . وامسى ذلك الفرح الذى بدا فى وجوه
السكان اذ احتشدوا سحابة النهار على شاطئ النهر منتقلا فى
الليل الى شوارع المدينة نفسها

فازدحم الناس حول البركة العظيمة فى الازبكية . وعج
عجيجهم ومضوا يروحون ويفدون فرحين متهللين . بينا راحت
القوارب والزوارق تجرى على صدر تلك البركة محملة بالركاب .
تلوح منها مشاعل متقدة نوراً وقد امتلأت المدينة فى تلك الليلة
ضوضاء وحركة وزحاما وألوانا .

وفى حارة من الحارات بجوار جامع الحاكم تؤدى الى حى
الافرنج . كان رجل وامرأة يسرعان الخطى فى صمت كأنما لا يعبان
بالزينات التى حولهما ولا تبتذلهما فرحة ذلك العيد

وكان الرجل مشتملا بقفطان فضفاض من الحرير «المقلّم» وقد
شد حول خصره « حزاما » من « الموسلين » الاحمر وانتعل
بلغة صفراء لا كعب لها من غير جوراب يغطى رجليه

وقد يظنه الرائي رجلا من الاهالى لان وجهه أو ما كان يبدو
منه على نور مصباح من المصابيح فى الطريق كان شديد السمرة
ولعل تلك السمرة كانت طبيعية فيه أو لعلها من تأثير التعرض

كثيراً لأشعة الشمس .

على انه لم يكن أحد من أهل القاهرة ليخطئ في فهم حقيقة الرجل وجنسيته اذ كان «القلب» فوق رأسه وهي تلك القلنسوة العالية السوداء المصنوعة من الشعر . وقد كانت يوماً علامة على «الافرنج» وشعاراً على الاحتقار . وقلنسوة العبد والسخرية للابسيها . ولم من مسلم تقى ورع كان يصيح عند رؤيتها وهو يضم شقي ثوبه « نصرانى... مسيحي . حصوة ملح في عين الى ما يصلى على النبي ! »

وأما المرأة التي كانت تمشى بجانبه . متنقلة من جانب الى جانب . وهي لا تستطيع أن تلاحق خطاه ، فقد يظنها الانسان لأول وهلة من نسوة القاهرة لانها لم تكن تحمل في ثوبها أو بزتها شيئاً من الشعار مثل رفيقها يدل عليها .

وانما مشت في حبرة طويلة تغطيها من رأسها الى أخمص قدمها ، وتدلى البرقع الابيض الحريري فوق وجهها فلم يترك للعين سوى العينين

ولم تكن تتعثر في أذيال ذلك الثوب الواسع الغريب القبيح الذي لم يخترع الانسان مثيلاً له في الدنيا لاختفاء مفاتيح المرأة وتغطية معايب وجهها ومناقصه ، ولعل السهولة التي مشت بها المرأة في ذلك الثوب ، كانت من طول عهدها بارتدائه

وكانت عيناها وحدهما وهما تطلان من فوق البرقع ثمان

عن ان المرأة لم تكن من نساء مصر
فلما اقتربا من المسجد التفت الرجل الى المرأة وقال فجأة :
« هل أنت متعبة ؟ »

فأجابت تلك المرأة بلهجة الصبور:

« قليلا . ولكن سر بنا »

فقال على غير ارادة « أظن أنه لا يزال لدينا فسحة من الوقت
اذلا اظننا قد تأخرنا عن غروب الشمس بأكثر من نصف ساعة
ولكنهم يبكرون فى اغلاق البوابات . والسبب فى ذلك
الملازم الانكشارى لعنة الله عليه »

وانعطفا فى زاوية فبلغا عطفة واسعة تطل على الشارع العمومى
ومشيا متقدمين فى اللحظة عينها التى كان الانكشارية آخذين
فى اغلاق الابواب الخشبية الثقيلة

ومرا صعدا فى طريقهما واغلقت الابواب وراءهما وسمع
صوت المزلاج والقضبان الحديدية التى توضع متعرضة خلف
البوابات . . .

وكانت الحارة الطويلة التى نفذوا فيها متعرجة متناوحة . قد
تفرعت ضروبا ضيقة وازقة متفرعة هى الاخرى فى عطفات
وثنيات ومداخل ومخارج حتى بدا ذلك الحى أشبه شئ
بمساكن الارانب

ولئن كانت الحارة ضيقة الممر فقد كانت ضيقة كذلك فوق .

الرؤوس اذ تدانت أعالي البيوت وتقاربت وتجاورت مشربياتها
وشرفاتها تاركة فتحة صغيرة تبدو منها صفحة السماء

وعن بعد كان يرى الانسان بصيصا ضئيلا من النور اذ كان
أحد السكان قد تأخر في الطريق فجعل يتحسس السبيل على
هذى ذلك النور وكانت قوانين البلد صارمة لالين فيها . وويل
لمن يُرى ماشياً بعد غروب الشمس بلا مصباح يحمله في يده .
فقد يمضى بقية الليلة في دار الشرطة « القره قول » فاذا طلم
عليه الصبح دفع غرامة أيضاً

ولم يكد ذلك الرجل يسير وفي أثره تلك المرأة عشرين خطوة
حتى وقفا أمام باب خشبي ثقیل ينفذ في الجدار فأخرج الرجل
من ثنايا قفطانه مفتاحا كبير الحجم وأنقذه في القفل وضرب الباب
بقدمه ضربة شديدة فافتتح وتعر هو في دهليز طويل مظلم فوقف
وأفسح الطريق للمرأة كي تمر

وحك حجرا وصوفانا فاشعل من ذلك الشرر المتطاير ذبالة
مصباح صغير وبعد أن اغلق الباب واستوثق من رتاجه مشى
متقدما المرأة يصعد أدراج سلم متحطم الى حجرة في البيت ، فلما
بلغها أوقد مصباحا كريحه الرائحة متدليا من السقف

ولم تكن تلك الحجرة رحيبة أو حسنة الياش . بل وضع في
بهرتها مرجل عظيم من النحاس وديوان في ناحية قريبا من الجدار .
وبضعة كراسى ومائدة بسيطة وأواني من أواني المنازل .

فنزعت المرأة عنها حبرتها وطرحتها جانباً وفكت رباط
 « اليشمق » فألقته على المائدة بشيء من الملل والتعب .
 ومضت الى المِرْجَل فأوقدته ووضعت فوق ناره مِغْلاة
 القهوة . . .

وجلس الرجل مسنداً ظهره الى الديوان وأشعل نفافة تبغ
 وجعل يراقب المرأة وعلى وجهه دلائل القلق والجزع
 وكانت المرأة تلوح في الربيع الخامس والعشرين . شاحبة
 الوجه ، غير متناسبة الملامح ، وان لم تكن دميعة أوقبيحة الطلعة
 وقد لمعت جدائل شعرها الغزير الفاحم على نور المصباح وأطلت
 عيناها النجلاوان من تحت أهذاب طوال سود ، على شفتين
 جميلتين خفيفتي الحركة . فكانت تلك الفروع وتينك العينان
 تجعل ذلك الوجه جميلا وكأنما قد أنقذته من الدمامة ، ولو
 كانت لامرأة أخرى أقل تناسبا في الملامح ، لما راحت كذلك
 دميعة ولا قبيحة .

نعم لقد كان وجهها علتة دلائل الأسى . ولاحت عليه سيمياء
 الحزن والتعب ، ثم لا يزال مع ذلك رائما يجتذب الانظار . أما
 الرجل فقد خلعت الطبيعة على محياه ما لم تخلع على المرأة . فكان
 طويل اعضاء البدن ، مستقيم الملامح ، برزى البشرة ، ولا
 يخلو وجهه من جاذبية وروعة ، ولكن نظرات عينه القلقة
 الحوامة المتسخطة تنم عن طبيعة القلب وسرعة التحول من

حال الى حال .

ومد ساقيه الطويلتين وهو منبسط فوق ذلك المتكأ ورفع
أنامله يجريها في تقاريق شعره الاصفر بحركة عصبية غريبة
ولم يتبادل الرجل والمرأة حديثاً بل ساد بينهما السكون .
على حين كانت ضوضاء الزينات في المدينة والهرج والمرج في
ليلة ذلك العيد تبلغ تلك الحجرة خافتة متقطعة .

والتقطت المرأة بعد أن وضعت وعاء القهوة على مرجل
الفحم البلدى ثوبا كانت تَخِيطُه وأجرت أصابعها وهي في صمت
خوق ذلك الثوب ، تفرز فيه ابرتها كأنما هي في وعكة الحمى ،
ولسكنها لم تلبث أن أوقفت أناملها فجأة . كأنما عاودتها ذكرى
أليمة ، أو هجس في نفسها هاجس محزن . وتساقطت العبرات
من عينيها متحدرة على المائدة

فتحفز جليساها في مقعده مضطرباً اذ كان يراقب حركاتها
منذ دخولها الحجرة ، وقد ازعجه منظرها مستعبرة . فالتفت اليها
وقال بلهجة لا تخلو من رقة « حسبك يا مرغريت . حسبك .
تلك مشيئة الله ! »

فدارت بعينيها صوبه في جزع وكأنما لم ترق لديها تلك الكلمة
قالت « اننى اعلم مثلك يا ستيفن ان دموعى لن تجدى شيئاً
ولو ذرفت ماء قلبى وحشاشة نفسى أرسلها من عيني عبرات .
وشؤونا مستهله ، ما كان ذلك ليفنى غنى فتيلنا . ولكنى لا اعتقد

« أن تلك مشيئة الله »

وتمهل لحظة ثم عادت منفجرة شاهقة بالعبرات تقول « اننى اكره هذه الكلمة . فانها تصب فى مسمى ألف مرة فى كل يوم . فان شراً قتلك مشيئة الله ، وان خيراً فمشيئته كذلك »

فعاد الرجل يتحفز فى مجلسه متبرما وقال بلهجة المتسخط « ماذا تريد منى أن أقول غير ذلك . ان فى فؤادى هذا الشعور بعينه . وهذا العيد يحمل الى تلك الذكرى الاليمة كما يبعثها من مرقدها فى حنايا ضلوعك . ألا تميد هذه الطبول وتلك المزامير المقيتة المشنوءة ، وهذه الموسيقى اللعينة الكريهة ، الى ذا كرتى تلك الليلة التى قضيناها منذ عامين يوم عاد خادمنا احمد من حفلة قطع الخليج وحيداً ينبئنا أن ولدنا الصغير سقط فى اليم غريقاً . لا أراى الله يوماً كذلك أسوأ أمقت رهيباً ولكن مع ذلك ما فائدة الحزن ، وما جدوى الاسى »

ثم سكت هنيهة وتتم يقول على غير ارادته « تلك مشيئة الله . . »

فقالت المرأة غير مكترثة بعزائه ولا محتفلة بمؤاساته « لو أنه عاش لكان اليوم فى الحول السابع . لنا الله . ما الذى حبسنا عن الرحيل عن هذه المملكة اللعينة »

قال الرجل « ما حيلة الانسان اذا كانت الحياة تريد ذلك »
فانفجرت ساخرة من قوله والتفتت اليه محترمة متغيظة تقول

« اتقول « الحياة : » التسمى عيشتنا هذه حياة، ووجودنا هذا عيشاً . . . ألا انظر الى حياتنا ونبئنى ماقيمتها . ألسنا محبوسين سجناء فى حى كهذا لا نخرج بعد الغروب من هذه الابواب ، ولا نتخطى الاسوار اذا الشمس اختفت . نمضى أيامنا فى ألم وعذاب . ونستهدف للالهانة والسخرية والحقارة ، ويبصق فى وجوهنا اشمزأزاً واستكباراً . وماذا نجنى من وراء كل هذا وماذا اكتسبنا . هل وقعت لك الثروة التى كنت ترتقب ، والغنى الذى تطمح ببصرك اليه . وما قيمة خططك ومشاريعك والوسائل التى امتدتها لبلوغ اربتك . لاتزال كاذبة كالمنى ، خيالية كاحلامك . واحسرتا . لماذا لم نعد الى بلادنا منذ أعوام ثمانية يوم تزوجنا فى الاسكندرية ، لقد توسلت اليك يومذاك أن تغادر هذا الوادى الى وطننا فلم تتقبل ولم تستمع »

فاكفر وجه الرجل وبدا عليه الغضب ولكنه أجاب « العودة الى الوطن ! الى الله . وهل فى العود مغنم لفتى فى بلاد الانكليز ، مات أبوه فلم يترك لفتاه شيئاً . ولم يكفل له تعليمًا يجدى عليه ويمينه على اعباء الحياة وأثقالها . نعم لا انكر أننا لم نوفق فى هذه البلاد »

قال هذا ودار بعينه فى الحجرة يستعرض رياشها الحقيقير العاقل من الزينة . ثم استوى مستنداً الى مرفقه فوق المتكأ واستطرد فى الشرح يقول « ولكن لاتزال هناك ممكنات ، من يدري

فلعلى ساء . كون يوماً اكبر تاجر فى الشرق . ألا انظرى ماذا فعل
أمثالنا فى الهند وكيف أثروا وطال غناهم ، فاذا كان قد وقم
لهم ذلك فى الهند ، فلماذا لا يقع لنا مثله فى مصر ؟ »
فتهدت المرأة وكانت تؤثر الحقائق الجافة الخشنة على هذه
الممكنات الخيالية الحلوة المظهر .

ومضى الرجل يقول « وانظرى الى مكسيم ليجران . ألم
يغتن وينجح ويصب رائد التوفيق . ألم يكن يوماً أفقر حالا
منى فاصبح اليوم مدير الترسانة يتقاضى عشرة اكياس ذهباً فى
الشهر ولديه فرص سوانح أخرى ينال منها اكثر من هذا القدر
وأوفر جزاء وهو مع ذلك رجل لم ينل قسطاً كبيراً من التعليم »
فلم تحر المرأة جواباً

فاستطرد فى حديثه بلمهجة المتشفع المعتذر « نعم . ان حياة
كالتى نعيشها لا تترأى محتملة خفيفة فى نظر المرأة . فلماذا لا تعملين
بنصيحتي ، فتغادرين مصر وتقيمين فى الوطن عاما واحداً . اننى
مستطيع أن اكفل لك نفقة السفر لاننى واثق أن مسيو ليفبر
لن يرضى على باقراضى اياها »

فلوحت المرأة بيدها فى جزع وقلق
ولكنه هز كتفيه وقال « أنت وشأنك فانى لا اكرك
على السفر اكراها . ولت هذين الاحقين مراداً وابراهيم
يتهادنان ويتصالحان أو يقطع احدهما عنق صاحبه ، فبذلك

تستقيم الامور ، وتتحسن الاحوال لان حروبهما ومنازعاتهما
تشل حركة التجارة .»

فظلت المرأة على صمتها لأنها سمعت كل هذه القصة آلافا
من المرات منذ تزوجت ستيفن هيليز

ولقد كانت يوماً تستمع الى أحلام هذا الرجل لشوق ولذة
وسرور . مصدقة ومؤمنة بها ايمانه هو بها . واذا كان النجاح لم
يأت اليوم ، فلا بأس ولا ضير . فقد يأتي « بكره » . نعم في الغد
الأبدى الذى لا نهاية له ، وهى عقيدة هذا الشعب الذى تعيش
فى أرضه . وقد جعل زوجها يعيد على مسمعها رأيه الذى لا حول
له عنه . وهوان الذنب لم يكن ذنب خطئه ومشاريعه ومقاصده
بل ذنب الطوارئ التى حالت دون تحقيقها .

وكان ماضى هذا الرجل غريباً من بعض الوجوه .

كان أبوه رجلاً من اشراف الانكليز . لم يكن بالغنى الواسع
الثراء . فتربى ستيفن تربية مرسلة غير منظمة . لا تسير على هدى
ولا تتبع طريقاً معروفاً . ثم تقض أبوه يده من النفقة عليه .
واطلقه يبحث عن مرتزقه بنفسه . ويكدح لعيشه . فحاول عدة
امور . وجرب معاش كثيرة ولكن طبيعته القلقة الخيالية وقفت
فى طريقه الى النجاح . فلم يكن ليصبر على حالة واحدة . أو يتمكث
فى عمل طويلاً ، ووقع له أخيراً أن سلك نفسه فى فرقة المهندسين
فى الجيش . وظل فيها حتى بلغ رتبة « صف ضابط » ولكن

انتابته السآمة . وتولاه من ذلك الملل . ولم يجد ما يحمله على
الآمل فى شراء عريضة ضابط . فعمد الى شراء رقبتة من تلك
الجنديّة الثقيلة . فابتاع بوساطة أحد أصحابه الخروج منها ابتياعا
ولكن رجوعه الى الحياة المدنيّة لم يكن طويل الأجل .
وكان ذهنه مغمما بالعلالات والاماني فى بلوغ ثنية التوفيق فى
الهند . فسلك نفسه فى الجنديّة ثانية

وكان « حيدر على » قد قضى نحبه فتولى منازعة الانكليز فى
الهند ابنه تيبو صاحب . وكان مصدر قلق وفتن فى الهند
فاحتاج الامر الى ارسال نجدات سريعة من انجلترا . فارسل
قسم عسكري اليها عن طريق مصر وكان استيفن مع الذين ارسلوا
ولكنه مرض فى السويس بعلة « الكوليرا » فظل فيها .
وسافر القسم وتركه مهزولا طريح الفراش
ونسى القوم امره . ولم يتذكره أحد . فمضى من السويس
شاخصا الى الاسكندرية .

فوجد له عملا فى ادارة شركة من شركات البواخر والشحن
وفى الاسكندرية عرف مرغريت وكانت ابنة طبيب انحدر
الى مصر لتمرير زوجة القنصل البريطانى
ومضت الفتاة تستمع الى احلام ذلك الرجل وخطته ومطامعه
وهى لا تخلو من مسحة الفرور . ورواء الزهو والكبرياء
ومالت مرغريت اليه ولم يلبثا أن تزوجا

ولم يرزقها الله غير طفل واحد . ولكنه غرق في النيل يوم
الاحتفال بقطم الخليج

وكانت قد مضت عليه في مبدأ هذه القصة سبعة اعوام ولما
يزل شريكا مع رجل من الفرنسيين يدعى جول ليفر كان يتاجر
في بضائع ليون ، وهو رجل متقدم في السن كان يسكن في البيت
المجاور لمنزله في حي الافرنج . ولم يكن يصيب من هذه الشركة
غير رُبع الارباح . ولم يكن المتجر موفقا أو ناجحا النجاح
المطلوب .

وكذلك انتهت تلك المناقشة العقيمة . وكما بدأت على غير
جدوى . يزجها الاتفعال والقلق ونقاد الصبر . ختمت دون
نتيجة أو فائدة .

ودق الباب دقا خفيفا .

فاستوى الرجل في مجلسه . وأما المرأة فأشرق وجهها وألقت
الثوب جانبا وتمتت تقول « هذا مسيو ليفر قد حضر »

وصاح الرجل « تفضل »

وفتح الباب

وفي الحال بدا رجل قصير القامة طاعن في السن . قد غطي
رأسه بعمامة كبيرة . وارتدى بقفطان مهفف

وتهمل لدى الباب ومضى ينظر من خلف زجاجة من العظم .
كأنما قد بهر ضوء المصباح على قلته عينيهِ الحسيرتين

ونَهَضَت المرأةَ لِتُحْيِيهِ قَائِلَةً « تَفْضَلُ يَامَسِيُو لِيَفْبِرَ فَقَدْ تَأَخَّرْتَ
الليلة على غير عادتك »

فأجاب الرجل بِلَهْجَةٍ الْمُعْتَذِرِ « لَقَدْ كُنْتُ مُتَرَدِّدا لَا أَدْرِي
هَلْ أَجِيءُ أَمْ لَا . وَلَكِنْ خَطِرُ لِي أَخِيرًا أَنْ آتِيَ إِلَيْكُمَا لِأَقُولَ
لَكُمَا عَلَى الْأَقْلِ أَنِّي لَمْ أُنْسَ الْبَتَةَ . فَهَلْ أَصَبْتُ بِمَجِيئِي يَا سَيِّدَتِي ؟ »
فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ بِاحْتِرَامٍ « مَرْحَبًا بِكَ يَا سَيِّدِي عَلَى الدَّوَامِ بَلْ
مَا أُرْقُ فُؤَادَكَ إِذْ جِئْتَ »

وَتَنَاوَلَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْفَرَنْسِيَّ الْيَدِ الْتِي مَدَّتْ إِلَيْهِ ، وَانْحَنَى
عَلَيْهَا كَثِيرًا حَتَّى انْحَسَرَتْ عِمَامَتُهُ عَنْ رَأْسِهِ فَإِذَا هُوَ أَصْلَعُ
شَدِيدَ الصَّلَعِ .

فَصَاحَ اسْتَيْفِنَ ضَاحِكًا وَقَدْ نَهَضَ لِيَضَعَ لِفَافَاتِ التَّبَعِ أَمَامَ
ضَيْفِهِ « إِنْ الْأَدَابَ الْفَرَنْسَوِيَّةَ يَا عَزِيزِي لِيَفْبِرَ لَا تَتَّفَقُ مَعَ هَذِهِ
الْعِمَامَةِ الْمَصْرِيَّةِ ! »

فَأَجَابَ الضَّيْفُ بِلَهْجَةٍ جَدِّ لَا أَثْرَ فِيهَا لِلْمَزَاحِ وَهُوَ يَنْفُضُ
الْعِمَامَةَ وَيُعِيدُهَا إِلَى رَأْسِهِ الْمَصْقُولِ « فِي الْقَاهِرَةِ اللَّيْلَةُ كَثِيرُونَ
سَيَفْقَدُونَ عِمَامَتَهُمْ بَلْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَرؤوسهم أيضاً »
فَقَالَ الْآخَرُ « أَحَقًّا مَا تَقُولُ ؟ »

فَأَجَابَ الشَّيْخُ « لَقَدْ قَدِمَ مُرَادٌ وَمَمَالِيكَةُ اللَّيْلَةِ مِنَ الْجَزِيرَةِ .
وَقَدْ انْكَسَرَ الْكُوبَرِيُّ الْمَقَامُ مِنَ الْقَوَارِبِ ، وَالبعض يشيع أن
ذلك من جراء الفيضان ، وَلَكِنْ فَرِيقًا آخَرَ يَقُولُونَ أَنَّ تِلْكَ

مكيدة نصبت لاسقاطهم فى الفخ ، اذ يتعذر الان الاستعانة
بنجدة من الجيزة »

فالتفتت المرأة نحوه وقالت « ولكن الباشا ولا ريب
سيفرد لهم محلا فى القلعة »

فأجاب مسيو ليفبر « الباشا ! مستحيل . انه ليس الا لعبة
فى أيدي المماليك . وكما دته سينجاز الى صف القوي ويغلق أبواب
القلعة فى وجوه الهاربين الفازعين اليها وقد كنت اليوم فى خان
الخليلى لمقابلة حافظ التاجر الفارسى فى شأن تلك السجاجيد التى
نريد أن نبعث بها الى مارسيليا . وانى لنى طريقى عائداً من هناك
اذ علمت أن مراداً فى أربعين من مماليكه قد عسكر فى الميدان
القريب من خان الخليلى وقد وقف على المدخل حراس من جنودهم
فصاح الآخر عجباً « يا للغرابة . اننا لم نسمع شيئاً من ذلك
اليوم . فقد قضينا الاصيل كله فى بولاق وعدنا باغوص افندى
الوكيل لانه مريض بالحمى »

وتلته زوجته تقول « فى أربعين فقط من المماليك ! مع أن
ابراهيم يستطيع أن يجند اربعمائة فى لحظة واحدة . بل ان هذا
العدد من المماليك يتدربون على فنون المجالدة بالسيف واسرار
القتال فى كل صباح فى « الرومية »

فقال استيفن « ولكن مع أولئك الاربعين قائد صنيدي .
والله لوددت ان اكون بجانب مراد هذا أحارب فى سبيله واقتل

في جنده . فانه رجل آى رجل ؟ »

فابتسم ليفبر وقال « ان مسيو هيليز جندى . وهذا مايرر
أمنيته ولا ريب ويشفع لذوقه . أما أنا فأفضل أن أشاه القتال
من قمة مأذنة فذلك آمن مكان يشرف منه الانسان القتال
اذا تلاحم الفريقان وأنا رجل فى حالى . . أصلح لبيع بضائع
ليون اكثر مما أصلح لقطع الجماجم على شفرات السيوف »
فقال الآخر بلهجة التاكيد « انى لاتفنى لو اننى كنت من
الماليك ! »

فنظر الفرنسوى الى الرجل من خلف منظاره العظمى ولم
تكن تلك اول مرة سمع فيها شريكه يتكلم باسطا هذه الاوهام
الغريبة . بل لقد ألف ذلك منه وكان ابدأ يبتسم متساعجاً مستخفاً
لانه هو أيضاً كان يتمنى أمانى كبيرة فى بر مصر ولكنه بعد كل
تلك السنين العديدة لم يكن غير تاجر صغير خامل الحال ركبته
ديون « مية » لا يتوقع سدادها وكان أبعد عن طريق الثروة
منه يوم حل بمصر ووضع قدمه فى أرضها

فأجاب « اننى لا أفهم ذوقك ياسيدى أما أن يتطلع المرء
الى أن يصبح تاجراً عظيماً . تسير قوافله من الهند والشرق الى
أسواق الغرب وتمخر له الاساطيل عباب البحر الاحمر وتضطجع
« بالات » بضائمه فوق الارصفة فى كل ثغر مشرف على البحر
الابيض فذلك أمل أستطيع فهمه يا صديقى ولكن أن يصبح

الأ نسان مملوكا ! واضللتا. عبداً رقا واصلأ يحمل اجازة اللصوصية
فهذا مطعم لا ينطوى على شىء »

فقال الآخر بلمهجة حادة « لا ينطوى على شىء . كيف تقول
ذلك وكل « بك » من هؤلاء الممالك اعظم سلطانا من ملك ، واكبر
سطوة من أمير .. بل أشد نفوذاً من تلك اللعب التى تحمل فى
الغرب أسماء الملوك . بل على الأقل اكبر فى سلطانه من لويسكم
السادس عشر ذاك الذى يقولون عنه اليوم أن تاجه قد أصبح مهترأ
فوق رأسه أشبه شىء بهما تمك هذه التى لا تستقيم لحظة فوق
رأسك . ألا تصور أن لكل مملوك من هؤلاء الاربعة والعشرين
ولاية بحالها يفعل فيها ما يشاء فله أن يضرب عايتها الضرائب كما
يحب ولا يجراً مخلوق من مخلوقات الله على أن يقول كلمة فى وجهه
وهؤلاء الفلاحون انما يعيشون لمسرته ولذة نفسه ولملأ خزائنه
ولا تزال ولاية مصر على جبل الذراع منهم ، وغير بعيدة عنهم .
وليست مصر فى قبضتها الا كما تكون الشىء فى قبضة اليد المفلوجة
المشلولة . فاذا تدبرت ذلك . فتصور أى ميدان فسيح يترامى
امام عين الرجل القدير فقد يتاح له أن يجمع السناجق كلهم تحت
امرة واحدة . وقد يتيسر له أن يطرح عن عنق مصر نير الاتراك
واذ ذاك ينادى بمصر مملكة مستقلة . ولكن ما فائدة الكلام .
هأننى أظنك ستقول أن هذا ليس بالشىء الذى يذكر »

فقال الشيخ « لقد حاول على بك أن يلعب هذه اللعبة من

قبل وأنت تعلم كيف كانت خاتمته »

فقال استيفن « هذا صحيح . ولكن كان على بك رجلاً لم يصب شيئاً وافرأ من التعليم وان كنت لا انكر أنه كان عبقرية ملتهب الذهن ، وكان قميناً أن يصيب رائد النجاح . لو لم يغدر به ذلك الكلب الذى يدونه محمد ابو الذهب . نعم اننى لا أعيد كلمتى . وهى اننى والله أوثر أن اكون فى الحال مملوكاً من المماليك على أن اصبح اكبر تاجر فى الشرق يبيع الناس سلعاً وامتعة » فضحكت المرأة وقالت « لا ينبغي لك يا ميسوليفير أن تصدق كل ما يقوله زوجى فإنه يجب أن يتكلم على هذه الصورة فى بعض الاحيان حتى ليخيل للانسان اذ يسمعه أنه سيرتك كذلك مسلماً ومملوكاً فى آن واحد »

فابتسم الرجل ولكن لم تزل دلائل القلق والجزع فى عينيه ونظراته وكان على قلة الاعوام التى مكثها فى مصر قد رأى أموراً أعجب من هذه وقعت وتحققت ، ولكنه خشى أن تلحظ مرغريت قلقه وجزعه فدار بالحديث الى موضوع آخر

قال فجاءة « أتعلم من الذى رأيته اليوم . ذلك الرجل الغريب الذى يسمى نفسه يعقوب القبطى وهو الذى سرقنا منذ سنتين بالات الحرير وضربته أنت حتى كدت تزهرق روحه »

فأجاب استيفن بابتسامة رضى « نعم اننى لا أزال اتذكره » فقال ليفير « انى أود أن تتذكر أيضاً تلك النظرة التى نظر

اليك بها يومذاك . لقد جعلت أرتعد وأرجف عدة أيام من هول تلك النظرة »

فأجاب استيفن « لك الله . انه كلب حقير »

فقال الشيخ « نعم . ولكننه وان كان كذلك ولكن ماذا اسمع . ألا تنصت . ما هذا ؟ »

ونفض الرجلان من مقعدهما فجاءة وبوحى شعور واحد وألقت المرأة من رعب ثوبها الذى كانت تخطه ، اذ بلغ اسماعهم اذ ذاك أصوات خافتة أشبه بقعقة السلاح ورنين السيوف ثم تلتها أصوات رجال خشنة صاخبة .

فصاح استيفن « والله ليس هذا الا قتال المماليك »
وأسرع الى النافذة فأزاح الاستار عنها وأطل ينظر
وكان البيت فى ركن قريب من مدخل الحى ويسهل على
الانسان اذا أطل فى النهار من النافذة أن يشرف على الطريق
العام ويتخطفى نظره ابواب الحى .

وللحال صاح صيحة اضطراب وهياج « هؤلاء مماليك
يتقاتلون »

وعاد عن النافذة مسرعا فأدخل رحليه فى النعل وهو يقول
« لقد ذهب الحارس الانكشارى عن ابواب الحى هاربا »
وألقت امرأته يدها على ذراعه تمنعه السير وهى تقول
« انك لن تذهب ياستيفن »

فلم يكن جوابه الا ان امسك بقفطانه وقال « هل انت آت
معى يا ليفبر ؟ »

وقبل ان يرتقب منه جوابا مشى الى الباب مسرعا .
وتردد الشيخ قليلا ونظر الى ربة البيت نظرة مستفسر ولم
يتكلم بل وضع منظاره على عينه واقتنى اثر صاحبه بخطوات
سريعة لم تكن تنتظر من قصر قامته وبدانة جسمه وثوبه
الفضفاض الرحيب

وخطا الرجلان فى لحظة واحدة الى الحارة وكان النور ضئيلا
فى الطريق فراحا يعدوان الى الشارع العمومى . حيث مصدر
رنين السيوف ووقع حوافر الخيل .

ووجدا الابواب مفتوحة قليلا . وقد تركها الحراس . ومن
تلك الفتحة الصغيرة انفلت استيفن خارجا الى الطريق . ولكنه
كاد يقع تحت حوافر جواد رجل كان مندفعاً نحو الباب بشدة
لو لم يثب بعيدا عنه كخطف البرق . وكان ذلك الرجل وهو على
ظهر جواده يدافع عن نفسه هجمات رجلين وضربات سيفيهما .
ولم يكن القمر قد اعتلى بعد قمم المقطم ولكن كان النور
كافياً فى تلك الليلة لرؤية أشباح أولئك الرجال

لم ير استيفن ولا رجلا واحداً من الالهالى . اذ كان من
عادتهم ان يفروا كالارانب الى احجارها عند اول قعقة تبلى
اسماعهم وانما شهد اشباحا راقدة على الارض فى امكنة متعددة

وقد علا الغبار أنوارهم الفخمة
واستقر نظره أخيراً على القتال الذي اشتدت وطأته بين
الرجل ومنازليه .

رأى رجلاً اسود اللحية على جواد حرب كريم يدافع بكل
ما أوتي من قوة ويناضل مستبسلاً أمام قرنين
وكانت وجنته قد أصيبت بطعنة سيف فانفتحت فيها ثغرة تسيل
دماً ولكنه لم يكن ليحفل بها أو يشعر بجرحه الدامى منها وهو
شاهر سيفه فى يده ينازل خصميه صائحاً عليهما « هلما الى القتال .
أقبلا . . »

واصطدمت السيوف

وكان روح المقاتل قد سرت فى نفس جواده فجعل الحيوان
يتحرك واثباً متراجعاً ، مقبلاً مدبراً معاً ، دون أن يزيح ظهره
عن الباب . ضارباً بقدميه الارض ، موحشاً يقذف ساقه فى كل
ما اصطدم به ، ولكنه على شدة غضبه وحميته ووحشيته ، ظل
مطواعاً لليد التى أمسكت بأعنته .

فكان منظر الرجل وجواده أشبه بمنظر الجان والمردة ،
يتحركان بوحى ارادة واحدة .

وتقدم استيفن وهو غير مكترث بالخطر فى عرض الطريق
ووقف ليفبر ينظر وهو فاتح فيه . متحفز للجري والوثب الى
البيت عند أول أماراة من أمارات الخطر

وكان الدم الذى سال من جرح هذا المملوك المقاتل قد بدأ
ينحك قواه ولكنه مع ذلك ظل ثابتاً أمام خصميه ، وكم من مرة
كان يوشك أن يقع ضحية فى يديهما . لولا مهارة الجواد
وخفة حركته .

ولما رأى الرجلان أن عدوهما قد تحصن منهما بذلك الركن
انطلقا يهجمان عليه مرة واحدة ، فعدا كل منهما اليه من ناحية .
واسرع اقربهما من المكان الذى وقف فيه استيفن نحو الرجل
يضرب خده بمجد سيفه من الجهة التى لم يكن مدافعاً عن نفسه
منها ولكن المملوك بهزة سريعة فجائية من رأسه تلقى الضربة
بنحوذته وقبل أن يتمكن الآخر من ابلاغ طعنة سيفه الى بدن
مقاتله ، هز المملوك السيف يبرق فى يده وهوى به على الرجل ،
فسقط هذا عن جواده صامتاً دون صيحة أو آهة .

لقد كانت تلك الضربة من ضربات المماليك التى عرفها
العالم كله .

ولكنه قبل أن يخلص سيفه من بدن عدوه ، عدا اليه الرجل
الآخر يعلموه بالسيف

وأجفل الجواد اذ ذاك وولى ظهره وصاح المقاتل الآخر
صيحة الفرح . ورفع النصل ولكن قبل أن يسقط وثب اليه
استيفن من خلف والقى ذراعيه حوله يمنعه الحركة

ولكن الرجل ظل ثابتاً فى مكانه على ظهر جواده وحاول

التخلص من هذا الوثاق الفجائي ولكن لم تكن لديه قوة يستطيع
بها ان يضعف تلك الذراع المتينة الشديدة العضلات
فسقط على الارض ومعه استيفن وهو لا يزال ممسكاً به ،
واندفع الجواد في رعب فضربه برجله فوق رأسه

وترجل الرجل ذو اللحية السوداء في وميض البرق عن ظهر
جواده وتحسس سيفه ولكن استيفن نهض من سقطته ووقف
أمامه ممانعاً وهو يقول « دعه فقد كفاه ما أصابه »

فأشاح المملوك عنه ظهره بغضب وحاول ان يتكلم ولكن
اختنق صوته وتعثر ثم سقط وقد غار وجهه الملطخ بالدماء في الوحل
وفى تلك اللحظة انسل من خلف الباب جول ليفبر فصاح
باستيفن بحدة « هلم بنا ، هلم بنا . انك مجنون لتدخلك في
هذه الشؤون »

وسمعت مواقع حوافر خيل قادمة من بعيد
فأمسك الشيخ بذراع استيفن وكاد يصرخ بأعلى صوته
قائلاً « هلم بنا . هلم بنا ندخل ، ان الممالك قادمون »
فانحنى استيفن فوق جثة الجريح وقال « انظر يا جول ان
الجريح من رجال مراد بك »

قال ذلك وأشار الى الشارة التي كان الجريح قد وضعها
فوق ذراعه

وطاد يقول « هلم نحمله اذ لانستطيع تركه على هذه الصورة

ليقتلوه »

فأطاع الرجل الفرنسي على غير ارادته ، وأعان استيفن على حمل الرجل وهو يتعثر ويكاد يسقط ، حتى دخلا به الحارة .
واذ ذاك اقتربت حوافر الخيل وأصوات القادمين على ظهورها مختلطة ممتزجة ببعضها البعض .

فصاح ليفبر « اغلق الابواب يا استيفن »
وأقبل عليهما نور مصباح ودنت منهما مرغريت ، وهى حاسرة الرأس ، وقالت « احملاه الى البيت ودعاني اغلق أنا الابواب »
ومضت هى الى البوابة فأغلقتها ووضعت المزلاج خلفها
وأقبلت الضوضاء تدنو ويذا ولم يلبثوا أن سمعوا صائحا يصيح « مراد بك . مراد بك »

وسمعه المملوك الجريح كذلك وحاول أن يجيب على هذا النداء اذ تحركت شفتاه وحاول النهوض على قدميه

وسمع صوت فتى يصيح « مراد بك . مراد بك »
وتلته أصوات خيل قادمة عادية لاتلوى على شيء .
وصاح ليفبر يقول « هانحن واقعون عما قليل فى ايديهم .
ألا ادخلى ياسيدتى الى البيت . هلمى ادخلى »

وتماسك الجريح فشى مترنحا نحو الباب ، وكانت أيدي المالكين الذين وصلوا تدق الباب دقا شديداً وتمطره ضرباً ودفعاً .
وكان الرجلان يهمان بأن يمسكا الجريح عن التقدم ولكن

المرأة كانت أذكي منهما وأتهد بصراً اذ تقدمت فرفعت المزلاج الحديدى عن الباب وفتحته ، وكاد ليفبر يصعق من الرعب لفعلتها تلك .

وانعكس نور المصباح وهى تحمله فى يدها على لأمت القادمين وأسلحتهم وبدت وجوههم المخيفة الموحشة وخوذاتهم الفولاذية الضخمة اللامعة . وبدا على النور وجه الجريح والدماء تسيل منه وقد وقف بعظمة وحلال

وللحال وثب من صفوف الجمع فتى مراهق فصاح صيحة فرح والتقى بنفسه عند قدمى الجريح وهو يقول « الحمد لله اذ أراك قد نجوت يا أبى . لقد رأيت سليماً أمام هذا الباب فعلت أنك لا بد من أن تكون قريباً من هذا المكان »

وأمسك بيد المملوك الجريح وأهوى عليها يقلبها بحرارة ثم نهض من مجثمه فدار بعينه ليستعرض الرجلين والمرأة . قال « من هؤلاء يا أبى ؟ »

فأجاب الرجل موجزاً « هؤلاء اصحابى »

وتقدم من بين الجمع مملوك شبيخ فقال « يحسن بنا أن نذهب ياسيدى البك فنحن خمسون فقط فاذا علم ابراهيم بقله عديدنا فقد تسول له نفسه العودة للقائنا وقد عبرنا النهار على قوارب « القياسة » عندما علمنا أن الكوبرى قد انكسر اذ خشينا أن يكون وراء ذلك مكيدة ولكن عثمان هذا أبى الا القدوم ولو عوَّما

فوق صدر النهر ويلم الله أى شتام رمانا بها اذرآنا وقوفا
ننتظر الزوارق »

فقال البك « ولو فعلتم لتأخرتم مع ذلك عن انقاذى لولا
هؤلاء الافرنج »

ثم التفت الى استيفن وقال

« ولن أنسى صنيعك ما حييت »

ورفعه القوم الى جواده واحتاطوا به جميعاً ومضوا في
سبيلهم منصرفين

فلما ابتعدت أصواتهم وساد السكون صاح الرجل الفرنسى
الشيخ يقول « يا آلهى . أنه مراد بعينه »

لفصل الثمانى

آمال جديدة

وكانت الايام التى تلت تلك الملحمة الصغيرة بين مراد ورجال
ابراهيم فترة قلق وجزع وخوف لأستيفن وجول ليفبر
وكانت حياة الافرنج فى القاهرة حياة لا تجدد من القوم غير
تسامح مزيج بالسخرية والاحتقار . فلم يكن يسمح لهم بالمتاجرة
الا بأشد الشروط ارهاقا ، وكانوا مستهدفين لضروب الاخطار
والمخاوف ، لا يلبثون بين حين وآخر أن يروا أنفسهم مطالبين
بأنواع فادحة من الضرائب
وكان خمول الرجل منهم مأمنا له من الشر ، واعتزاله السكان
منجاة له من الأذى .

وكان جول ليفبر يدرك كل ذلك ويتحاشى الوقوع فى الخطر
والتعرض للأذى ولكن شريكه لم يكن ليحفل بذلك فأن طبيعة
مراد بك الموحشة الكريمة فى آن واحد كانت تقع عنده موقع
الاعجاب ، وتستأسر فؤاده ، وتروق فى عينه . وقد سره أن
أتبع له يوما أن يؤدى لذلك الرجل صنيعا كصنيعه الذى اسداه اليه

ولم يكد المساء يقبل حتى يحىء ليفبر كعادته لزيارة شريكه
 فى داره ليدخن لفاقة تمنغ ويتسامر معه ويتناقش فى أنباء اليوم
 فكان استيفن يعود فى كل ليلة الى حديث ذلك القتال الذى شهداه على
 أبواب الحى يصف كل طعنة رآها وينتقد كل حركة شهداها . بحمية
 لم يكن ليفبر وهو الرجل الهادى الرعديد يدركها أو يعجب بها
 ومرت الايام فلم يحدث لهما أى خطر من ناحية ابراهيم بك
 أو مماليكه فترك الرجل الشيخ مخاوفه وتوفر استيفن على عمله
 فى المتجر . .

وقد أبل مراد من مرضه واندملت جراحه ، فعقد مع ابراهيم
 هدية ، وعادت السيوف الى اغمادها

فى ذات يوم بينا كان الشريكان منصرفين الى اعداد بعض
 البضائع لأجل ارسالها الى الاسكندرية مع قافلة من القوافل
 اذ سمعا وقع حوافر جواد أمام باب الخانوت ولم تكد تمضى
 لحظة حتى شهدا صبياً من الممالك فى أول بواكر الشباب قد دخل
 عليهما المحل يتهادى فى مشيته معجباً بنفسه

وكانت ملامحه وتقاطيع وجهه الدقيقة لا تكاد ترى تحت
 عمامته الكبيرة . وقد مشى تاركاً سيفه يضرب الارض . وهو
 واسع الخطى فى سراويل واسعة فضفاضة مستديرة الحجر
 جعلت مشيته مضحكة

ولكن وجهه كان ينم عن الزهو والخيلاء فقد دخل غير

آبه بالعمال الاهالى فى الحانوت ، متقدماً نحو الفرنسى مباشرة .
 فازعج هذا اذ خطر فى ذهنه ابراهيم بك وذكرى تلك
 الملحمة بين رجاله وبين مراد بك . ولكنه اسرع الى المملوك
 فانحنى له باحترام وسأله ما حاجته فى أدب وخضوع
 فقال الصبى " المملوك بلهجة الصبيان الفرحة المتهللة « سمعت
 أيها الافرنجى أن لديك هنا حرائر لامثيل لها فى مصر كلها فجئت
 لأرى بنفسى »

فأمر الرجل خادما من خدم الحوانيت باحضار « عينات »
 ونماذج ، ولكن المملوك تولاه زهوه بنفسه . وكان الزهوشيمة
 المماليك جميعاً . ولكنه نما فى هذا الصبى مبتكراً قبل أوانه ،
 ولذلك قال بلهجة مختصرة وهو مقطب حاجبه أنه لا يريد أن
 يشهد السلم من أيدي الخدم بل يود أن يراها من يد الافرنجى
 نفسه . . .

فلما عرضت الحرائر عليه . لم يكن ليعجبه منها شئ . اذ
 راح جول يعرض عليه قطعة بعد قطعة . ومضى هو يعبث بالقطع
 والالوان عبث الوليد ، وهما يتنقلان فى الدكانة من ركن الى ركن ،
 حتى انتهى الأمر بهما الى بلوغ أقصى مكان فى الحانوت
 واذا ذاك انحنى الصبى فهمس فى آذن الرجل ، بعد أن استوثق
 مما حوله . « أين الافرنجى الآخر . الرجل الطويل القامة ؟ »
 فأجاب جول بلهجة المندesh « اتعنى بذلك شريكى ؟ »

فقال الصبي « لا أعرف ولكن أريد أن أرى ذلك الرجل
الذى كان معك ليلة قطع الخليج »

فلث الرجل ورعدت ساقاه وقال « ماذا تعنى بهذا ؟ »
فبدأ على محيا الصبي دليل السخرية والاحتقار للرجل وقال
بلهجة القلق المحتد « اننى أسألك عن ذلك الرجل الذى كان معك
فى تلك الليلة . وأعان مراد بك أبى على الرجلين اللذين كانا يهاجمانه
وهما من ممالك ابراهيم بك . أبادهم الله أجمعين »
فأجاب جول مضطربا « اننى أتذكر وجهك الآن . وها أنا
سأناديه »

قال ذلك ومشى الى الجناح الخلفى من المحل حيث كان استيفن
منشغلا بفتح « بالات » من القماش ، وهو مشغور عن ساعديه
ومشى الصبي فى أثره من غير أن يدعى الى التقدم ولكنه
لم يلبث أن تولاه السخرية اذ رأى استيفن منهمكا فى عمل كهذا ،
وقبل أن يدع لجول فرصة لتحذير شريكه دنا منه فمد يده الى
صدره ورفعها الى عمامته ، فى تحية صامتة رهيبة وقال « أنا
خادمك أيها الافرنجى فانك أتقذت حياة أبى »

فقال جول مندهشا « ماذا أسمع . هل أنت ابن مراد بك »
فأجاب الصبي « أنا مملوكه وهو عندى أعز واكم على من
أبى . وقد جئتكم بهذه منه »

وأذ ذاك دفع بيده فى جيبه فأخرج رسالة ناو لها لاستيفن

ثم قال « ألا فض غلافها أيها الافرنجى . فى وقت فراغك ولكن قد أمرنى أبى أن أقول لك أن تقرأها فى خلوة اذا احتوتك حجرتك الخاصة بك وحذار أن تفرط منك كلمة عن تلك الليلة فان ابراهيم بك على الرغم من الهدنة المعقودة بيننا وبينه قد يحاول الثأر منك لصنيعك »

فتناول استيفن الرسالة ووضعها فى رفق فى قفطانه وقد أدى الصبى الرسالة بعظمة الرجولة الرائعة ثم وقف متلفتا تلقت الصبية الاغرار ينظر الى بالات القماش ثم عاد يرمق بنظراته ذلك الوجه البرونزى والقامة الطوال المشدبة ثم لم يلبث أن قال بصوت رهيب « انك تصلح أن تكون مملوكا جيلا ثم أنت هنا تقضى أيامك فى عمل كهذا هو عمل النساء واهل سورية »

فأجفل استيفن اذ شعر بأن الصبى قد وضع أناملته على الوتر الحساس فى فؤاده وهز خواطره التى تجول فى ذهنه هزا . ولئن كان الحانوت يحوى أمتعة وسلعا من الحرائر فقد كان جول كذلك يتاجر فى سلع أخرى كلما رأى السوق يتطلبها وشهد الطلب متكاثرا عليه

ولذلك جعل الصبى يضع عينه على كل ما وقم تحت نظراته وانتهى به المطاف فى الحانوت الى سيفين مستقيمتى النصل قد كاد الصدا يملو حديهما . فعدا الصبى اليهما بوثة ونزعهما من

مكانهما ومضى ينظر اليهما نظرات طويلة امتزج فيها العجب
بالسخرية .

ولم ين أن صاح « مانوع هذه السيوف . أيها الافرنجى .
ليس لها حد ، ولا تستطيع أن تقطع قطعة من الخشب . ما أحقر
سيوفاً كهذه بجانب هذه المشرفيات ! »

وتحسّ سيفه المنقوس الحد وهو فى حمائله بجانبه
فأجاب استيفن « هذه سيوف افرنكية هى للطعن اكثر
منها للقطع والقصل »

وأخذ السيف من الصبى فأمسكه من مقبضه فلواه حتى كاد
يقوسه تقويساً

فقال الصبى بلهجة المستفسر المندهش

« هل أوتيت علم حمل السيف ؟ »

فأجاب استيفن « كنت احملة يوماً »

فقال الصبى « والمشرفيات كذلك ؟ »

فأجاب الرجل « كلا . لا تصلح هذه للمجالدة بها »

فقال الصبى « ولاكنها خير من سكين الجزار هذه . ان سيفاً

مهنداً كهذا فى يد مملوك ليقطع بدن افرنكى مسلح بسيف من

سيفيك هذين ، على طولها واستواء نصالها »

فهز الرجل رأسه وقال « قلما يصلح سيفك هذا أمام مثل

هذا السيف . وقلما يتيسر للأنسان أن يحمى نفسه به »

فقال الصبيّ بحرارة وحمية « ولكن الانسان يستطيع به أن
يقطع عدوه قطعاً »

فأجاب استيفن « ولكنه لا ينفذ بطعنه الى الصميم »
فقال صاحبه وهو يحاوره « انك تفاخر به أيها الافرنكي
ولهذا أريد أن اختبره في التو والساعة »

فضحك الآخر عاتباً وقال « ليكون ذلك . واذ ذاك انبرى
شريكه يصيح به « كلا كلا . لا تكن احمق يا استيفن »
فأجاب استيفن « دعك أنت من هذا » وأمسك بالسيف
ووقف في موقف المدافع المتحفز للوثوب .

وشهر الصبيّ سيفه وقبل أن يستعد استيفن للقاءه ، وثب
الغلام عليه كاهلر المفترس ومضى يمحطه طعنًا وضرباً ، وهو يحمل
السيف بمحذق ومهارة قلما تنتظر من صبيّ مثله في نخوف بدنه
وصغر سنه وسعة أثوابه

ولكن كان السيف الطويل المستوى النصل يتلقى طعناته
هادئاً صامتاً في سكون ورهبة .

ولم يلبث أن تعب الصبيّ وخمدت حميته فتراجع في دهشة
وهو يقول « والله لقد قلت حقاً . ولكن هلم بنا مرة أخرى
ودعنا نجرب المجالدة ثانية »

ولكن استيفن هز رأسه وألقى السيف جانباً وقد استحميا
من الاندفاع وراء شهوة نفسه في مجالدة صبيّ كهذا

فأسرع ليفبر الى السيف فالتقطه من مكانه وقد تنفس الصعداء .
وهدأت مخاوفه الأولى . ووضع السيفين بعيداً عن منال الصبي
وهو يتبعهما بنظراته نادماً متلهفاً عليهما .

قال الصبي « هذه حيلة منك أيها الافرنكى . فقد تبينت
ذلك . ولكن صديقى حسن الاكبر سيضحك منى ساخراً اذا
علم بما فعلت الآن وسيقول أن جيم الافرنك حمقى مجانين
لاستطيع أن نستمد منهم علماً ولا فناً . ولكن ليس هذا
بصحيح فقد كان هناك يوماً أفرنكى وكان كذلك مملوكاً . وقد
أخبرنى بقصته رضوان أغا عند ما كنت صبياً صغيراً أعيش فى
« الحریم » ومقاصير النساء . وكان ذلك الافرنكى يخدم على بك
الكبير . وكان يسند ظهره الى أحد الجدران ويلاقى بسيف
كسيفك هذا طعنات ثلاثة ممالك معاً . بل كان يستطيع أن
يدافع عن نفسه أمام فارس على جواده يحمل رمحاً طويلاً ، وما
كنت لأصدق قصة ذلك الرجل ، لو لم يكن محدثى بها رضوان
أغا فهو لا يكذب مطلقاً ولا يفترى حديثاً »

فقال ليفبر « لقد سمعت ، أنا أيضاً بقصة ذلك الافرنكى
ولكنى لا اعلم ماذا كان من أمره فهل حدثك رضوان أغا عن
ذلك شيئاً »

فنظر الصبي الى الرجل طويلاً ، كأنما شعر بأنه قد ارتكب
حماقة بما قال أمام الرجلين ولكنه التفت الى الرجل الآخر كأنما

قد كبر في عينه اذ علم بمهارته في حمل السيف وأنكر عليه أن يكون
تاجر بضائع لا أكثر ولا أقل

قال « ألا نبني ألا نستطيع أن تتنازل عن هذين السيفين
فأني أريد أن أريهما لصديقي حسن الأكبر لانه يغلبني أبداً
في لعبة « الجريد » وفي المجالدة بالسيف لانه اضخم مني بدنا
وأكبر سناً . وهل تستطيع أن تعلمني المجالدة بهما ، حتى ابذه
إذا وقفنا في رهان على المجالدة »

فأعجب استيفن مارأى من ذلك الصبى وحميته فأجاب مبتسماً
متلطفاً « افعل ذلك بكل سرور ولكن هل يروق لك أن تأتى
الى الخانوت كثيراً لتلقى الدروس »

فأطرق الصبى برأسه وقال « لا اظن ذلك من الحكمة ، فقد
يهتدى ابراهيم بك بواسطة جواسيسه الى الخبر ويعلم بقدومى
اليك فيتجرى الاسباب ، ويتقصى البواعث . فيعمل على أن ينتقم
منك لما فعلت في تلك الليلة المعروفة »

وتأمل لحظة ثم تهدوحيًا فى صمت وخرج يمشى مرحاً ، دون
ان ينظر الى ليفبر أو يعيره التفاته

ووقف الرجلان يرقبانه وهو خارج بعظمة وزهو وشهدام
وهو يثب على ظهر جواده وقد استوى على السرج أشبه بالقردة .
وعدا منصرفاً :

وتتم ليفبر وهو ينظر نظرات مذهولة من خلف منظاره .

« في ذمة الشيطان . لم أر لهذا الصبي في حياتي شبيها . انه يحكى شيخ البلد في كبريائه وجلاله وخيالاته وهو يلوح في الثالثة عشرة » فقال استيفن « من يدري لعله سيصبح يوما شيخ البلد » فابتسم صاحبه وأجاب « وتلك طماعيتك كذلك ياسيدى . ولكن عليك بالاعتناء بهذا الكتاب فمن يدري لعل مراداً قد تنازل عن مكانه لك ، لرد صنمك »

وابتسم ابتسامة متلطفة ، وان كان ذهنه قد امتلأ هواجس ونبوءات سيئة . فان هذه الزيارة قد أعادت الى فؤاده مخاوفه ووساوسه . .

فضحك استيفن وأجاب « أنت تعلم يا عزيزى ليفبرأنى للاحسن قراءة العربية وان كنت انكلم بها كاعلمها ولهذا يجب أن تتلو على الخطاب وتشرح لى فجواه والآن هلم بنا فقد حان وقت الغداء » فقال الشيخ « وددت لو أنك لم تتلق كتابا كهذا فاننى اخشى علينا منه وقلبي يحدثنى بهاجس مخيف »

فعاد شريكه الى ضحكاته الاولى وقال « ومن يدري فلعل فيها طلبات كبيرة على المتجر يا عزيزى جول »

فهز الفرنسى رأسه هزة المستريب غير المصدق ووضع « القلق » فوق رأسه ونفض قفطانه

وبعد ساعة كانا جالسين قبالة المائدة فى بيت استيفن يدخنان عن كئيب من مرغريت وهى تعدّ لهما القهوة .

واخرج استيفن الخطاب من قفطانه فقص شرائطه الحريية
والقي نظرة طويلة على أسطره

قالت زوجته وكانت قد سمعت منه القصة كلها عند رجوعه
« ماذا يحمل الخطاب يا عزيزي ؟ »

فلم يجب على سؤالها بل مد يده بالكتاب الى ليفبر وهو
يقول « هاك الكتاب اقرأه فاننى لا ادرك المعنى جليا »

فوضع الرجل منظاره على أنفه بكل تؤدة ومضى يتلوه لنفسه
أولا اذ كان الخطاب ردىء الخلط ، وكلما تلا سطرأ من أسطره
اشتدت عبوسته . وتجهم وجهه

فصاح به الآخر قلقا « قل الآن . ماذا يحوى الخطاب ؟ »
فأجاب الشيخ بصوت رهيب « انه يريد منك أن
تذهب لزيارته »

فأجاب اسنيفن ضاحكا « حسن جداً . ولكن ليس فى هذا
ما يحزنك الى هذا الحد . والآن اقرأه علينا كله »
فعمل الشيخ وتنحنح وشرع يتلو الخطاب
وكان هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« من مراد بك الى الافرنكى الذى يسكن على مقربة من الابواب »
« الكبيرة فى الحى الافرنكى »

« سلاما »

« وبعد فليكن في علمكم أن مراد بك لم ينس الجليل »
 « الذي اسديتموه اليه في ليلة قطع الخليج وأنه ليس »
 « بالجاحد ولا بالكافر الصنيع وانما منعتة جراحه التي »
 « اصابته في تلك الليلة من البحث عنك ورد الدين الذي في »
 « رقبته لك . على قدر استطاعته . والآن وقد أراد الله الرحمن »
 « الرحيم أن يشفي من جراحه ويرد عليه عافيته ، جاء في هذا »
 « الكتاب ينتهز الفرصة الأولى ليعترف لك بصنيعك نحوه »
 « اذن فلتحط علما أيها الافرنكى بأن مراداً »
 « لا ينسى قط صنيعاً ولا يقصر في الجزاء ولكن كيف يرد »
 « اللسان صنيعاً للرجل الذي اتقذ حياته . وأى جزاء يعدل »
 « ذلك الجليل . هل أهب الذهب رجلاً جازف من أجل بحياته »
 « ولهذا أراني عاجزاً عن معرفة السبيل الى مجازاتك على »
 « خدمتك ولذلك أرجو أن تحضر لزيارتي ، وعند ما أعلم أي »
 « شيء تفضل ، امنحك اياه اذا شاء الله أن يكون ذلك في »
 « مقدورى
 الامضاء

من مراد بك شيخ البلد
 بعونه تعالى وقوته

وساد السكون لحظة

ومشت اليه زوجته فألقت يدها على كتفه وقالت : انك لن
 تذهب يا استيفن »

فظل الرجل على صمته برهة وهو ينظر الى زوجته ثم الى
الرجل شريكه وأخيراً أجاب « اننى سأذهب ! »
فقال شريكه « اذا كنت قد انتويت الذهاب فأرجو أن
تلتمس منه ابرام عقد لتوريد كمية كبرى من البضائع للسناجق »
وتولت عن الرجل مخاوفه جميعاً اذ خطر له الرشح وتخيل
الذهب مندفعاً عليه

فقال استيفن « سأجد فى لقاء مراد بك للمرة الثانية أعظم
السرور ، فبالله عليك هل رأيت فى حياتك أمهر منه شجاعاً
وحامل سيف ؟ .

فهز الرجل كتفيه لأنه كان يعلم طبيعة شريكه وأوهامه
وخيالاته ، ولم يكن هو ليحفل من هذه الفرصة بشيء غير أن
تدبر على متجره خيراً وذهباً وكسباً.

أما زوجته فقد هالها الامر . وعادت تحثه على ترك نيته ولكن
عنباً كانت تحاول فقد سأله مراد بك ان يذهب لزيارته وكان
حقاً عليه ان يذهب

ذلك كان رأيه ، وما كان احد مستطيعاً ان يمنعه الذهاب .
وللمرة الأولى منذ عدة أعوام راح استيفن يعيش فى السوق
يصفر بشفتيه فرحاً طروباً .



الفصل الثالث

في معسكر الممالك

وفي اليوم التالي ركب استيفن بغلا ، اذ لم يكن يسمح لاحد غير الممالك . بركوب الخيل ، وانطلق يريد قصر مراد في الجزيرة .

وركب بجانبه شريكه ليفهر حماراً ولا تزال على وجهه علامات المرضي والخوف ، لانه كان في شك من نتائج هذه الزيارة . وما من باب زويلة الى الخلاء فأوقف الشيخ حماره وقال « يجب على أن أعود . فقد حضرت البضائع الجديدة ولا بد من اخراجها من الصناديق وتنسيقها ويحسن بنا أن نجعلها على استعداد فإنه لا ريب عندي في أن صديقك مراد بك سيوصيك على استحضار شيء منها ومن يدري فقد يطلب عقد اتفاق على توريد بضائع للممالك خاصة »

ولم يكن استيفن مصغياً الى دعاية شريكه بل كان يتطلع بعينه في الخلاء الترامى أمام ناظره وعن يساره انبسطت الصحراء مترامية الى جبال المقطم ، وعن يمينه راح النيل يجري في سكون ،

فى وسط ضفتيه الناضرتين ، والحقول قد كستها الطبيعة أنضر
حللها ، ولاحت أشباح الاهرام وراء الجيزة ، واهنة فى الافق ،
خلف الغمام ، وراء سحائب الصباح الساكن
ففى ينظر مستوياً على ظهر بغله منهوم العين بالحسن الذى
يراه أمامه

ولم يلبث أن صاح « يا الله . ألا ترى أيها الصديق . لنا الله
ما كنا إلا بالحقى الاغرار الضعفاء الازهان اذ قضينا الحياة فى
عتمة حانوت ، وظلمة متجر فى مدينة صامته . قدرة . على حين
انبسط هنا ملكة الله ، وقامت دولة الطبيعة . كأثروة مصر
كلها التى بعدت عن منال أيدينا ، تقارن بعدوة واحدة ، على
جواد كريم فى أرض كهذه ، مع سائم هذا الصبح السجسج العليل »
فهز الشيخ كتفيه اذ لم يرق فى عينه ذوق شريكه وقال « يحسن
أن تعبر النهر من هنا . فان ذلك خير لك من الاقتراب ناحية
الروضة لئلا يفتك ابراهيم ورجاله ليعرفوا باعث رحلتك هذه »
فأطرق استيفن رأسه وقال « سأعبر النهر من جانب الروضة
الى الملتقى »

ووقف يتبع بنظراته صاحبه وهو متجههم الظلمة يتمم لنفسه
« يا الله . انه ذاهب موفض الى معسكر أولئك اللصوص الزعانف
بوجه مستهل ، وطلعة فرحة لم أره بها يوماً فى ذهابه الى السوق »
وهز كتفه هزة أخرى وتنفس الصمداء وأدار رأس حمارة
< : >

فأجابه المدينة .

وعبر استيفن النيل في زورق من زوارق القياس ، وقد وضع بغله في قاعه ، ورسا على شاطئ الجيزة فاعتلى ظهر مطيته ، وانطلق في ممر ضيق بين الحقول ، ميمًا وجهه شطر قصر مراد بك ، وكان يبعد عن الشاطئ مسافة أميال ثلاثة .

وتخلصت روحه من ذلك العمل الثقيل على نفسه الذي ظل يكدح فيه مدة أعوام طوال ، فنسى كل شيء والعقد الذي وصاه شريكه بأن يظفر به

ومضى يحلم بالمعظمة والثروة والترف ، ويتخيل حياة مفعمة بالقوة والسلطان والنشاط والحركة ، حياة طالما تمنّاها ، وظمئت نفسه الى بلوغها

فأعمل قدميه في جنبى بغله فرق به مروق السهم بين حقول الذرة على الجانبين

وجعل الفلاحون ينظرون اليه . وهم وقوف بجانب جداول الماء في حقولهم ثم لا يلبثون أن يشيحوا وجوههم عنه ويعودوا الى عملهم

والتقى في طريقه ، بين لحظة وأخرى ، بملوك أو مملوكين على ظهر جواديهما فلم ينظرا اليه ولم يعمرا أى اهتمام حتى بلغ أخيراً بوابة عالية ، ووجد عندها مملوكاً أوقفه بصيحة عالية . ومنعه الطريق .

فأخرج استيفن رسالة مراد من جيبه فرمقها المملوك بنظرته وقال بلهجة احترام « حسناً . اتبعنى »
 فترجل عن بغله وأسلم مقوده الى صبيّ هناك ومشى فى أثر الرجل فى ممر عريض مضى يتأود وينعطف فى منافس الحديقة .
 وكانت الحديقة تبلغ خمسين فدانا فى مساحتها ، وكان القصر يبدو عن كئيب تفصله عن معسكر المماليك قناة من الماء عريضة الصدر .

ولم يتيسر لاستيفن أن يتذكر معالم تلك الحديقة الواسعة المنقعة بأشجار النفاكية ، الموحشة فى مظهرها ، كصاحبها ومالك قصرها ، فقد كان الدليل يسير به مسرعا الخطى ، لا يلاحق خطواته ووقف به الدليل امام بناء صغير يبعد عن القصر مسافة طويلة وأمره بالانتظار ، ودخل هو وحده .
 ولم يلبث أن عاد وفى رفقته مملوك آخر اجتذب انظار استيفن بروعة مظهره .

وكان الرجل طوال القامة ، فى ثوب أنيق ، وبزة فخمة ، من الحرير الخالص ، وله وجه نبيل ، ناعم الوجنة كخذ الفتاة وله صوت رقيق كصوت الصبي .

ولاح لاستيفن انه من الاغاوات وبدا له انه لم يكن صغيرا فى مرتبته فى القصر

فسلم الاغا تسليمه الاتراك وقال « السلام عليكم . ان مولاي

شيخ البلد الساعة مشغول في شؤون مستعجلة لا يتيسر تأجيلها ولكنه أرسل خادماًكم ليرحب بكم ويؤهل بقدومكم وسيفرغ من عمله بعد قليل ولذلك يرجو أن توليه الشرف بتناول طعام الغداء على مائدته »

فأجاب استيفن « أشكر للأفندي أدبه ولشيخ البلد هذا الشرف الذي أولانيه »

فعاد الاغا يقول بصوته الضعيف الذي يشبه صفيير الصافر . « ولعلنا بأذن الله مستطيعون أن نوجد لك ما تتفكه به وتضيع الوقت لحين انتهاء مولاى شيخ البلد من عمله . فهل تحب الازاهر وتميل الى النباتات . أم لا تحفل منها بشيء غير ما يسيغه اللسان ويعذب مذاقه . كما يفعل سيدى مراد بك . »

فضحك استيفن وقال « أخشى يا افندي أن لا يكون لدى أى ميل لذلك »

فنظر الاغاليه نظرة طويلة متفحصة وقال « اذن تحب السباق والخيول والسيوف والاسلحة ؟ »

فأجاب استيفن « نعم . أشعر لاؤلائك بميل وان لم أر فى مصر شيئاً منها »

فلحظ الأغا فى تلك الكلمة رنة التأسف ، ولهجة المتندم المملوم فقال : « اذن لا تجد لذة فى بيع السلع والاتجار بالامتعة » فأجاب استيفن « كلا . ولكن الانسان مكره عليها بدافع

الحاجة ومطالب الحياة »

فقال الاغا بلهجة رهيبة « نعم . تلك مشيئة الله »
ومضى الاغا منصرفاً من الحديقة يريد ميداناً فسيحاً هناك
تسمع منه حوافر خيل وضوضاء أصوات خشنة جافة صاخبة .
فلما بلغ استيفن تلك الساحة الكبيرة ، ووقف يرصد ما
يجرى فيها ، لم يلبث أن اشرق وجهه ، وتهللت اساريره وبدت
عليه امارات فرح لم تستطع تلك الحديقة الغناء بكل ما فيها من
فاكهة وشجر فاخر أن تثير شيئاً منه

وقف في تلك الساحة عدد عديد من الممالك يمرنون خيولهم
ويتجالدون على سبيل الرياضة ، متدافعين على ظهور الجياد
متهاجين متلاحمين ، ممسكين بأعنة تلك الجياد ، اذ تكاد الخيل
تبدو مصطدمة ببعضها البعض ، واذ يخيل لرائيها أن لا مفر من
وقوع الخيل متلاحمة متوثبة . بينما كان آخرون في ناحية قداخذوا
بعصى طويلة من الجريد ، يتخابطون بها ويتجالدون ، متراهنين
متسابقين ، لا تكاد تخلو مسابقة منها من رأس مكسور أو وجه
جريح ، أو يد دامية

وقف استنفن ينظر فرحاً طروباً بالمنظر ثم أعجبه مظهر تلك
الجياد الكريمة فشئ حتى دنا من جماعة منها ، فوقف معجباً بها
بلاطف سوقها وأعرافها بيده

فراح الاغا يتسم وهو يقول متلطفاً :

« أ كنت يا افندى جندياً من الفرسان قبل قدومك الى مصر ؟ »

فأجاب استيفن « كلا . ولكنى كنت جندياً فى فرقة المهندسين ولكنى طالما صبوت الى الخيل ، وكنت مشوقاً الى الجياد وجرت لى معها شئون ، وطالما اعتليت متونها ، وأركضتها سباً قاعاديا »
فأجاب الآخر « آه . اذاً كنت مهندساً فى الجنديّة . تلك صناعة جميلة . اذن ألا تستطيع الترامى بالجريد ؟ »

قال ذلك وأشار بيده الى رجلين عن كذب من حلقة الخيل كانا يستديران ويجريان وراء بعضهما البعض وكل منهما مشهر جريدة طويلة ، يهيم بقذفها
وكان أحدهما كهلاً والآخر فتى فى ريم العمر لم تنبت بعد لحيته ، وكان الفتى مشذب العود ، رائم القامة وان كان محنياً فوق حارك جواده .

فأجاب استيفن واجماً « كلا . اذ لم أمسك بشيء فى هذه الاعوام الاخيرة غير عصا القياس التى أقيس بها ياردات القماش ؟ »
فضحك الاغا وقال « ولكن الله خلقك لشؤون أكبر من ذلك كما يلوح لى من بنائك وجثمانك ، ولكن تلك لعبة خشنة خطيرة . أنظر . »

وكان الرجل الكهل فى تلك اللحظة بعينها قد قذف بالعصا نحو قرنه فأصابت جنبه وهزته حتى كاد يقع عن ظهر جواده

فصاح استيفن « والله انه لواقع عن الجواد »
 فابتسم الاغا وقال « كلا . مامثله يسقط عن صهوته »
 وفي اللحظة عينها التي تكلم فيها الاغا استوى الفتى فوق
 صهوة جواده ، وهز رأسه وانفجر يصيح بأعلى صوته متحمساً
 « والله يا محمود افندى لقد كدت تغلبنى . ولكن دعنا نعاود
 اللعب على الاقدام »

فهز الآخر رأسه ضاحكاً وقال « لست يائساً من الحياة
 يا حسن حق ، أنزل لك عما تريد . اننى فى كل مرة أغلبك على
 ظهر الحصان ، لان ركبتك لاتوافق وزنك . فان جوادك من
 غير شك لا يصلح لك ، ولا يوافقك غير ركوب الجمل ، أما على
 القدم ، فياحفيظ ، ما كنت لأسوق بنفسى وأندفع لموافقتك
 ولو أعطيت مال قارون »

وانبرى الخصى يقول « هلم بنا فربما كان مراد بك الآن
 فى انتظارنا . وغداً سنشهد من هذا الشئ الكثير . اذا كنت
 تحفل بأن تشاهدها ، لانه قد حضر اليوم بكوات كثيرون من
 الريف ويسوءهم أن يعودوا الى بلادهم من غير أن يتلقوا طعنات
 وضربات ، ودون أن يجالدا بمالك مراد بك »

فمضى استيفن يسأله بفضول « وهل يحضر بمالك ابراهيم
 بك فى غالب الاحيان الى هذا المعسكر من الروضة ؟ »
 فابتسم الخصى وقال « كلا . وعلى الرغم من هذه المخالفة التي

عقدتها مراد بك مع ابراهيم بك لايفتأ ممالكك الفريقين يتمنون
على الله أن يهيء لهم فرصة ليثبوا الى اعناق بعضهم البعض ،
قبل أن تغيب شمس اليوم . واننى لأود لو انهم عاشوا فى سلام
لانه من يدري أيها الافرنكى ما فى لوح القدر »

واذ ذاك نظر الى ستيفن نظرة المسائل المستفسر وقال « ألم
يبلغك ان الافرنك يتطلعون الى القدوم لامتلاك مصر ؟ »
فأجاب ستيفن وهو يهز رأسه « لم أسمع ولا كلمة واحده
عن ذلك »

فعاد الخصى يقول : « آواه . من يدري ما هو مكتوب فى
الازل ، فان الافرنك يقاتلون الآن فى الهند ، فإذا يمنهم القتال
هنا . لان الذين يقاتلون ويحاربون فى نهاية الطريق ، لا يجدون
بأساً اذا هم حاربوا وقتلوا فى الطريق نفسه ولكن قل لى يا أيها
الافرنكى . ما رأيك فى الجيش الافرنكى وهل يستطيع كفاح
الممالك ، وهل يقهروننا لو برز الرجل منهم الى الرجل منا على
ظهر الجواد ؟ »

فأجاب ستيفن « لا أظن ذلك ولكن الممالك لا يستطيعون
مقاومة مدفعية الافرنك »

فقال الاغا « نحن نملك أيضاً مدافع وعلى ترسانتنا مدير من
الافرنك كذلك . وهو فرج افندى وربما ستراه اليوم هنا »
ومشى الخصى باستيفن الى السلامك وكان معداً لاستقبال

الضيوف ، فلما مر بالحرس اشار الى ستيفن بالدخول
 فلما دخل ستيفن الحجرة رأى على الديوان الذى حول
 الحجرة عشرة من البكوات جلوساً يستمعون الى رجل منهم؟ شى
 فى الغرفة ذهاباً واياباً وهو فى قلق يتكلم بصوت جاف جهير
 شديد اللهجة ، وكان هو الوحيد الذى لفت انظار ستيفن
 وكان الرجل ضمر البدن ، مفتول الساعد ، أسود اللحية ،
 برنزي اللون ، تلوح عليه سمات المملوك المدرب على القروسية
 والسلاح .

وكان مرتدياً بستره قصيرة مزركشة من الحرير وسراويل
 حمراء وحول خصره منطقة من الشاش الأخضر ، يتدلى منها
 سيف قد رصع منه المقبض باللائىء والجواهر وهو منتعل حذاءين
 قصيرين لا كعب لهما ، وفوق رأسه عمامة عظيمة من القماش
 الأحمر اللون .

وكان على صدغه الأيمن اثار جرح لا يزال حديث عهد
 بالشفاء ، فلم يشك ستيفن فى ان هذا الرجل هو مراد بك الذى
 رآه فى تلك الحادثة الماضية

ولما سمع الرجل بوقع اقدام وراه التفت ولم يلبث ان
 اشرق محياه بضوء المعرفة ، اذ تبين القادم ، فتقدم مسرعاً وقد
 مدّ ذراعيه بالترحيب وهو يقول :

« آه . هكذا اتيت ايها الافرنكى ، الا مرحباً بك فى بيتى »

ثم التفت نحو البكوات وكانوا ينظرون نظرات الحيرة والفضول وراح يقول « هذا هو الرجل الافرنكى الذى حدثتكم بشأنه . الله اكبر . ان له والرحمن لقبضة من الحديد . ولم اكن ادرى قبل ان هناك من يستطيع ان يجذب لطفى بك عن سرجه ولكن هذا الرجل استطاع »

ثم مضى يحيل البصر فى ستيفن ليقس طوله بعينه وعاد يقول « والله انى لأحب أن أدخل فى مجالدة معك . ولكن أظنك جائعاً بعد هذا المشوار الطويل . وقد آن وقت الغداء فاذا أكلنا عدنا الى .طارحة الحديث »

وجىء بالغداء الى السلامك لان السراى كانت حراماً على الرجال لانها حرم بيته ومشى مراد بك فى المقدمة الى حيث صفت الموائد وتبعه البكوات فجلسوا القرفصاء كل أربعة منهم حول صينية كبيرة

وأشار مراد بك بكل أدب الى مائدة أكبر من الموائد الأخرى ليجلس اليها استيفن ، وجاء هو فجلس بجانبه واشترك معهما على تلك المائدة الخصى والفقى المملوك الطوال وقد حيا استيفن تحية أدب ولطف ومعرفة .

ولم يكن استيفن حديث العهد بجلسة القرفصاء ، بل لقد اعتادها من طول مكثه فى مصر ، فلم يتألم ولم يتعب ، وكان الطعام شهياً ، والشهوة الى الطعام لديه حادة ، على أثر رياضة

الصباح وشقة الطريق ، ولكنه لم يترك النظر الى الجلوس على
 المائدة ليتفحصهم ويختبر ملامحهم
 ورأى لمراد بك وجهاً موحشاً قاسى الملامح وفكاً عاليّاً ،
 ولحية كثة غزيرة مرسلّة غير منظمّة ، ولاح له الرجل من كل تلك
 الملامح والمعارف ذلك الطفل الذى خرج من يد الطبيعة نقياً لم
 تهذبّه ولم تصلح من خلقه وحواشى نفسه بل أنبتته وأبرزته
 الى العالم ماذا ذراعيه ليلتقط مامد اليه عينيّه ، وتطلع اليه بنظراته ،
 ولينعم به غير نادم على شىء ولا شاعر باحساس ألم أو حسرات
 وعلى الرغم من عظمة ذلك الرجل وسلطانه وكرمه وجوده
 وجد استيفن ان نظراته قد راحت تستقر على الخصى الذى كان
 جالساً أزاءه

وكان فى طول قامته مثل استيفن وكانت نظراته التى تبدو من
 تلك العين السوداء تنم عن ان روح الرجولة لاتزال قوية فى ذلك
 البدن الذى زالت عنه كل علائم الذكور
 بل لقد كان يبدو أشبه بعمل لم يتم بعد ، بدأه مصور
 صنّع ثم لم يفرغ منه فتركه ناقصاً ، ومع ذلك لم يكن يخلو على
 نقصه من اثر المهارة وحذق الصانع الذى عالج تصويره
 وكان المملوك الشاب القوى جالساً عن يسار استيفن ، وكان
 يأكل بهدوء غير متعجل ولا آبه بما حوله ، منشغلاً عما فى يده ،
 واجداً فى الطعام الذى أمامه مشغلة كافية له

وتبين استيفن انه لابد من أن يكون هذا الفتي من اكبر المقربين لدى مراد بك وأعز أهل الخطوة عنده ، لأن وجهه لم يكن قد نبت فيه العذار بعد . مما يدل على انه لا يزال مملوكا لم يعتق بعد ولم تحرر رقبتة من الرق ، ولم تكن العادة أن يجلس فتي كهذا لا لحية له ولا عذار يؤاكل شيخ البلد ولكن مراد كان لائعباً بالتقاليد ولا يكثر بالعمادات والرسوم المعروفة المألوفة ، اذا شاء أن يخرج عليها وأحب أن ينكرها ويتجاهلها بل انه ليدعو أحتر صعلوك في المدينة الى طعامه ، والجلوس الى خوانه ، اذا خطر له يوما أن يفعل ، فلا يهتم بما سيقول المماليك في ذلك ولا يحفل

وكان استيفن يعلم آداب المائدة التي كان المصريون يحافظون عليها أشد المحافظة عند الجلوس على الطعام ، اذ يعتصمون بالسكوت ، ولا يدخلون على المائدة في المناقشات والمحاورات ولكن المماليك لم يكونوا مقيدين بأداب القوم الذين يعيشون بينهم ، ولم يكونوا يحفلون باحترامها والتمسك بها

ولذلك لم يلبث مراد بك أن التفت صوبه وقال « وكم مضى عليك في مصر الى الان أيها الافرنكي »

فأجاب استيفن « ثمانية أعوام يابك »

فقال مراد « وهل كنت في وطنك تبيع الحرائر والاصواف

كما تفعل الان في مصر »

وألقى نظرة دقيقة متفحصة على وجهه من تحت حاجبيه الزيرين
فأجاب استيفن « كلا . بل كنت جنديا »

فصاح مراد وهو يلتفت نحو الخصى وينظر نظرات الفرح
المنتصر « آه . ألم أقل ذلك يا رضوان ؟ . . . اذ لم يكن في وسع
رجل من تجار الحرائر أن يفعل ما فعل هذا الاfrican ولم تكن
تجارة الحرائر تشد هذه العضلات التي استطاعت أن تجذب لطفى
بك عن صهوة جواده وانى بهذا النبأ والله مغتبط ، اذ لو كنت
تاجر حرائر لاغير ، لما علمت ماذا أقدم اليك دليلا على شكرى
واعترافى بصنيعك »

ثم التفت حوله وبدأ يفك حمائل السيف ذى المقبض المرصع
بالجواهر فلما أتم نزعها من حول منطقته عاد يقول « خذ هذا
السيف منى عطاء واعلم اننى لم أهبك اياه ثمنا وجزاء لعملك ، فانى
لو فعلت لك انت تلك اهانة كبرى ، ولكن خذ السيف كدليل
على اعترافى بالصنيع ، لا لشيء غير أن يذكرك بالخدمة التي أدتها
نحوى وبالصدقة التي لا أزال مدينا لك بها »

فبهت استيفن وتولته الدهشة فلم يستطع أن يقول شيئا
وانما تتم بكلمات الشكر ، اذ على الرغم من ان للسيف قيمة كبرى
كان لا يزال فى نظره منحة من منح الشرف .

وانتهى الغداء أخيراً بعد طول مكث وأحاديث وقام مراد
فغسل يديه فى طشت جاء به أحد الخدم ثم التفت الى استيفن ،

وقال « اننى متأسف يا افندى لاضطرارى الى تركك لأمر ذات بال عاجلة والى أن تتقابل فى الأصيل ، لاننى أريد أن أحادثك مرة أخرى - سيتولى رضوان افندى وحسن أمر مرافقتك لمشاهدة كل ما تحب أن تشاهد. ولا يعرف أحد غيرها مثل ما يعرفان من احترام الضيف وحسن مثواه، وحقوق اكرامه » وكذلك قضى استيفن بعد الظهيرة فى رفقة الخصى والشاب وكانا يدركان بالغريزة ما كان يريد أن يشاهد ، لانهما ساقاه من غير كلمة ولا حديث الى الحلبة التى كان قد رآها ضحى ذلك اليوم وهناك رأوا نحو عشرة من الممالك قد وقفوا وهم مرتدون بأثوابهم الفخمة وسيوفهم المرصعة بالذلىء متدلية سن حمائلها حتى لقد راح استيفن يتساءل من دهشته كيف كان له أن يصدق أن هؤلاء الرجال كانوا يوماً عبداناً ورقاً ولم يكذب ينظر الى جيادهم حتى لمعت عيناه ببريق التطلع والشوق والتلهف الى امتطاء صهوة جواد منها

وقبل أن ترتفع الشمس الى الاصيل كانت الساحة مملوءة مكتظة بالممالك ، وهم على ظهور الصافنات يلعبون ويتجادلون ، ويتطاحنون ، بين مملوك من الغريبة يصارع آخر من الوجه القبلى حتى لقد كادت هذه الالوان المختلفة التى تلوح امام ناظره وهذه الضوضاء المرتفعة الضاجة فى مسمعيه والحركات والعدو والجري تسكره وتذهب لبه من أثر نشوة هذا المنظر العجيب الذى كان

يحبه وهذه الفروسية التي لا مثيل لها في العالم .
 وكان يدرك كثيراً مما كان يجري امامه وتولى الأغا شرح
 ما كان يصعب عليه فهمه ، وجعل يدلّه على أسماء الممالك الكبار
 في المجمع ، ويشرح له لمعة من تاريخ كل مملوك منهم
 وجعل استيفن يصفى الى حديث الأغا عن الفروسية والقتال
 والصراع ، وهو الذي لم تكن له من وظيفة غير رعاية الحريم
 ولم يلبث ان صاح « انظر يا افندى ، ها حسن الكبير قادم
 ويلوح لي انه قد غلب في الصراع . من الغبار الذي علا ثيابه .
 وهو بطيء الذهن قليل الحركة في جثامه . ولكنه قد كبر ونما
 ولا يزال مولعاً بمجالدة من هم أحسن منه . ومن يفوقونه في
 النزال والصدام . ولقد رأيت عشرات المرات لاصقاً وجهه
 بالتراب . مغلوباً مقهوراً . ثم لا ألبث ان اراه قد نهض الى نزال
 آخر . وقام يعدو الى صراع قرن غير قرنه الأول . وسيأتي
 زمن . وما اظنه الا آتيا . نراه فيه مبرزاً على الجميع . فلا يستطيع
 مملوك من الممالك ان يرميه عن مطيته . حتى ولا مراد نفسه
 ولا ايوب ولا عمر بك صاحب الدقهلية ورب العنق الذي يشبهه
 في غلظته عنق الثور ... »

فقال استيفن بفضول « اهؤلاء الذين ذكرتهم ابطال الممالك
 اذن واقوام بأساً وافتلهم خلقاً »
 فأجاب الخصى « هناك كثيرون مثلهم ابطال في حمل السيف

او في فن الفروسية . ورياضة الجياد . ولكن هؤلاء يفوقون
الجميع فقد رأيت مراداً يوماً وقد اطار رأس ثور هائل بضربة
واحدة من سيفه المهند الجراز . واما ايوب فعلى لطفه ووداعة
خلقه ولين عريكته وحبه المشايخ والعلماء وولعه بالشعر والقريض
لا يزال فارساً معلماً . اذ رأيتـه يوماً يركب جواداً . ويمدو به
نخطف البرق ويشق به جموع المماليك . وزحمة من الامراء .
تاركا وراءه جثث الداس وعدداً عديداً من الموتى الذين دهموا
تحت سنابك جواده »

فقال استيفن « وما رأيك في عمر بك صاحب الدفيلية »
فنظر الخصى اليه في صمت لحظة طويلة ثم أجاب « قد منح
الله هذا الرجل كذلك قوة البأس وشدة المراس . نعم قوة
هى الوحشية المقترسة بكل ألوانها . نعم . وذهن الوحش ونخيلة
الحيوان أيضاً . ومكر الثعلب ، ولقد شهدت مرة وهو في
صراع مع رجل طويل مارد ، مفتول العظم وكان الرجل
يحمل عليه ويضايقه في الجلاد ، ويكر عليه . فلما غلبه عمر في
النهاية ولم يستطع الرجل أن يقاوم أو يجالذ قرنه حتى ظهره
وكسره من شدة الغضب ، لان له قوة عشرة رجال ، ثم رفعه
بين ذراعيه وقذف به فوق جواده فوقم الرجل على الجنب الاخر
من الحيوان محنياً معوجاً ، أشبه بعصا مهشمة سقطت الى الارض
فصاح استيفن قائلاً « ياله من وحش . ألم يتداخل أحد

ليمنعه .

فهز الخصى رأسه وأجاب « لم يكن مراد حاضراً المجالدة
وكان أيوب في المسجد يؤدي فريضة الصلاة »

ولم يشأ الاغا أن يقول أنه هو الذي وقف وحده في وجه عمر
بك ووجه اليه كلمات أصعدت الدم الى وجه ذلك المملوك المخيف ،
ولم يرتعد الخصى يومذاك ولم يفرق خوفاً ، اذ شعر عمر بك سيفه
ليقطعه ارباً ، بل وقف ساكناً في مكانه ، رابط الجأش ، وعدا
الحاضرون فزعموا عمر بك من الهجوم عليه ومشوا به مبتعدين .
ولم يلبث أن قال الاغا وقد لمح شبح ذلك المملوك قادماً
نحوهم « لا أدري ماذا يريد الآن حسن الأكبر ؟ . ألا أنظر .
تجد خلفه ذلك الافرنكى الذى حدثتك عنه وهو فرج افندى ، كأنه
بعوضة متشبثة بنخلة فارعة

وكان ستيفن قد عرف الافرنكى ذاك من شهرته . فهو رجل
فرنسى الاصل انحدر الى مصر منذ بضع سنوات ودخل خدمة
مراد بك ثم اعتنق الاسلام وصار في عاداته ومشاربه ومعيشته
أكثر مصرية من المصريين أنفسهم . وكان في ذلك الوقت يشتغل
مدير الترسانة .

ولكنه لم يكن لقرينه أو رآه قبل ذلك الحين وانما كان يسمع
عنه من شريكه ليفبر

وكان الرجل بديناً رائع المظهر ، يمشى الخيلاء ، ذا شارب

مستطيل أشبه بشارب الاسد ، تطل من تحت عمامته حواشى
جمجمة صلعاء حليلة كالجزرة .

وكان مرتديا سترة قصيرة من القماش الاسود « وسروالا »
فضفاضاً أحمر اللون ومداساً أصفر ، كما كانت بزته قطعة من
قوس قزح ، وقد تدلى من منطقته سيف طويل يصطدم فى كل
خطوة بقدميه .

فلما لمح ستيفن ورأى « القلبى » الذى فوق رأسه ، وتبين منه
أفرنكة الرجل ، زادت نفخته ، ولكن الاغا تقدم لاستقباله
وهمس له ببضع كلمات . فلم يلبث أن اختفت عنه خيلاؤه قليلا ،
وابتسم ثم دنا وفى ابتسامته معنى التنازل ، ومظهر المتكبر النازل
عن كبريائه ، وحيّا تحية المسلمين وقال « ازيك ، سلامات ؟ »
ولكن فرنسيته غلبته بعد ذلك فانطلق يقول بلغة قومه « اننى
مسرور لمقابلتك ياسيدى . ان أصدقاء مراد هم اصدقائى ومن
يخدم مراداً كما فعلت فكأنما قد خدمنى أنا أيضاً فرج افندى ،
مدير الترسانة »

واستأذن الاغا فى الانصراف وانطلق هو وحسن الاكبر
تاركين الرجلين وحدهما .

فصاح فرج افندى الفرنسوى فى أثرهما وهو ينظر اليهما
« آه . واأسفاه على الرجولة التى أغدِمت معالمها فى هذا المخلوق
البديع ولئن قُتِلت فيه ذكوره فلا تزال بقية الرجولة التى فيه

أشد من رجولة هؤلاء المماليك جميعاً ، ولذلك ترى مراد بك وهو لا يحفل بالبتة برأى مخلوق من مخلوقات الله لا ينى يسأله في كل أمر رأيته ، ويستنزل من الخصى هذا خواطره ، فهو الرجل الوحيد الذى فى قدرته أن يسيطر على شيخ البلد ، ويلعب به فى يده ، ويهدىء تأثيرته اذا غضب ، ويزيل سخطه اذا سخط ، اذ ورأس محمد النبى انى لافضل أن أقف فى وجه ثور غاضب هائج عاد رامج ، على مواجهة مراد وهو فى حالة غضبه ، واعلم ان شيخ البلد لا يرتضى فيما يفعل وسطا ، فلتذكر ذلك ولا تنساه ماحييت ، فاذا هزته الاريجية الى العطاء أعطى بكلتا يديه ، واذا أنت أدت اليه صنيعاً فلا تك حياء متواضعاً مقتصداً فى طلبك فقد يعطيك ملء مركبة ذهباً وغداً يهبك جواداً مريضاً وارم القوائم ، وبعد غد ان تصيب منه الا شتمة أو لعنة أو سبة فاحشة . اننى أعرفه ، وثق برأى عنه أنا فرج افندى »

واذ ذاك رفع الى استيفن بصره وقال بلهجة الفضول « ولكن ماهذا الصنيع الذى أسديته أنت اليه ؟ »

فأجاب استيفن « صنيع قليل الاهمية تافه . وذلك انه اتفق لى أن قدمت اليه بعض المساعدة وكان بعض المهاجرين قد كروا عليه فى المدينة حتى كادوا يغلبونه فى النزال »

فتهلل وجه الرجل الفرنسى وقال « آه . اذن أنت الافرنكى الذى اشترك فى القتال تلك الليلة ضد مماليك ابراهيم بك والله

لقد تم لك التوفيق، وطاوعك البخت الحسن، ومهدت لك بذلك طريق الثراء والجاه العريض. انى وجدت التوفيق فى مصر والحمد لله، ولكنى لم يصادفنى حسن الحظ كما صادفك أنت. ولو وقم لى ماوقع لك، فيارب السموات. لا أدرى ماذا كان سيكون مصيرى وطريق المجد الذى يفتح امامى. نعم لو أحسنت ياسيدى استخدام هذه الفرصة السانحة فثق انك قد ضمنت السعادة وأنا فرج افندى مدير الترسانة سأعلمك كيف تستخدم هذه الناهزة لاننى قد بدأت أشعر نحوك بميل»

فأشرق وجه استيفن لمحبة محدثه ولكنه لم يلبث أن عاد الى هدوئه الاول وقال « سأكون غداً فى حانوت المتجر مع شريكى ليفبر »

قال ذلك وتلفت حوله تم تهد

ولكن الآخر صاح به قائلاً « ماذا . هل أنت شريك جول ليفبر . لقد عرفته جيداً المعرفة فى السنين الماضيات . ولكن اختلفت أمامنا الان الطرق، وتباينت السبل ، فهو اليوم فى طريق وأنا فى اخرى. ولكن على الرغم من اطواره ومعتقداته الغريبة ، لا يزال رجلاً طيباً . أتصدق انه مرة غضب علىّ وتسخط واحتدم وسب ولعن ، لاننى اعتنقت دين الاسلام . وما رأيك فى احلامه التجارية ، هل أشرفت على التحقيق ؟ »

فأجاب ستيفن ضاحكاً « لم أر الى الآن أثراً يدل على ذلك »

فنظر اليه فرج افندى باعجاب وهو يجيل البصر فى قوامه
 الفارع الطوال وقال « ولماذا اذن لاتدع عملك هذا فى المتجر
 وتدخل فى خدمة الممالك فأنت لم تخلق لخدمة الحوانيت والشغل
 فى الدكاكين . فأنت فى ظل مراد ستكون لك آمال كبار ،
 وأمانى عظيمة »

فهب ستيفن رأسه ولكن اقترح الفرنسى كان قد بلغ صميم
 غواده وأثر فى نفسه وذكر اذ ذاك الضوضاء والجياد والخليل
 الصافنات والجلاد والنزال والطعان ، ففتنه فتون تلك الحياة
 الفارسية الجليلة المظهر وبعث ذهنه على التفكير . وجعلت توحى
 الى نفسه جملة من الامال ، فكان يشق عليه أن يكون قد قضى
 يومه فى شهود تلك الساحة وما كان يجرى أمام عينه فى الحلبة
 ثم يطلع الغد فأذا هو فى السوق يبيع الناس السلع ويقضى
 وقته فى حى الافرنك وفى جوار الضعة والفقر

ولم تمض ساعة حتى كان عائداً فى طريقه الى منزله فوق ظهر
 بغله وقد أصبح الحلم فى ذهنه حقيقة ، واستحال واقعا محسوسا
 اذ كان مراد قد لمّح له بالفكرة عينها تلميحا

ولم يكن منه الا أن سأل المهلة حتى يقلب الفكرة فى ذهنه
 ويعى ما يكون من جوابه ويتدبر فى أمره ولكن الاغا جعل
 يقول له وهو يودعه ويمشى بجانبه الى الباب « الا تدبر فى الامر
 ملياً يا أفندى ولكن تذكر أن الانسان لا يستطيع أن يقاوم

ما قدرته له العناية الالهية فما قدر سيكون . وما كان مكتوباً لن
يمحى . وسنتلاقى مرة أخرى »

وقد خيل الى استيفن وهو سائر على ظهر بغله في طريقه
بجانب ضفة النهر ، على مغيب الشمس ، أن الاغا قد تبين أى
جواب سيجيب به هو على مقترح مراد بك ، فقد اجمع النية على
ترك السوق وتطبيق التجارة ، وليكن من الخير بعد ذلك أو
الشر ما يكون »

الفصل الرابع

افتراق الطرق

وفى تلك الليلة بعينها قدم مسيو ليفير ، والفضول يكاد يحرق
ذهنه ، كمادته لزيارة شريكه

وجاء فجاس فى ناحية . وكانت مرغريت فى شغل بخياطة
الثوب الذى فى يدها .

ولم يلبث أن التفت الى ستيفن وقد اشعل لفافة تنغ وراح
يسأله « والان ياسيد . ما بالى أراك صامتاً على خلاف العادة
لا تقول لنا شيئاً عن تفاصيل زيارتك لمعسكر أولئك اللصوص
قطاع الطرق . هلم حدثنا عما رأيت هناك وشاهدت »

وكان ستيفن مشغولاً بتجهيز الشُّبُّك فرفع بصره وقال ببرود

ليغلق باب الحديث « والله ليس هناك ما يستحق الذكر »
 فصاح الفرنسي صيحة المنتصر الفائز « يا سلام . اذن
 لقد جئت من لدنهم صفر اليدين . عجيبة . هذا ما كنت احذره .
 فان هؤلاء الممالك اكرم الناس وعوداً ، وأقلمهم وفاء . »
 فأجابت مرغريت « لم يعد صفر اليدين تقريباً . ألا انظر
 يا سيدى ! »

وقامت الى ركن من الحجرة فعادت بالسيف الذى تلقاه
 زوجها من مراد منحة وعطاء .
 فجعل الفرنسي يقلبه فى يديه ليقدر ثمنه وأجاب « يا سلام .
 هذا سيف ثمين لا يشتري بأقل من عشرة آلاف قرش . اننى
 أسحب كلمتى التى قلتها . هذه منحة سنية وعطاء فاخر ومع ذلك
 فهى هدية ربما لا تليق بتاجر حرائر . هيا قل لنا عن كل شئ
 بالتفصيل . . »

ولما لم يجد ستيفن مفراً من الشرح ، وكان يفضل أن يعمل
 يوماً أو اياماً حتى يقول لهم عن نتيجة أمنيته ، اضطر الى أن يقص
 على شريكه قصة الاستقبال الذى استقبل به فى ذلك المعسكر
 والركة التى اظهرها مراد نحوه ثم عاج على وصف الساحة فاسهب
 فى شرح ما رأى من الخيل والطمان ، بحمية الجندى القديم
 وحرارة الفارس المعلم ، وجعل مسيوليفر يراقبه ويلاحظ حركاته
 وحميته فى الشرح ، وقد بدأ قلقه يزداد وهو لا يعرف السبب

وتكلم ستيفن عن الخصى وحسن الاكبر وفرج افندى الذى كان يعرف قبل ذلك باسم مكسيم ليجران
واذ ذاك اكفهر وجهه مسيو ليفير وقال « آه . اذن هل رأيت ذلك الكافر الخارج على دين آبائه ؟ »

فقال ستيفن بلؤم « نعم . رأيته وقد تكلم عنك بخير »
فقطب ليفير حاجبه وأجاب « لقد كان فرنسياسيى الوطنىة ومسيحيا اسوأ ايمانا ، وارذل اعتقادا »
فرد عليه ستيفن قائلا « ولكنه الان يدير الترسانة ويتقاضى عشرة اكياس ذهباً فى الشهر »

فقال ليفير ساخطاً « له الشيطان . اذن ففى مقدرته أن يرد الى الحسنة الاكياس التى اقترضها منى منذ عشر سنوات . ولكن ماذا حصل فى مسألة العقد التجارى الذى وصيتك بأن تحاول الظفر به منه لتوريد بضائع للماليك . هل حصلت على عقد كبير أم لا ؟ »

فقال الآخر مترددا مضطربا « العقد ! لم احصل على عقود »
فصاح الرجل غاضبا مخيب الامل « ماذا تقول . لم تستحوذ منه على عقد ما ، اذن ماذا اتيت الينا به ، وماذا جنيت من هذا المشوار البعيد غير السيف اظن والاكلة الدسمة التى احتوت عشرين صنفا من الاطعمة »

فأجاب الآخر وقد نظر الى زوجته نظرة قلق وخوف « انى

سأدخل قى خدمة مراد بك يامسيو ليفبر «
 ففر الشيخ فاه وصاح مروعا « تدخل خدمته . وتصبح
 مملوكا . يا للدهية »

فأجاب ستيفن « كلا . ليس ذلك هو الغرض . بل لقد أراد
 منى أن اشرف على انشاء الاسطول الذى يقوم الان بأعداده
 فى بولاى وأراقب الفعلة والعمال والصناع الاجانب الذين
 يشتغلون فى هذا العمل »

فقال الاخر « يا الهى . وماذا قلت أنت ؟ »
 فأجاب ستيفن بلهجة المؤاسى او المتهم « وسأتولى انا طلب
 الادوات والمهمات من التجار »

فقال الشيخ « آه . انك لست من الحق والجنون بحيث
 كنت أظنك يا سيدى »

ونهمضت مرغريت من مجلسها ونظرت اليه متوسلة وقالت :
 « انك لن تتقبل هذه الوظيفة يا ستيفن . نعم . أرجو
 اليك ذلك »

فأجاب ستيفن فى دهشة « ولم لا . انها والله اكثر ملاءمة
 لى من بيع الحرير فقد مللت العمل فى الحوانيت وسئمت هذه
 الشغلة الثقيلة »

فمادت زوجته تتوسل اليه قائلة « كلا . كلا . انى التمس
 اليك ان لا تجعل لك ومراداً أية علاقة ولا تسلك نفسك فى زمار

الممالك . اننى اضرع اليك ان تطرح هذه الفكرة من رأسك .
 اننى أرى الخطر أماننا مشرفا علينا دانيا منا . وقلبي يحدثنى
 بأمور مخيفة لا اكاد أجد الشجاعة الكافية للتعبير عنها »
 فأجابها زوجها بشيء من الخشونة « يا سبحان الله . أى
 خطر ليت شعري سينجم عن ذلك »
 فقالت مرغريت متأوهة « لا يعلم ذلك الا الله »

ولاحال نسى مسيو ليفر الربح الذى قد يحدث له من وراء
 هذه الفكرة التي استحوزت على ذهن صاحبه ونسى العقود التي
 كان يطمع في ابرامها ، والاحتكار والامتيازات التي كان يتمنى
 أن يصيبها وراح هو الآخر يتوسل الى شريكه ان يرفض ما
 عرضه عليه مراد ومما اليكه وجعل يقول له « نعم لا لنكر ان
 الشغل في الدكان اليوم اصبح بطيئاً والحركة جامدة متناقلة يا صديقى
 ولاكننا دعنا نغضى في عملنا ونستئس في أشغالنا ، فان هذا
 الجزر لا يلبث أن يصبح مدا وغداً تجرى المياه . وتنتعش الحال
 اذن عليك أن ترفض الخدمة التي عرضت عليك فلم نر لمثل هذه
 الخطوات لدى الممالك اية فائدة ولم نشهد من ناحيتها خيراً وما
 دخل رجل من الفرنجة قبلك خدمتهم واصاب رائد التوفيق ،
 وظفر في ظلالهم بالسعادة . الا تتذكر حكاية الفرنكى القديم الذى
 حدثنا بها ذلك المملوك الفقى الذى جاءك بالرسالة ونحن في الدكان
 وأنا الآن أضيف عليها ما لم يقص علينا . نعم . انه أغفل الخاتمة

فان ذلك الافرنكى لم ينل فى خدمة مراد غير الفضيحة ، ولعل لتلك المحادثة علاقة بزوجة الفرنكى . فلم يكن من صاحبنا ذلك الا ان صفع مراد وهو فى وسط الديوان وكانت عقوبته أن جلد وسيط بالسياط فى وسط الطريق العمومى ثم شق بعد ذلك ودفع زوجته الى أحد السناجق لتكون جارية من جواريه . ولكنها طعنت نفسها بسكين وبيع اولادها فى سوق النخاسة كالعبيد . هذه هى القصة التى عرفتها عن تاريخ ذلك الافرنكى « فضحك ستيفن لانه لم يكن يشعر فى نفسه بأى احساس يوحى اليه ان فى تلك الخدمة أى خطر أو سوء بل أحس أن الحلم الذهبى الذى كان يتمناه طول حياته قد اصبح على وشك التحقيق .

وجعل يتخيل الابهة والعظمة والرواء والفخامة التى ستتحف بحياته الجديدة . فلم يعر كل تلك التوسلات والاغراءات والنذر والتحذيرات الا اذنا صماء

ولم يكدهمضى عليه اسبوع آخر حتى أقبل على وظيفته الجديدة بحمية شديدة ونشاط ملتهب اندهشت له زوجته وبهت مسيو ليفر من دلائله التى رآها امام عينيه

وجعلت مرغريت تحدث الشيخ قائلة « لا أدري ماذا حدث له . فاننى لم أره فى حياتى قبل الآن يشتغل بمثل هذا النشاط الذى يبدو عليه اليوم . فلا يفوته شئ من عمله ولا أصغر صغائره

وهو يستحث الاهالى على العمل والدأب حتى أصبحوا على حداثة
 عهدہ بالاشراف عليهم يلقبونه « أبو الشغل ! »
 فقال الشيخ متهمكماً « ألا تعرفين أن للغربال الجديد شدة »
 وكان ليفبر لا يؤمن بهذا النشاط الذى بدا من ستيفن فى
 عمله لأنه كان قد خبر أخلاقه أتم الخبرة .

ولكن تماقبت الاشهر ولم يتغير ستيفن ولم يتبدل بل ظل
 على نشاطه الأول وكانما قد وجد العمل الذى كانت نفسه
 تصبو اليه

وكان المنزل الذى أفرد له عشة صغيرة مبنية من الآجر بجوار
 محل عمله

وكان المنزل حقيراً ولكنه بنى فى وسط حديقة واسعة لم
 تكن متناسبة مع حجمه ، ولم تنبت لمثله . ولكن ذلك المنزل
 كان يلوح لمرغريت - وكانت قد اعتادت العيش فى ذلك الحى القفل
 المختنق السقيم البعيد عن الهواء . ونعنى به الحى الافرنكى -
 مصدر نعمة وسرور لا يقدران

وكانت الحديقة تتراعى فى أفدنة ثلاثة قد انبسطت حتى
 بلغت ضفاف النيل حيث كان ينهض منزل فخم شاهق هو مسكن
 مكسيم ليجران أو فرج افندى مدير الترسانة

وكانت تلك الحديقة ملائى بأشجار الخوخ وأغصان الورد
 ومعارض الياسمين والكروم

وكانت مرغريت تجدد في كل ذلك معادتها وشتوتها ، وفرحها .
وألمها في آن واحد .

وكان ليفبر كثيراً ما يجي ، لزيارة صديقيه القديعين وللتمتع
بالأحاديث معهما والمناقشة في حوادث اليوم ولاستنشاق نسيم
أصبح وأعلّ وأنقى من هواء المدينة .

وكان مراد أيضاً من الحين الى الحين يركب جواده ويحضر الى
الترسانة ليرى ماتم في أمر أسطوله . وهو في موكب من المماليك
وحرس من الفرسان وكان هؤلاء لا يحفلون بهذه البواخر التي
أراد مولاهم أن ينشئها بل كانوا يسخرون من الفكرة ويستخفون
بها وينطلقون الى بولاق لمغازلة النساء

وفي ذات يوم قدم الى بولاق أيضاً فتى مملوك فلما لمح ستيفن
وكان هذا مشغولاً في حوض السفن تقدم اليه وقال بلهجة لطيفة
« افندى . اننا رأينا بعضنا بعضاً قبل الآن »

فرفع ستيفن بصره الى الفتى وللحال عرفه اذ تبين أمامه
ذلك الشاب الذي حمل اليه رسالة مراد بك في حانوت ليفبر
فقال يرحب به « آه . أنت هنا . أهلاً بك . اننى مسرور
بلقائك »

فهمس الصبي بصوت منخفض « أتنوى أن تعلمنى المجادلة
بسيف الفرنجة ؟ »

فضحك ستيفن وأجاب « بلا حريب اذا كنت تود ذلك »

فقال الفقى « اذن سأحضر فى أى يوم تعينه أنت لتدومى اليك . ولكن لا تقل شيئاً عن ذلك لأبى لانه سيضحك ساخراً منى قائلاً اننى نصف أفرنكى لانه يظن ان جميع الافرنج حتمى الا أنت فقط يا افندى لانه يشعر من نحوك بود أخوى فقد سمعت ذلك من شفتيه »

فقال ستيفن « سأبعث الى القاهرة فى طلب السيوفين وسأمرّك بكل سرور »

وكذلك جعل ذلك الفقى يحضر اليه مرة بعد أخرى وهو يظهر فى كل يوم استعداداً للتوفر على فن الطعان بذلك النوع من السيوف حتى جعل ستيفن يحشد كل ما أوتى من العلم لتلقينه اياه ، وفى مقابل هذه الدروس كان يعرف من الفقى كل ما كان يريد أن يعرف من العلاقات بين ابراهيم ومراد واسماء المماليك الذين كان مراد يكرههم وأشياء أخرى عن الدسائس والمكائد والاحقاد التى كانت تجرى فى معسكر شيخ البلد

ولئن كان يعلم قيمة تلك المعلومات التى كان يتلقاها من فم ذلك الفقى فلم يكن يشجعه على ذلك أو يستنزله شيئاً منها . وانما رأى انه قد مال الى الفقى بعاطفته وشعر بحب له لا يكون الا لولده لو ان له ولداً باقياً على قيد الحياة .

واتفق ذات يوم أن قدم الفقى مبكراً على خلاف العادة فأنه ليمشى فى الحديقة اذ التقى وجهها لوجه بمرغريت وكانت

حاسرة الرأس قد خرجت الى الحديقة لتقتطف البرتقال عن شجره
فلما رآها حلق البصر في دهشة . اذ كان قد مضى بضع سنين على
تركه الحريم ومفارقتة خدور النساء ولم يكن رأى وجه امرأة
منذ ذلك العهد وكان يعلم أنه لم يكن في النساء امرأة محترمة ذات
صون وكرامة تخرج بَرَزَة حاسرة عن وجهها النقاب . طارحة
اليشمق العثماني عن محياها ، ولذلك لاغرو اذا وقف ينظر في
ذهول وحيرة الى وجه تلك المرأة التي باغتها وهى سافرة ثم لم
تخجل منه مع ذلك ولم يتولاها الحياء .

وكان يهم بأن يتراجع ويعود ادراجه من حيث أتى ، لأنه
ظن أنه قد ارتكب طيشاً وأظهر سوء أدب ، اذ باغت زوج صاحبه
ومضيفه . ولكن اشد ما كانت دهشته اذ رآها قد تقدمت نحوه
وراحت تسأله قائلة « اذن أنت المملوك الشاب الذى يأتى ليتعلم
كيف يجالذ الاقران بسيف من سيوف الفرنجة . أن زوجى
كثيراً ما تكلم عنك أمامى »

فحمل الفتى مبهوتاً

يا لله . ها هى أمامه امرأة سافرة الوجه تكلمه بأدب ،
وتكرمه على احترامها وتوحى اليه بتوقيرها وتعظيم شأنها .
حقاً . أن أمور الفرنجة لها العجب !

ذلك ما خطر فى ذهن الفتى ودار فى رأسه الصغير .

قال بوقار واحترام « أسألك يا سيدتى المездرة لتطفلى

بالدخول اذ لم اكن ادرى ان هناك أحدا في الحديقة . ولذلك
ارجو السماح لى بالرجوع »

فابتسمت مرغريت اذ ادركت أن الفتى الذى أمامها لا يزال
صبيا غريرا وأجابت « أنك لم تمتد رؤية آداب الفرنجة . أن
المرأة عندنا لا تنتقب »

فقال الفتى « هكذا سمعت . . . من رضوان أغا الذى
لا يغيب عنه علم اى شىء »

ثم تمهل ثانية وقال « ولكن هل لجميع نساء الافرنج وجوه
كهذا الوجه »

فضحكت مرغريت ضحكات الفرح والسرور ودفعتها روح
الانوثة التى تكمن فى اعماق نفسها الى سؤاله « ولماذا ؟ »
فأجاب برزانة وجد « لانه وجهه لا يستطيع ان يكذب على
الناظر اليه »

ولاح ستيفن فى تلك اللحظة عن كذب فصاحت قائلة « ها
زوجى قد اقبل . ستيفن . لقد مكثت لحظة ارحب بضيفك الى
ان تحضر »

فأجابها زوجها فى عجلة « كان ينبغى لك ان تكونى احرص
من هذا . فانك تعرفين مصر وآداب اهلها ، وتعرفى انه لا ينبغى
لامرأة ان تخرج سافرة »

ستيفن قد قال تلك الكلمة بالانكليزية ولكن الفتى تبين لهج العتاب والتقريع في صوت صديقه وصبغة الحياء التي بدت في محيا زوجته

وأجابت مرغريت فائلة « انه » لسا ولد « ياستيفن وفد كنت أود من زمن طويل أن أتحدث اليه »
فقال ستيفن مهدئا غضبه ومترفقا في لهجته وصوته « حسنا ولكن تذكرى ان الولد قد يتكلم »

ومضت مرغريت عائدة الى البيت وهى تهز الأزاهر في يدها وجعل الصبي يتبعها بنظراته آسفاً على ذهابها .

وكذلك اتفق عدة مرات أن كانت مرغريت تلتقى بالفتى في الحديقة ، وكان أكثر ايامه يأتى مبكراً عن الميعاد المضروب ، يتمشى حول منافس الحديقة ، وهو فى تلك السراويل الفضفاضة والعمامة الضخمة فوق رأسه ، يلوح أشبه شئ بـ مخلوق غريب فى قصة من قصص الجان ، وكان وجهه يتهاى ويشرق اذ يراها قادمة نحوه لتجلس اليه .

أما هو فكان يجلس القرفصاء على الارض عند قدميها ، بينا كانت هى تربط باقة الأزاهر التى جمعتها من الاعواد والاعصان وكان ينطلق يسألها عدة أسئلة غريبة برزاة مدهشة من فتى مثله فى جلسة من تلك الجلسات رفع اليها بصره وكان محمداً النظر اليها وقطع سبيل ذلك السكوت اذ راح يسألها « ياست .

ألم ترزق أبداً بولد ؟ »

فدعرت مرغريت وجال الدمع في عينيها لهذا السؤال
المفاجيء ولكنها أجابت برفق ولطف « بل لقد كان لى ولد
من قبل ولكنه غرق منذ بضع سنوات فى قطع الخليج »

فأظلت وجه الفتى سحابة حزن وقال « ياست . أنا ابن كلب
لانى سألتك هذا السؤال وأثرت حزنك الدفين »

فأجابت مرغريت « لا . لا . انك لم تقصد بسؤالك اساءتى
فعاد يسألها « وهل كان ولدك يشبهنى »

فنظرت الى الفتى وهزت رأسها ثم قالت « كلا . لقد كان
أبيض البشرة . أسود العينين شعره يقارب شعر زوجى »
فأجاب المملوك « ولكنى ياست لست من أولاد البلد .
ولو انى اسمر اللون ، فأنا لست مصرياً . ولا أدرى من أى البلاد
قدمت . ولست من الجركس . ولا من اهل الكرج
لأن هؤلاء لهم شعورٌ صفرٌ ذهبية . كشعر صديقى حسن
الأكبر »

فقالت مرغريت « وماذا تعرف عن قصة ماضيك ؟ »
فهز الفتى رأسه وأجاب « لا أعلم منها غير النزر اليسير ،
وهذا تلقيته من فم رضوان أغا . وهو ان مراداً اشتراينى من
أحد النحاسين بخمسين درهما من الفضة وكنت يومذاك ولداً
صغيراً لا أبلغ من العمر الا بضع سنين ، وكان على وشك أن

يرفض شرائى قائلاً انه لا يريد أن يبتاع أطفالاً صغاراً ، ولكنى
تشبثت بساقيه وأمسكت بطرف سيفه أجتذبه منه ، فرضى أن
يبتاعنى على رغم طفولتى قائلاً انى ولدت من الممالك . أما عن
منشأى وأصلى فلا أعرف شيئاً وليس فى ذا كرتى شىء ما عن أبوى »
وهنا تمهل قليلاً ولم يلبث أن عاد يقول برنة حزن وألم
« ولكن وددت علم الله لو انى كنت اعرف من هى أمى ! »
فأجابت مرغريت « كان الله فى عونها . اذ تخير للام ان
ابنها مات وقضى من ان تعلم انه ييم فى سوق النخاسة والرقيق »
فحملق الفتى ببصره ، اذ كانت حياة المملوك لديه ابدع نعم
الله فى هذا العالم . ولكنه لم يلبث ان استرسل فى سرد خواطره
أمامها فقال « ولكن من يدري لعلى مهتد بعد الآن الى أبوى فقد
حدث مثل ذلك لعلى بك وكان قد ييم وهو غلام صغير فلما صار
شيخ البلد ، أرسل خلقاً كثيرين الى بلاد الجركس ليجتثوا له عن
أبويه ، فلما وجد أباه جاء به الى مصر فى موكب الشرف والأبهة
والعظمة . »

فقلت مرغريت « أشبه شىء بقصة يوسف »

فأجاب الفتى بسرعة « يوسف . أظنه كان اسرائيلياً وان لم
يكنه فقد كان من القبط ولكن حديثنى عنه يا ست . فانى لم
أسمع بقصة يوسف من قبل »

فمضت مرغريت تحت أعراش تلك الحديقة العابقة بأنفاس

الزهر ، وشذى الورد ، ورائحة الفاكهة الدانية القطوف ، تقص
على الغلام قصة ذلك النبي ، وهو جالس على الارض أمامها وسيفه
بجانبه وهو مصغ بكليته

فلما اتمت القصة راح يقول « يا سلام انها لقصة جميلة وكان
اذن يوسف من بنى اسرائيل . والله لم اكن لاصدق ذلك لولا
انك نبأتني بذلك . لان اليهود كما اعرفهم خنازير قذرة لا
يحبون في العالم شيئاً غير الذهب »

ولئن كان ستيفن قد ترك صناعته الأولى وطلق التجارة
ثلاثاً ، حامداً شاكراً ، قرير العين ، فلم يجد عمله الجديد الحرفة
المخوفة بالورود المحوطة بالزهر والريحان .

فقد كان مراد رجلاً طاغية ، لاتزال تبدو عليه أثار القلق
والتقارب التي هي دلائل المستبد . وعلام الجبار العاتية ، ولا
مناص لمن يريد أن يحقق رغباته ، وينفذ مطالب نفسه ، وينزل
على أمره في كل شيء ، من مصباح علاء الدين الذي جاء ذكره في
قصص الف ليلة وليلة . فقد خطر له أن لا بد لعظمته من أسطول ،
فظن أنه لا يكاد يمضي قليل من الزمن حتى يكون الاسطول تاماً
كاملاً عند منال يده . وعلى حبل الذراع منه . بل سيروح
هذا الاسطول مهياً مجهزاً ، بمجرد صدور الامر من « بين شفتيه »
وجعل ستيفن يدأب كعبد رقيق ، يبدأ العمل من منبثق نور
الصباح وينتهي منه على مغيب الشمس ، مشرفاً على العمال ، حتى

انهك قواهم . فبدأوا يظهر ون علام التذمر والسخط
ومضوا بشكاياتهم وآلامهم يبتونها لاشياخ الازهر والعلماء
في المساجد . . .

وتبين ستيفن أن في تلك الشكاية ما يبعث على الخوف .
وينذر بالخطر . لأنه من المسيحيين . ففطق يفكر في الامر
مليا ويدير فيه وجوه الراى وعلم أنه لو بقى على مسيحيتته .
لظل هدفا للخطر . معرضاً نفسه للأذى والضرر
فلماذا لا يرتد عن مسيحيتته . أنه اذا فعل فلن يكون أول من
فعل . وعلى أية حال . أى فرق هناك بين أن يكون على دين
المسيح . وبين أن يعتنق دين احمد .

وكذلك جعل يحدث نفسه ويقول لها أن ليس كل ذلك الا
فروقا في الاصطلاح . ومسميات تحور الى معنى واحد . وأنه لم
يكن مسيحيا الا لأنه ولد ونشأ في مملكة يدين أهلها بالمسيحية
وأنه لو كان نشأ وترعرع في مصر لكان بلا ريب مسلما . فهو في
انجلترا يلبس لبوساً واحداً . وهو في مصر في شملة أخرى .
ففى المملكة الأولى يقول « لا اله الا الله » وليس عليه في مصر
الا أن يضيف الى تلك الكلمة كلمة صغيرة هي « ومحمد رسول
الله » ثم لا يزال بعد كل ذلك في نفسه من هذه الديانات والافكار
ألف شك وشك .

ومن أعجب خلق هذا الرجل أنه لو كان سئل أن يغير

جنسيته ، لضحك سخريه وتهانف استهزاء . أما أن يغير عقيدته فتلك مسألة أخرى .

وقد تبين عقبي هذه الردة . اذ رأى أن جميع آماله ومطامعه في العظمة وسعة النفوذ تتوقف على أتيان عمل واحد لا أكثر ولا أقل . وقد كان يطمع في أن يصيب منام هذه العاجلة واطايبها وملاذها وترفها وزخرفها ويؤثر كل أولئك في هذه الدنيا على أن يصيبها في العالم الآخر . ولكنه كلما جعل يفكر في هذا الامر . كان وجه زوجته ينهض أمامه فلا يلبث أن يتراخى وتفرغ عزمته . اذ كان يعلم أنه لو استخدم جميع قوى المنطق ووسائل الاقناع ، فما هو بمحدث أى أثر لديها ، وما هو بمزحزحها عن عقيدتها الثابتة . فقد كان الدين لديها أمراً أكبر من العقيدة واعظم من الايمان ، كان لديها روح الحياة نفسها . وفي الحق لم تعالج هي التفكير في مسيحيتها . ولكن لم يكن على ضفاف النيل مخلوق كان يولى وجهه شطر مكة ويعبد الله عبادة أحر من عبادة مرغريت ربها ليل نهار والخضوع الى مسيحيتها العميقة المستمكنة من نفسها .

ولئن كان ستيفن لم يسمع يوماً من شفقتها كلمة نقد أو طعن في دين الشعب الذى كانت تعيش في بهرته . فلم يكن ذلك ليغريه بالشجاعة والاقدام على الامر الذى نوى أن ينفذه . اذ ادرك من ذلك مايكون من الانسان اذ يعتقد أنه على الحق وانه لا نفع

من العتب على الناس في عقائدهم الاخرى التى تغاير عقيدته
ولقد حاول مرة أو مرتين أن يفتح باب الموضوع ويقترب
بالحديث من نيته . ولكنه ما كاد يتكلم حتى كانت تستضحك
من حديثه وتظنه يحاول دعاتها والفكاهة معها فلم يكن منه الا
أن يضحك أيضاً ، وبعض بنان الخيبة والفشل والقلق والاضطراب
ولكن الفكرة لم تلبث أن نمت في ذهنه حتى بدأت تترأى
له شيئاً يطارد في كل مكان فلم يكن يفكر فى شيء غيرها فى عمله
وفى ساع فراغه . وما كان ليطلق أن يرى الامال على منال يده .
ثم يترك الفرصة تقلت من راحته من جراء تردد لا معنى له .
ولقد كان يلقي فى كل يوم من ضروب السخرية والاهانة
والاستهزاء ما جعله يعتزم عزيمته بأشد من قبل .

وكم من مرة وهو سائر فى طريقه عائدا الى البيت من محل
عمله ، قد اجمع النية على أن يفتح زوجته فى الموضوع الذى يحرق
ذهنه ولكنه كان فى الغد يعيش الى محل شغله ولم يفعل شيئاً مما
نوى أن يفعل

ولكن الحوادث كانت تترادف بسرعة والحال تزداد سوءا
وشرا ، فاضطر غير باغ أن يعجل بالبت النهائى فى أمره
فقد جعل العمال يتحرشون به ويريدون أن يشقوا عصا
الطاعة عليه ، وهم يشتغلون بلا أجر فى تلك السخرة التى ضربها
عليهم مراد بك . ففى ذات يوم ثارت نائرتهم ولم ينبج من شرهم

الا بشق النفس. وكانوا يتعقبونه الى منزله وهم وراء هذا النصرانى «
الذى كان يعسفهم فى العمل ارضاء لسيده مراد .

ولكن مرادا كان سريع الانتقام ، فلم يكذب يسمع بتلك
الثورة التى ثارها العمال حتى بعث خمسين مملوكا عبروا النيل وجروا
ركضاً ولم تكذب تمضى ساعة واحدة على وصولهم الى المصنع حتى
كان عشرون من النوار قد علقوا فوق المشانق وأعدموا شنقاً
وآخرون مثلهم جلدوا بالسياط حتى دميت أقدامهم
وكذلك قمت تلك الفتنة . ولكن لم يزد ذلك ستيفن الا
خوفا ورعباً من المستقبل

وفى الغداة بعث مراد اليه يستقدمه الى معسكر الجيزة فلما
ذهب تلقاه بتلك المودة الخشنة التى كان دائماً يظهرها نحو الشخص
الذى أنقذ حياته وأجلسه على المتكأ بجانبه وتكلم معه فى
شؤون عدة ، قبل أن يفتح باب الموضوع الذى طلبه من
أجله .

ولم يكن ستيفن يجهل ناعث استقدمه . وشعر بأن الموضوع
الذى جيء به من المصنع لاجله سيفتح بعد قليل
ومضى مراد يتكلم عن العمل وعن التأثيرين ووصفهم بأنهم
« أولاد كلب » ثم عاج بعد ذلك على مركزه فى مصر وعن
المشايخ والعلماء وسلطتهم الدينية وعجزه عن مكافحتها ووضعها عند
حدها . وكبح جماحها . ثم أبان عن الصعوبات التى لا بد للانسان

من معاناتها في سبيل الحصول على عمال يعملون تحت اشراف رجل من « النصارى » ثم لف في الحديث واستطال وعاد يسأل ضيفه رأيه في امكان اعتناق الاسلام مستطردا في الشرح معانا لمحدثه أنه اذا استجاب هذا الرجاء عد عمله صنيعاً كبيراً لشخصه وانه لن يغفل مجازاته عنه بأحسن الجزاء .

واصنى ستيفن الى الحديث وكان قد اجمع من قبل نيته على هذا الامر . ولكنه لم يشأ أن يصدع بالامر ويوافق على الفور بل اراد ان يتظاهر بأن الفكرة قد فاجأته وجاءت على غرة منه . ولذلك طلب الى مراد أن يمهل بضعة أيام ليفكر فيما عرضه عليه . ويتدبر في النية التي سينتويها

وقال مراد وهو يجيبه عند انصرافه

« واعلم انك اذا وافقت فسأعطيك تصريحاً بأثناء « اسكلة » في بولاق وتأخذ ضريبة قدرها « خمسة فضة » عن كل قارب أو مركب تمر بالاسكلة آتية من الوجه القبلى »

ومضى ستيفن عائدا الى منزله . يحسب في ذهنه عدد القوارب التي تمر ببولاق ويضربها في خمسة فضة . ولم يلبث أن ابتسم اذ تخيل الحسبة « جامدة » ثم تذكر الايام التي كان يشعر فيها عند ما يكسب شيئاً زيادة عن العادة من بالات القماش بمنتهى الفرح والسرور . . .

فلما اقترب من البيت وبدا البناء لعينه من خلف السرحات

والاشجار الطوال . لم يلبث أن تجهم وجهه اذ ادرك أنه لن ينال شيئاً من هذا الرمح الجزيل حتى ينتهى من مهمة رهيبة كان لزاماً عليه أن يؤديها .

وفرغ الزوجان من تناول العشاء ومضت مرغريت على عادتها من الصبر على العمل ، فجاءت بثوب كانت تخطه وجلست بجانب النافذة ونسيم المساء يهب صارداً عليلاً ، يزيل ما أحدثته حرارة النهار من الضجر والكلال .

وراح زوجها يقتعد المتكأ الذى فى أقصى الحجرة ويدخن لفائف التبغ ، واحدة وراء الأخرى . وينظر الى زوجته نظرات قلق وحيرة لا يدري كيف السبيل الى الهجوم عليها بالحديث وبعد جهد تشجع وألشأ يقول « لقد رأيت مراداً اليوم » فهزت رأسها متسائلة

فعاد يقول « اتدرين لماذا طلبنى اليوم ؟ » فأجابت « من يدري ماذا يريد مراد . فهو بدأ كثيراً المطالب بعيد الأمل لا حد لرغبات نفسه ولا نهاية لمشاريعه . فهو مثلك يا ستيفن من هذه الوجهة »

فأجاب ستيفن بصوت رهيب . وهو يغالب قلقه وجزعه « أنه طلب الى أن اعتنق الاسلام »

فأجفلت من رهبة صوته وبدأ فى عينيها ظل خوف لم يكن بدا قبل ذلك فى نظراتها

ولما رأى ستيفن أنها لم تجب قال أخيراً « ألا تقولين شيئاً عن ذلك . »

فتمتعت تقول وهي تبسم ابتسامة واهنة « وهل هذا الامر يحتاج الى القول »

فتشجع وقال « أرى أن افعل كما طلب . »
فقلت « لا تمزح يا ستيفن في أمر كهذا . أتوسل اليك أن لا تمزح . . »

فأجاب « كلا . ما انا بمزح انما قلت جداً . ألا تعلمين أى عناء اعانى . وأى ألم أتألم فى المصنع ، لا لشيء سوى أننى فى نظر العمال « نصرانى » انك لا تدركين ما وراء هذا العمل اذا انقضته من آمال كبار ، وعلاوات جسام وبحق السماء لن ادع فكرة حمقاء كالتشبث بالعقيدة الدينية تقف فى طريقى الى الامل العظيم ، والغاية الكبرى »

فأجابت مرغريت بثبات . وقد تهدج صوتها بعض التهيج « انك انما تقول ذلك لمداعبتى واغضابى طاب ليلك »

ونفضت من مجلسها ومشت تريد مخدعها
وجلس ستيفن يراقبها وهي منصرفة الى الحجرة . وقد نفّس عن صدره هذا المخرج الذى انتهى به الحديث . وهذا المخلص من الموقف المخرج . لأنه كان اكره الناس للمشاهد المروعة والشجار ، وقد احسنت صنعاً بالانصراف من المجلس

وقد سره كذلك مارأى من شجاعته ورباطة جأشه والثبات الذى كان منه ، لأنه كان يخشى قبل مفاتحتها بنيتها أن يتردد ويحجن ويخذل دون التصريح بها ولكن لم يلبث أن تسربت الى ذهنه فكرة أزعبته وأثارت شكوكه . وذلك انه شعر بأنها قد تكون عجزت عن أن تدرك انه لم يكن حقاً يريد بذلك دعابة ولا مزاحاً ، بل كان يقصد الجد فيما قال ، وانه قد اعتزم العزيمة وأجمع أمره أن يعتنق الاسلام وانها قد تكون فهمت من كل ذلك انه كان يريد اغضابها كما قالت واغاظتها ، واذا كان ذلك فلم يكن عليه الاّ أن يعيد الحديث مرة أخرى من أوله الى آخره فى غداة اليوم التالى. فعمد الى زجاجة من الشراب فاجترع قدحا ليسكن نائرة نفسه ، ويهدىء من جأشه ولكنه لم يترك الزجاجة حتى أفرغ كل ما فيها واتخذ من الشراب قوة فأبى الاّ أن يقطع الشك باليقين على الفور وعزم على أن يذهب اليها توّاً فيقول لها انه لم يكن يقصد بقوله الاّ جداً وحقيقة

مشى الى مخدعها وأزاح الستر الحريرى عن الباب لعلها كانت نائمة ، لأنه كان قد مضت ساعتان على انصرافها وقد كان يتمنى لو انها كانت حقاً نائمة فأطل بعينه اليها وادا به يراها راكعة على ركبتها وصوت انتحابها الشديد يطرق أذنيه

ارخى الستر ... ومضى ... وقد تبين انها لم تخطئ فهم نيته ...

الفصل الخامس

صبيّ النحاس

فى سوق النحاسين وهو واقع بين الموسكى والاسوار
البحرية للمدينة ، كانت حركة العمل قائمة ببلادة وتباطؤ . بل
ان دقائق المطارق كانت تشعر السامع بأن النشاط قد غاب عن
السوق ، وكان الهواء فى الشارع الضيق كثيفاً محبوساً لا يبعث
النشاط ولا يحمل شيئاً من النسيم العليل وكانت الشمس تنفذ من
ثغرات فى سقف الشارع المصنوع من الخيش والحصير ، وكان
أصحاب الدكاكين جلوساً على نواصي الحارات والدروب المؤدية
الى شارع النحاسين العمومى ، مهومين وناعسين يحملون سارحين
مذهولين . وهم يدخلون غير مكترئين مطلقاً بأن يبيعوا أو
لا يأتى اليهم أحد للشراء

وكانت الضحى قد مضت فى ذلك السكون فلم يكن يسمع
غير صوت سائل فى أقصى الشارع يقول « حَسَنَ اللهُ يا محسنين »
وفى مدخل زاوية من زوايا السوق ، قد كتب فوقها بالخط
العربى أن تلك الدكّانة كانت لرجل يدعى « على فرج » تاجر نحاس
كان طفلان حالسين على الارض

فأحدهما كان صبيّاً فى الربيع الثانى عشر من العمر أبيض اللون

له قصة صفراء تطل من تحت عمامته الصغيرة ، وكان ممسكا بيده صينية كبيرة من النحاس كان ينظر اليها متسخطاً متبرماً وقد لاحت على محياه الضاحك المستبشر نظرات التعب والملل وكانت بجانبه صبية سوداء العين مرتدية بجلابية صفراء وكانت جالسة على الارض وهي تراقب الصبي مسرورة ضاحكة في أعماق نفسها من حركاته وهو قابض على الصينية بأنامله ولا رغبة في نفسه للعمل .

ولم تلبث الصبية أن قالت : « هيه يا عبد الله . يا خويا . يظهر أن الصينية لم تتم مطلقاً . انك لم تخلق صنايعى ماهراً ، على الرغم من علمك وما قرأت ولن يدفع احمد التاجر فيها ولا قرشين الا اذا كان يعدها من الانتيكة »

فنظر الصبي الى الصينية التي في يديه ملولاً غاضباً وقال :
 « أنا معك يا نفيسة في أن هذا الشغل غير نظيف ولو أننى لا أستطيع ان افول ذلك أمام على فرج . قولى لى يا نفيسة كيف قدرلى أنا الذى أقرأ الفتحة بسهولة واكتب « أسماء الله الحسنى » وأحسب ثمن السلع مثل « القباني » لا أستطيع بعد شغل ستة أشهر وتمرين طويل أن لا أخرج الا صينية مثل هذه حقيرة فى صنعها وشغلها يغضب منظرها على فرج ولا تصيب من الصنایعية الآخرين غير الضحك والسخرية ! »

فأجابت نفيسة « لا أعلم سر ذلك يا أخى . لعل ما اكتسبته

بمواهب ذهنك ، قد أثري في مهارة يدك ، وقد يكون ما قال المعلم
على فرج صحيحا وهو ان الاذان لم يهمس في أذنيك عندمولدك
ولهذا ركبك الجن «

فأجاب عبد الله « يظهر أن الامر له حقيقة . لازم اكون
جتنى مش خالصه . والا لكنت الآن مع القباني . أذن سلم
السوق لأصحابها «

فعادت نفيسة تقول « ألم اكن أقول لك انك مجنون اذ
كنت تخطيء في حساب الوزن لكى تثير غضب القباني فيضربك
على رجليك «

فقطب الصبى جبينه ولكنه لم يلبث أن ضحك مسرورا
وقال « الا تتذكرين يا نفيسة كيف أنه كان يمسك لحيته ويشدها
ليقطعها عند ما جاء التجار يطالبونه بدفع الفرق ويشتمونه
للاغلاط التى وقعت منه فى حساب الوزن . والله لقد كان منظرا
فى غاية اللطافة «

فقالت نفيسة لتذكره هى أيضاً « وهل نسيت أنت كيف أنه
جاء بك وهو قابض على أذنيك يشدك شدا طول الطريق ، حتى
قدم بك الى عمنا على فرج فضربك هذا وأوجعك . وأمر بأن
تجلس فى هذا الدكان لتتعلم شغل النحاسية . يظهر أن ساعتها كان
عقلك « ضايع «

فتنهذ الصبى وقال « أنا لا أنكر عليك يا نفيسة اننى كنت

مجنونا لاننى لو كنت بقيت معه لَأُصِبحَت بِمرور الزمن «قبانى»
أصلى. وكنت استطعت أن أجمع بضعة قروش فى النهار . ولكن
الآن . يافضيتى . من الذى يرضى لنفسه أن يشتري شغل عبد الله
ولكن الحمد لله مع ذلك فانى اذا لم اكن أعرف كيف أستغل
فى صناعة النحاس ، فعلى الأقل أعرف كيف آكل »

قال ذلك وضحك مسرورا من نفسه ومد ذراعه الى رغيف
«مرحرح» فجعل يقرضه بأسنانه وهو مغتبط فرح
وللحال صاح رجل بدين جاء على غرة الى الخانوت «ما هذا .
يا ابن البليد » يامفسد . ياغبى . ياخسران . يامن تأكل من ثمرة
الانسان ولا تصنع شيئا فى مقابل ما تأكل . هل هذا كل ما
عملت . انظر ! »

قال ذلك والتقط الصينية من مكانها وعاد يقول « هل هذا
شغل يصح أن أخرج من دكانى . هل هذه صينية أستطيع أن
أبعثها من محلى واسمى عليها . النحاس نفسه مكلفنى قرشين ولو
كنت اشتغلت الصينية شغلا دقيقا لكنت أخذت فيها عشرة
قروش ولكن الآن لاتساوى شيئا . ولكن أنا أعرف كيف
أعاقبك ، والآن سأجعل مشط رجلك يؤلمك »

ثم أمسك بالصبي فطرحه أرضاً وأخذ رجلا من رجليه ورفعها
وانطلق يضربه عليها بمقرعة شديدة

فحمل الصبي يتلوى وينفلت دون أن يشكو أو يبكى أو

يصرخ ، ولكن الصبية كانت واقفة وهى تهز قمضة يدها وقد
علا الاحمرار وجنتها

وترك الرجل الصى من يده ، وهو يلثت تعباً ورمى المقرعة
جانباً وهو يقول « يابليد . هذا قد يعلمك العقل قليلا . انى
ذاهب الان الى الجامع لصلاة الظهر وسأسأل ربنا أن يهديك
حتى تبطل هذه « الشقاوة »

وجعل الصى يراقب المعلم وهو منصرف ومضى يدعك
مشط قدمه ، ثم انطلق فأخذ من الارض حجراً وجعل يقلبه
فى يديه

واسوء حظ الصبى ، اتفق له أن التفت المعلم اذ ذاك وراءه
فرآى فعل الصبى ولذلك هاج هائج وصاح « آه . يا ابن الحرام .
أتريد أن تؤذينى . أ كذا تسول لك نفسك أن ترجنى بالطوب
يا خبيث . والله لا أفرجك »

فلما سمع الغلام هذا التهديد أطلق ساقيه للريح . ولكن
الرجل البدين التقط ما وقع فى يده ، ولم يقع فى يده غير الصينية
المعلومة . وراح يجرى فى اثر الغلام

ففتح اصحاب الدكاكين اعينهم نصف فتحة وهم جلوس فى زوايا
حوانيتهم ، فلما لم يجدوا غير على فرج ، النحاس والغلام الذى
مافتىء يزعج الشارع فى كل صباح ومساء لم يلبثوا أن عادوا الى
غفلتهم وأغمضوا اجفانهم وهم يدعون الله أن يهدى هذا الغلام

الشقى الى الرشاد .

وانتبه الشحاذا من سكونه واطرق وقد كف عن صيحاته .
ولئن كان على فرج بديناً غليظ الجثمان ، وكان قفطانه فضفاضاً
يتعثر فى أذياله ، فقد راح يعدو خفيف الحركة ، ثم قذف بالصنية
فى أثر الغلام ، ولم تكن الصنية شيئاً يخف حمله وقذفه ولاكن
المعلم كان قد جن من الغضب ونسى نفسه

ولما فر الغلام يجرى بأسرع ما فى قوته . واجتاز الشيخ السائل ،
مد هذا ساقيه على الارض بسرعة . وما كاد يصل المعلم وقفطانه
يخفق فى الهواء وراءه حتى تعثر بعضا السائل وكان قد وضعها
بجانب ساقيه الممدودتين ، فسقط المعلم فرج على الارض ، ممد
البدن . ووقعت الصنية التى كانت سبب كل هذا الشجار والجرى
والشتائم بجانبه متدحرجة

فقام الرجل يتخبط وارتد بوحشيته على السائل ومضى يسبه
ويلعنه ويسخط عليه

فلم يكن من الشيخ السائل الا أن قال بكل هدوء وسكون
« ما العن حظى يا بنى . شفاك الله من هذه السقطة وعوضك عنها
خيراً وانجح الله مقاصدك يا بنى . اغفر لى زلتى وتجاوز عن هذا
الحادث والله تعالى يحب المحسنين . »

فأجاب المعلم غاضباً « ياشيخ محسنين ايه . ربنا يؤذيك كما
اذيتنى . . . »

فاستمر السائل يقول « صدقة يا محسنين »

فلم يسع المعلم فرج الآن يسكت عن الشيخ وعاد الى دكانته
فجلس يصب جيم لعنات الدنيا على رأس عبد الله وهو ينفض
عمامته من الغبار الذى علق بها ويرقع ما تمزق من قفطانه
ووقف الغلام عبد الله عند نهاية السوق ينتظر وهو يطل
خفية على الدكان ليرى ماذا سيكون من معمله حتى جاءت اليه
الفتاة أخته وكانت قد افلتت خلصة من الحانوت ووصلت اليه
من شارع آخر قريب من السوق .

قالت نفيسة وقد وقفت بجانبه

« هل فعلتها يا اخي . ان رجلك ستدفعان ثمن ما فعلت »
فضحك الغلام وقال « أنا لا اهتم يا نفيسة ولو نزع جلدة
رجلي فأنتى مسرور من منظر المعلم وهو يجرى مهرولا فى قفطانه
ومنبطحا على الارض بقلطة حسمه ، ربنا يحزى هذا الشحاذا الذى
جعل له يسقط احسن الجزاء فأذن الله ولا شك هو الذى أوحى
اليه أن يضع العصا فى ذلك الموضع »

فقالت الصبية « ربما ولكن لعل السائل نفسه هو الذى وضعها »
فقال عبد الله ضاحكا « أهو اذن الذى وضعها كذلك . انه
صاحبى . لاني أنقذته مرة من تحت سنايك جواد أحد المماليك
فانك تربينه يا نفيسة يمشى الهوينا متباطئا . لأنه مصاب فى
احدى ساقيه »

وفي تلك اللحظة جاء السائل يعرج في مشيته ويسأل الصدقة
كمادته .

فصاح به الغلام « السلام عليك يا شيخ »
فقال الشحاذ وقد مد بالسلام يده الى الغلام « وعليك السلام
ورحمة الله وبركاته »

فأخرج الصبي قرشاً من جيبه وقال للسائل « أنظر يا أبى .
ليس معى غير هذا القرش . فهلا تقبلته جزاء على أنك أنقذت
رأسى من الصينية »

فتهلل وجه الشيخ وقال « لقد أحسن الى المتصدقون اليوم
يا بنى فأمسك عليك قرشك فليست بحاجة اليه . ولست أنا الذى
استحق المكافأة بل العصا التى تعثر فيها المعلم »

فقات نفيسة وهى تشير اليه بأصبعها « ولكنك أنت الذى
حركتها أيها الشيخ فقد رأيتك وأنت تدفعها كما يدفعها المملوك
رحمه . . »

فأجاب السائل بهدوء « كلا . يا ابنتى ان نظرك قد اخطأ »
فالتفت الصبي الى اخته بسرعة وقال « لا تخبرى على فرج
بهذا الخبر والا آذى صديقنا هذا الشيخ الحنون »

فأجابت نفيسة فى لهجة عتاب وتأنيب « ما كنت لأقول له
شيئاً عن ذلك ولو جعل حياتى رمضان أبدياً »

فجعل السائل ينظر الى كل منهما مندهشاً ثم راح يسأل قائلاً

« اذن لستما من أولاد على فرج . اليس كذلك ؟ »
 فقال الغلام « بنى . انما نحن أولاد أخيه الذى مات فى الطاعون
 ببلدة طنطا ومنذ ذلك العهد جئنا نعيش مع عمنا وزوجته خديجة »
 فقال الشيخ « وهل يحسنان معاملتكما »

فأجاب الغلام غير مكترث « ليس لدينا ما نشكو منه . نعم .
 ان عمى سريع البادرة ، متعجل الغضب وخديجة روجة عمى
 تشكو أبداً من أننا نكثر من الأكل ولكن الغيرة سبب شكاتها
 لانها عاقر لم ترزق بغلام ولا بنت وأنا لا فائدة منى فى شغل
 النحاسية . لأننى لست ماهراً فى الصناعة اليدوية »

فأردت نفيسة على قوله غير راضية عن انتقاص أخيها لنفسه
 « ولكنه ذكى فى العلم أيها الشيخ مجتهد فأن عبد الله يعرف
 اسماء الله الحسنى . ويحفظ سوراً كثيرة من القرآن ويحسب أيضاً
 ويجمع وي طرح كذلك »

فالتفت اليه الشيخ وقال « ألم تكن قبل الآن تشتغل صبيها
 لدى القبانى . »

فأجاب الغلام « نعم . اذ ارسلنى عمى الى الكتاب حيث
 تعلمت مبادئ القراءة والكتابة لاننى كنت تعلمت شيئاً منها
 فى طنطا فظن أنه خير لى أن استمر على التعلم من الاشتغال فى
 الدكان آه . ليتنى لم أغلط فى الحساب لدى القبانى لاغيظه واطلع
 عينه فلولا ذلك لكنت اليوم مستطيعاً أن اكسب عدة قروش

في اليوم ثم كنت دخلت الازهر فكنت مجاورا فيه «
فقال الشيخ « وهل تحب أن تكون طالبا من طلاب العلم
في الازهر ؟ »

فصاح الصبي دهشة وعجبا « اتسألني ان كنت احب ذلك .
وهل هناك احسن من هذا . اذ من يدرى فلعلى أصبح يوما
شيخا من مشايخ الازهر أو عالما من علمائه ، أو خطيبا في الجوامع »
فاستطردت نفيسة تتم جملته قائلة « وتركب حمارا ويقف الناس
منزوين على جوانب الطرق والشوارع عند قدومك وفي غدواتك
وروحاتك وتذهب الى الجزار فتأخذ لحما ولا تدفع ثمنا لانك
من علماء الازهر . »

فبدا فوق وجه الشيخ الحزين ظل ابتسامة واهنة وقال
« انك فتاة عملية يابنتي » ثم التفت نحو الصبي وقال « هل تعرف
يابني الشيخ فصل شيخ الجامع الازهر ؟ »
فهز الغلام رأسه

ولكن الشيخ قال « انه شيخ حسير البصر . وأنا اعرفه
معرفة ليست وثيقة لانه يحسن الى العجزة ويتصدق على المساكين
ويرأف بالفقراء ، وقد علمت أنه بحاجة الى قتي يقرأ له ويتلمذ
عليه ، ويخدم في بيته ويصاحبه في جولاته وطوفاته . فهل تحب
أن تدخل في خدمته اذا رضى المعلم فرج أن تفعل ذلك »
فصاح الغلام طربا « وكيف لا . ألا احب أن اخدم طالما ،

حاشا لله ، اننى أفضل أن أشتغل فى آية شغلة على العمل فى دكان
النحاس ، فلعلى كذلك سأصيب قسطا من العلم فى خدمته «
فأجاب السائل « من يدري . سنرى « السلام عليكم »
وَأَمَّ اثوابه الخَلِيقَة حوله ومضى فى سبيله يعرج فى مشيته .
وفى اصيل اليوم التالى . وكان عبد الله قد تناول « العلقَة »
على رجله من عمه برا بـمَا وعد . جالس الغلام يصنعى الى عمه
وهو يحدث صديقاله ويشكو اليه ما فى صدره من الآلام من
ناحية عبد الله وافعاله . وكان الصديق تاجر جلود . جاء ليقضى
ساعة فى الحديث مع صاحبه

وكان المعلم فرج يقول « انظر الى هذا الولد الذى رزاني
به الله فهو ابن اخى . ولا ادري كيف يخرج لآخى غلام كهذا .
لان محمدا كان ذكيا ومجتهدا ولكن ابنه هذا يحب النوم ويفضل
الكسل على العمل . »

فقال صاحبه وهو يحاوره « لعله غبي ضعيف الادراك »
فأجاب على فرج وهو يهز رأسه :
« كلا . ليس الولد بالغبي ولكن يظهر أنه « مملوس » ،
أنظر اليه الان »

فالتفت الرجلان وللحال انصرا الغلام قد كف عن العمل ومضى
ينظر الى الفضاء الذى أمامه ساجداً بمخيلته ، وقد نسي كل ما كان
حوله . ولم يتذكر عمه وصديقه وهما يتكلمان .

وكان في أقصى الشارع شيخ عجوز فوق حمار له يدنو صوب الدكان ، وقد وضع فوق رأسه عمامة خضراء عظيمة ، وله لحية بيضاء مستطيلة منظمة ممشوقة ، وكأما كانت الطيبة تحف حوله وهو راكب دابته وهو يتفحص الدكاكين بنظره الحسير ، كمن يبحث عن رجل أو حانوت بعينه

وكلما مر به رحل وقف له منحنياً خاشعاً يحنيه وكان الشيخ يجيب على التحية بأحسن منها ، ثم لم يلبث ان اوقف دابته وسأل أحد المارة ، فأخذ هذا بعنان المطية واقتادها الى دكان المعلم فرج فنزل عن ظهر الدابة ببطء وجلال فهت المعلم ودهش وقام مسرعاً وأخذ بيد الشيخ فقبلها ، وسلم تاجر الجلود وحيا منصرفا وتقدم عبدالله فتناول يد الشيخ فقبلها هو الآخر باحترام وخشوع ثم مضى الى ركن خلس في حيرة ظاهرة في وجهه ، اذ رأى الشيخ أمامه وهو الذي قال السائل أمس عنه

فجعل عبد الله يقول لنفسه « لعنة الله على ” فقد قرفت السائل بظنة كان بريئاً منها اذ قلت لنفسه انه كذاب »

وتناول الشيخ عدة أحاديث ومواضيع للكلام قبل أن يفتح موضوع زيارته .

وقال أخيراً « لقد سمعت بخبرك يا على فرج وعلمت أن لك ولداً هو ابن أخ لك وهو يستطيع ان يقرأ ويكتب قليلا وهو لا يحسن العمل في صناعة النحاسين ، وانك متعب منه في ألم

وويل . »

فتنهذ المعلم وصعد الزفرات وقال :

« هذه هي الحقيقة يا سيدي الاستاذ . ولكن الانسان
من يجب ان يصبر على حكم الله »

فأجاب الشيخ « ولكن هل نسيت ما قاله الكتاب العزيز
« لا يكلف الله نفساً الا وسعها » ولكن لعله بمرور الزمن سيتعلم
ويصلح من امره »

فاحتمد المعلم واجاب « والله ولو بعد الف سنة ما هو
بمتعلم شيئاً قط . مع اني دفعت الى الفقيه خمسين قرشاً لتعليمه
الحساب ولكن لم أنل من وراء ذلك غير الخسارة والعذاب
لان القباني الذي اسلمته اليه ليشغل عنده في مقابل خمسة قروش
في الاسبوع ، جاء به ذات يوم وهو في اشد الغيظ والحنق عليه
وها هو جالس الآن في زاوية من الدكان لا يصلح لشيء ما حتى
ولا حراسة « المطرح » عند ذهابي الى تأدية الصلاة في المسجد »
فأجاب العالم « لا تقل هذا يا بني . ان الله لم يخلق الناس جميعاً
متشابهين وانما خلق كل انسان لما يشاء له ، كما تختلف ايرة صانع
الجلود . عن مقطع صانع النحاس »

فأجاب المعلم فرج « اذن هل تقترح يا سيدي الاستاذ أن
أدفع به الى تاجر جلد ليتعلم عنده »

فابتسم الشيخ وقال « كلا . كلا . لم أقل ذلك . الا على سبيل

التشبيه والاستعارة . ولكنى سأقص عليك السبب الذى أقدمنى اليك اليوم . اننى محتاج الى غلام يقرأ لى ويصاحبنى فى غدواتى وروحائى وقد تبين لى ان غلامك هذا يصلح لهذه الشغلة . ولهذا ارضى ان آخذه عندى اذا سمحت بذلك وسأدفع أجرة عنه لك . اذا وجدت انه يوافقنى . وقيمة هذا الأجر الخمسون قرشاً التى دفعتها على تعليمه وسأكسوه وأقدم له الطعام حتى لا يكون بعد اليوم عالة عليك . »

فلما سمع الغلام ، وكان جالساً طول الوقت يصغى الى هذا الحديث . ما قال الشيخ ففتح عينيه وحملق ببصره . ثم التفت نحو عمه بوجه مستعطف متاهف على جوابه

فتمتم على فرج يقول « انه ولد قوى وقد ينفع فى مستقبل الايام ويأتى بنقود طيبة لو شغلته » كشيال »

فأجاب الشيخ اسكون « ولكن لا بد من النفقة عليه طويلاً قبل أن يتمكن من العمل فى حمل الاثقال »

وانبرى عبد الله يقول « والشياولون فى مصر يشربون الحشيش فما يكسبونونه نهراً يبددونه ليلاً »

فنظر المعلم اليه وقال « صه . دائماً مسحوب من لسانك » فأجاب الشيخ « لقد قال الغلام حقاً ونطق صواباً . وعلى مدى الايام سيجلب نقوداً طيبة ، بقراءة القرآن فى المنازل وبتلاوة « الرواتب » فى الحوانيت والدور وقصور الكبراء . ويكسب

من وراء ذلك أكثر مما يكسبه أكبر شيال في المدينة كلها في
اسبوع واحد »

قال المعلم « طيب والخمسة القروش التي كنت أتناولها من
القباني . . . »

فأجاب الدالم « سأعطيك أياها إذا رأيت الغلام يصلح لما
أريده منه . . . »

فابتسم عل فرج وقال « طيب يا استاذ . رضينا . هذا
كله لخيره وهو كما تعلم ابن أخى ولو أنه يشبهه له كما يشبه
الحمار الجمال »

فالتفت الشيخ الى الصبي وقال « اتأتى معى وتخدمنى باخلاص
وأمانة واحترام ؟ »

فلم يكن من الصبي على سبيل الجواب الا أن تناول يد
العالم فقبها بخشوع وقال « نعم يا أبى . سأخدمك باجتهاد وان
لم اجتهد واخلاص فى خدمتك فاللهم عاقبنى أشد العقاب »
فقال الشيخ « هذا كلام طيب . غداً اذن سأحضر
لأخذك معى . »

وكذلك فى اليوم التالى ودع عبد الله أخته وقد تشبثت بنجره
وهى تنتحب وتشهق بالعبرات قائلة « اهكذا تتركنى يا عبد الله
وتدعنى هنا وحيدة فى الذى سيرعانى ويحرسنى ويحبنى بعد ذهابك »
فوجم الغلام وبدأ على وجهه دلائل الحزن . واختفى ذلك

السرور الذى كان يبدو عليه لهذه الحياة الجديدة التى سيوشك أن يتمتع بها وقال « اذا كنت تريد أن لا أذهب يا نفيسة فسأبقى لأجلك واتعلم الصنعة التى أنا فيها والله يعيننى على الرزق »

فشرقت نفيسة بالعبرات ثانية وقالت

« كلا . كلا . انى مجنونة . لا أريد أن ابقىك أو أمنعك

من الذهاب ولكن الفراق صعب اليم »

فأجاب وهو يشجعها ويؤاسيها :

« سأحضر كثيراً لرؤيتك يا اختى فلا تجزعى وسأشتغل

واكد حتى اكون شيخاً أو اماماً . اذ من يدرى غير الله ماذا

سأكون فى المستقبل . وسأضع نصب عينى أنى اريد بكدى

هذه أن آخذك من بيت عمك واريحك من استبداد خديجة

زوجته . . . »

فتمتعت نفيسة تقول « عجل الله بذلك اليوم . والآن

اذهب يا اخى فان الشيخ فضل الآن فى انتظارك »

وبينا كان عبد الله وجعبته تحت ابطه يجرى وراء الشيخ

وهو على مطيته نسى نفيسة اخته . وعند ما كان يقتاد الحمار

والعصا فى يده الى المربط الذى اعد له فى صحن الدار . لم يلاحظ

شبحاً صغيراً فى حلاية صفراء تطل عليه من وراء جدار طويل

فى السوق ، ولم يطرق اذنه عويل ذلك الشبح الصغير وانتحابهاته

وكان ذلك الشيخ نفيسة وقد تبعته ووقفت تودعه بنظراتها ،

وتهيل التراب فوق رأسها ، وتبكي وتندب . لأن ما كان يرتقب
أخاها من نعمة ومستقبل حسن وعيشة هادئة طيبة في ظل الشيخ
العالم لم يكن لديها شئ يذكروا ولم يروا عنها ألم التذكار والمعرفة
بأنها قادمة على حياة خالية من عبد الله شقيقها الوحيد

الفصل الخامس

عثمان المملوك

ودخل عبد الله خدمة الشيخ فضل كبير علماء الازهر بحمية
وغيرة ونشاط للعمل وارضاء الشيخ
وكان منتهى السعادة عنده أن يمشى الى جانب الحمار ممسكا
بالركاب وهو يصيح « أوعى رجلك . يمينك . شمالك ! »
وكان يرى في ذلك شيئاً من الفخار وكم من مرة رأى فيها
رجلا من الافرنك يدنو نحو الطريق الذي كان الشيخ راكباً يريد
اجتيازه ! فكان يتعمد سوق الدابة الى الجهة التي فيها الافرنكي
لكي يكره ذلك المسيحي على أن ينزل عن دابته احتراماً للشيخ
الازهر . ويقف في ركن خاشعاً . ويده الى صدره دليلاً على
الاحترام والخضوع . ولا يمتطى دابته حتى يغيب الشيخ عن أنظاره .
ففي ذات يوم وان الشيخ وفتاه ليجتازان الطريق بجوار

جامع قلاوون اذ التقيا في حارة ضيقة بأفرنكى عجوز مرتد بقفطان كبير وقد وضع على عينيه منظاراً من العظم وكان هذا الشيخ جول ليفبر وكان يعيش الهويناً منصرفاً الى منزله بعد اغلاق الخان وكان اليوم قائظاً وكان النعاس قد رنق في عينيه وهو في طريقه الى داره . اذ كان ذهنه حافلاً بخواطر كثيرة في توسيع عمله . وشؤون حانوته . فقد مضت خمسة أعوام على حل تلك الشركة التي كانت بينه وبين صاحبه ستيفن لدخوله في خدمة مراد بك

ولكنه لم يلبث أن انتبه من أحلامه « وسرحته » على صوت غلام يصيح عليه في غضب قائلاً « أنت . يا أفرنكى . يا كلب . ألا ترى من القادم . هذا شيخ الاسلام . الشيخ فضل . هلم انزل عن حمارك . حقاً ان كبرياء هؤلاء الأفرنك قد جاوزت الحدود وكادت تخرج الانسان عن رشده »

فصاح الشيخ فصل مهدئاً غضب الغلام بصوت عذب رقيق « كفى يا بنى . كفى . لعل الرجل يا بنى مريض »
فأجاب الغلام « مريض . مريض بكبره وصلفه »

ولو كان العم جول ليفبر حديث عهد بأداب المدينة . لأبى أن ينزل ولاستاق دابته في طريقها . ولكن العشرون عاماً التي مكثها في مصر علمته الحكمة . فنزل عن دابته . غير غاضب مما سمع . بل ضاحكاً متلهياً بمنظر هذا الغلام المدافع عن حقوقه .

فنظر الى الغلام بعين ضاحكة من خلال منظاريه وقال «حقا لقد كنت اظن أمامي شيخا واحداً . فاذا هنا شيخان . واحد فوق الحمار . وواحد بجانبه . السلام عليك يا أبى . . . ! »

فتهلل وجه الغلام فرحاً وسروراً بهذه النكتة وبانت نواجذه وهو يقول « لم أصبح شيخاً حتى الآن يا عم يا افرنكى ولكنى سأكون قريباً . بمشيئة الله »

فرمق الشيخ ليفبر الغلام ووجهه الصغير الضاحك المستهل . وطرة الشعر الاصفر المتدلية على جبينه وعينه النجلاوين السوداوين ولم يلبث أن علا وجهه شيء من الدهول . كمن يحاول أن يستعيد في ذهنه ذكرى ضائعة قديمة مهجورة . وبقي واقفاً في مكانه يتابع الغلام بنظراته . حتى اختفى في غمار السابلة .

وكان الشيخ فضل من الشافعيين مذهباً ، وكان جميع شيوخ الجامع الازهر دائماً من الشافعيين ، وكان رجلاً أصاب قسطاً عظيماً من العلم وكان في الفقه الاسلامي حجة ثبته ، ولم يكن له ضريب في الحقوق والموارث وآداب القرآن والعلم بالحديث في مصر كلها .

ولكن مهما أوتي من ذلك العلم الواسع والبحر الزاخر . لم يكن رجلاً عملياً ، بل ضعيف الحيلة في الامور الدنيوية ، وقد أصاب من هم دونه في العلم ما عجز هو عن أن يصيب شيئاً يسيراً منه وكان لا يظفر من مرتبه الذي يتقاضاه من الازهر بغير النصف

وكان باعة السلع والاقمشة يخدمونه في القلوس ، ويفشونه في فكة العملة .

وقد استمد شيئاً من الدخل يكفى لقوته وتفقاته من اجور عدة منازل تركها له ابوه . وكان من علماء الازهر قبله ، وكان يقرأ في بيوت العظماء آيات من القرآن . ولكن هذه « المشاوير » كانت تعيق سير العمل الذى كان قد توفر عليه وهو تفسير القرآن وشرح الحديث منذ خمسة اعوام . وكان يتنقل من اجله من مكتبة الى مكتبة في طول المدينة وعرضها باحثاً عن المراجع والتوايف والمصادر التى يتحرى منها ما يعينه على مؤلفه

وقد دفع ثمن هذا السكد الذى تحمله في سبيل الكتاب . فحسّر بصره . وكلّ ناظره . فشعر أخيراً انه بحاجة الى من يعينه على القراءة . ويكتب له وينسخ ما كان يريد . ويعلمه على طريقته . ويهذبه على أسلوبه وغراره . وقد فرح بعبد الله كل الفرح . وقد خشى في مبدأ الأمر أن يكون قد اختار من لا يصلح لحاجته . ولكنّه لم يلبث أن رأى من الغلام حمية ونشاطاً وخفة للتعلم . وتلبى لخدمته . وانصاع الى أوامره . وتشوق الى المعرفة حببت الغلام اليه . وهزت في اعماق فؤاده أوتاراً ظلت صامتة الدهر الطوال . ولئن كان يحب الانسانية عامة الحب المطلق الصراح فقد أصبح يحب من تلك الانسانية ذرة صغيرة حباً لم يكن في ماضى أمره وهب الكل شيئاً مثله .

أما حب عبد الله للشيخ فكان يقرب من العبادة . ولكنها عبادة لم تكن تخلو من شيء من الدهشة والعجب . لأن الصبي قد تعلم شيئاً كثيراً من الحياة العملية من كثرة اختلاطه بالسوق ومعرفة البيع والشراء في الشوارع . وكان الشيخ من هذا العلم فقيراً لا يدرك منه قليلاً ولا كثيراً

وقد قص جميع ذلك على نفيسة اخته في ساعات الفراغ . بعد أن يكون الشيخ قد ارتاح في حجرته أو جلس في مسجد أو مكتبة . وانكمش الى عمله . فكان عبد الله يختلس ساعة أو بعض ساعة فيجىء الى اخته لزيارتها في بيت خديجة زوجة عمه ويخرج مع نفيسة يطوفان بالشوارع للفسحة والحديث وكانت كل احاديثه تدور حول الشيخ والعيشة التي كان يعيشها ولكن نفيسة لم تكن تحفل كثيراً بأمور الشيخ وأسلوب معيشته . لأنها كانت تحقد عليه أخذه أخاها عنده

ففي مرة من تلك المرات بعد مضي عدة أشهر على دخول عبد الله في خدمة الشيخ فضل . جاء الغلام مبكراً على غير عادته الى المنزل الذي في حارة النحاس حيث كان عمه يسكن هو وزوجه وقد احضر معه قطعة من الحرير هدية الى امرأة عمه فطلب الى الست خديجة أن تأذن له في أخذ اخته نفيسة معه للفسحة خارج البيت .

وكان ذلك اليوم الاحتفال بمولد النبي وكانت العاصمة في

ذلك اليوم نضج بأهلها . ويشتد الزحام في شوارعها . وتكثر الزينات في كل مكان . وكانت خديجة تريد أن ترفض هذا الطاب وتأتي عليه أخذ اخته معه ولكن قطعة الحرير التي جاء بها على سبيل المقشيش . أو « الرشوة » نجحت في اغرائها على السماح له بما طلب . وان لم يكن الاذن الذي نزلت له عنه يخلو من دلائل التسلط والتبرم والشكوى اذ قالت أنه لا يمضي زمن طويل حتى تضطر نفيسة الى وضع النقاسر « البرقع » على وجهها اذا خرجت الى الطريق . لاهـا بدأت تكبر وتنمو ولا يليق أن تمشي امام الناس سائرة .

والطلق الاخوان وكل يصع يده في يد صاحبه . ونفيسة الصغيرة في ثوبها الاصفر . وشعرها معقوص مربوط بقطعة من الحرير وعبد الله في قمطان اسود جديد خلعه عليه شيخه واجتازا جامعا طولون . من حوار ودروب ضيقة . ومضت نفيسة تعلق على كل شيء تلمحه في الطريق . ولكن عبد الله كان يمشي غير ملتفت لما حوله . ولم يقف غير مرة واحدة اذ لمح رجلا مربوطا في عمود بجوار مفرق عدة طرق . وهو يتلوى يريد أن يزيح عن صدره شيئا كبيرا الحجم وكان هذا الشيء الملقى على صدره قطعة كبيرة من اللحم العبيط .

فصاح عبد الله يلفت نظر نفيسة الى هذا المشهد الرهيب .

« انظري يا نفيسة هذا جزار كان يبيع الناس لحماً فاسداً وهذا عقاب وقعه عليه محافظو البرليس « المستحفظان » بمقتضى القانون . ولا ريب عندي في أنه سيمتنع عن بيع الناس مثل هذا اللحم بعد اليوم . وقد بقى له على هذه الحال يومين ولا تزال هناك مدة سيمكثها كذلك »

وكان ذلك المسكين يتلوى ويتألم ويلعن ويسب اذا كان الناس وقوفاً يتأهون بمظهره وهو في تلك الحالة ويسخرون منه ويتمازحون عليه .

ولكن لم يكن من نفيسة الا أن ذهبت الى حنفية في الطريق أو سبيل هناك فمالت « كوزا » من الماء ومضت به الى الرجل فقدمته اليه ليشرب وهي تهش الذباب الذي اجتمع حول وجهه فصاح بها أخوها محتجاً غاصباً « ماذا تفعلين يا نفيسة ، الا تدرين ماذا يحل بك لو رأك المستحفظان ؟ »

فأجابت الصبية بانفعال « وماذا يهمني من المستحفظان : كيف سولت لهم نفوسهم أن يراطوه الى هذا العامود على هذه الصورة وهم لا يقولون في اللصوصية عن أى انسان آخر في العاصمة » فقال عبد الله منذراً مهدداً « سكوتاً كفى . كفى . أنت دائماً طويلة اللسان متسرعة في الكلام . وفوق هذا . أليس هذا الرجل قبطيّاً اعني من النصارى الملاعين »

فأجابت الصبية « ولكن الا يتألم الآن كما يتألم المسلمون

اليس له احساس مثلنا يا عبد الله . . . ! ! ؟ »
 ففز الغلام كتفيه غير مهم بما سمع فأَن النصرانى لا يزال
 لديه نصرانيا وحسب

ولسكن المسكين تتم بكلمات الشكر وباركها بتلك العبرات
 التى راحت تتساقط على وجهه الذابل المتعب
 ولكن عبد الله وقد نفذ صبره جر نفيسة وساقها الى المشى
 وانطلقا فى الطريق مسرعين

وقالت نفيسة أخيراً وقد ادركها التعب « ماذا حصل لك فى
 هذا النهار . مابالك لاتقف هنيهة عن المسير لى تنظر الى الحوانيت
 أو تدعى أتفرج على الطبل البلدى وأشاهد المشاعل وهى تمر بنا »
 فأجابها أخوها ضاحكا « ستشعدين شيئاً أحسن من هذا بل
 أروع من منظر ذلك الجزار ولو أن منظر الجزار كان بديعاً
 لا يخلو من فكاكة ومسرة . هيا بنا قبل أن تتأخر عن الرجوع
 ولكن احذرى أن تقولى كلمة واحدة لخديجة عما ترين »

فأحابتة الصبية بلهجة العاتب المؤنب « ومتى كنت أقول
 لها شيئاً أو انبس أمامها بينت شفة ولكن أين تريد أن نذهب
 يا عبد الله . الى رؤية الذكر »

فأجاب الغلام ضاحكا . اتقولين « الذكر » وهل لم أشبع
 من الاذكار ورؤيتها منذ دخلت فى خدمة الشيخ واختلطت
 بالمشايخ . . . »

ثم اقترب منها وهمس في أذنها « كلا . لسنا ذاهبين الى رؤية
الاذكار . بل سنتفرج على « الدوسة » ! »
فجحظت عيناها وتهللت معارف وجهها وقالت شاهقة مصعدة
الزفرات « الدوسة ! لا . لا . يا عبد الله . هذا مستحيل »
فقال الغلام « دعى هذا لى ولاكن ان كنت خائفة فقولى
قبل الذهاب »

فأجابته مندهشة وقد اخذتها العزة بشهامتها « اتقول خائفة ! »
فقال عبد الله « ربما . فان الفتيات والبنات الصغيرات
لا يروقهن أن ينظرن الى هذه المشاهد فأنها لم تخلق الا لأعين الرجال »
فقات نفيسة « وهل أنت رجل . أنت يابن ١٣ سنة ؟ »
فأجاب عبد الله بعجلة « كفى . تماهمننا . تماهمننا »

وكانت نفيسة ذات لسان سليط فى بعض الاحيان . فأذا
أرسلت لسانها تؤنبه أو تعاتبه ، غلب على أمره واعترف
بالخيبة والفشل . وكانت نفيسة أشوق نفساً الى الوصول الى
الازبكية من أخيها ، ولما وقف هنيهة فى الطريق ليققسم معها
قطعة من الحلوى كان قد جاء بها . وكانت الصبية أحب الناس الى
القطائر والحلويات ، لم ترض أن تأخذ قطعها بل قالت له أن يبقياها
الى بعد الفرجة وأن يواصل السير .

وفى احدى الحارات الضيقة اضطر الاخوان أن يقفا بجانب
ركن هناك ، ليفسحا الطريق لجماعة من الفرسان كانوا قادمين من

تلك الناحية ، وقد مشى أمامهم حملة المشاعل ينثرون الطريق لهم .
وفي أثرهم رجل في لباس حريري ضخم وكان شال عمامته من أغلى
أنواع الحرائر وكان قفطانة مزركشاً بالذهب وقد اطل من تحته
مقبض سيف طويل مقوس الحد ، مرصع بالجواهر . فكان الرجل
مثال العظمة والروعة والتأنق والابهة

فقال نفيسة وقد مر الموكب أمام عينها « من يكون هذا
الرجل ؟ » . فقال الغلام بلهجة الاستهزاء والاستخفاف
« انه افرنكى . لعنة الله على هؤلاء الافرنك ' »

فصاحت به الصبية خائفة « صه . ولكن الرجل الذى كان
فوق صهوة جواده كان قد سمع الكلمات فالتفت ناحيتهما وبدأت
للحال على محياه ابتسامة السرور والرضى والتسامح .

فرفع الغلام اليه البصر غير وحل ولا مكترث وللحال تلاقت
النظرات قبل أن يغادر النارس الحارة

فقال نفيسة « بلوح لى انه قد سمعك يا عبد الله . وقد
خشيت أن يؤمر بك فتضرب وتساط »

فأجاب الغلام « كلا . لم يكن هذا منظرأ من مثله . فإنه
مسلم موحد بالله ولو أنه من الفرنجة . فقد سبق لى أن رأيته في
بولاق مرة من المرات فهو يشتغل هناك مفتشاً على العمال الذين
يعملون في الاسطول الذى يريد مراد بك انشاؤه ، وهم يقولون
أن هذا الرجل ذو حظوة كبيرة لدى البك . وقد سمعت المشايخ

يتجدثون عنه ذات يوم ، فمن قائل أنه لم يعتنق الاسلام الا لغاياته وما ربه الشخصية ، ولكن انبرى لهم الشيخ فضل كعادته يقول « حسبكم أيها العلماء حسبكم . فإنه اذا كان قد قال أنه مؤمن يعتقد بالاسلام فقد وجب علينا أن نصدق بكلماته ونأخذ بألفاظه اذ لا يعلم اسرار القلوب غير الله المطاع على الغيب الرحمن الرحيم ولكنك تعلم يا نفيسة ان شيخنا الله وقد احس اد استعان بى على رعاية شؤونه ونفقد احواله ، فهو طفل غفل من التجربة وان كان قد استظهر مئات الكتب والمؤلفات . ولكن هيا بنا والا تأخرنا عن الفرحة »

ولكن لم يلحظ عبد الله ولا لحت نفيسة اخته امرأة كانت تتسمع عابها وهى منتقمة اليشمك ومشملة فى « حبرة » وهى وافقة تراقبها فى صمت . وعيناها تتبعان وهى فى مكانها على ناصبة عطفة فى ذلك الدرب الضيق ذلك الفارس الافرنكى الذى ارتد عن مسيحيتته ، ولم يكن هذا الجمع القليل المدد الذى لا يتعدى هذا الفارس الفخم السنى المركب والصبية واللام وتلك المرأة المنتقبة بدرى أن القدر جمع بعضهم بعضاً ، فى هذا المكان لأن بينهم صلة وثيقة سيكشف المستقبل عنها الستار وبلغ الاخوان أخيراً حديقة الازبكية المتسعة الرحبية فوجدا المكان غاصاً بالجموع المزدحمة المحتشدة للفرجة فصاح عبدالله بأخته « امسكى بقفطانى ولا تدعيه يفلت

يا نفيسة من يدك واتبعينى . هيا بنا تقرب ما استطعنا من بيت
البكرى . » وانطلقا يصطدمان بالجمهور ويتزاحمان ويقتحمان
طريقهما فى وسط الزحام ، غير مكترئين بالشتائم ، والجذب
والدفع ، واللعنات ، وكلمات الاحتجاج التى كان الوقوف يصيحون
بها فى وجهيهما حتى وصلا أخيراً الى مكان مكشوف يبعد عن
دار البكرى . وكانت الجموع تتزاحم وتتصادم وتتدافع للفرجة
على موكب من الدراويش قادم من بعيد ، وفى طليعته شيخ على
ظهر جواد . وكان هذا الشيخ هماً متقدماً السن ، طويل اللحية ،
فى ثوب فضفاض ، وعلى رأسه عمامة خضراء ضخمة الحجم ،
وقد لفها بشريط من المسلمين الابيض

وكانت الدراويش تنقر الطارات وهى تهتز يمنة ويسرة
ويصيحون بأعلى أصواتهم « الله . الله »

فصرخ عبد الله يلفت نظر أخته نفيسة . وقد علت حميته ،
وهاج هائجه « انظرى يا نفيسة . هؤلاء هم الدراويش السعدية
وشيوخهم راكب فى رأسهم . انظرى هاهم على وشك أن ينبطحوا
على الارض » وكذلك انفلت الجمع من بعضهم البعض وركد
خمسون منهم على الارض ووجوههم الى الثرى ، وهم منبطحون
على صدورهم ، متلاصقون حتى لا تكاد ترى فرجة بين البدن والبدن .
وصاح عبد الله ثانية « انظرى الى هذا الرجل الضخم الجثة
المبطان يا نفيسة . ألا ترى انه « سيكش » ويتعجن فى بعضه عند

ما تمر سنابك الخيل فوق ظهره . والله ان هذا لشيء عجيب !
 ولم يلبث أن ساد السكون على المشاهدين ، وتولى الوجوه
 وجوه الجماهير المحتشدة لرؤية هذا المنظر الرهيب . ولم يكن
 يبدد هذا السكون غير صيحات الدراويش ينادون « الله .
 الله ! » ودقات الطبول وهي تكاد تشبه انتحابات النسوة
 والجواد يمشى بالشيخ على صهوته ، والغلام يقوده من أعنته
 ومضى الجواد وسائمه يدفعه الى السير فوق أجسام الرقود
 حلى الارض . وكلما اندفع مرة تراخى وتقهر غير مصدق انه قد
 أريد به أن يمر فوق هذا الصعيد من اللحم والدم . ولكن لم
 تلبث أن أمسكت بالأعنة أيد قوية عنيدة فدفعت به من امام
 ومن خلف . فأذعن الجواد وانطلق يضع قوائمه فوق أقرب
 بدن منبطح أمامه ، ولما هدأت ثائثرته . اندفع يسير فوق هذا
 البساط الأدمى . ويطأ هذا اللحم الحى

وفى تلك اللحظة صاح الغلام « ألا انظرى يا نفيسة الى هذا
 الرجل الضخم الجثة انه يئن من الألم . اننى أقسم ان هؤلاء الغلاظ
 الابدان « التخان » جميعاً جببناء مخلوعى الافئدة »

فتمتمت الصبية تقول وهى مشيخة بوجهها عن هذا المنظر
 الدموى الرهيب « ولكنه مؤلم يا عبد الله . انهم قد تحطموا
 تحت حوافر هذا الجواد وتكسرت أضلاعهم وسيموتون ولا
 ريب . فقال الغلام « يموتون . أيموت مثل هؤلاء . ألم يقولوا

كلمات السحر ثم ألم يلبسوا الاحاحى والرقى والتائم . انظري .
 ها هم قد نهضوا من مرقدهم هذا . الا هذا الرجل « المفل »
 الغليظ الجثمان . لقد زهقت روحه ولا شك . واني لو ائق انه
 نسي أن يقول تلك الكلمات التي تقال عادة في هذا المقام للنجاة
 من الألم والعذاب . ألا انظري . لقد انتهى كل شيء على أحسن
 حال . والله انني لمسرور اد جئت »

فقلت الصبية « ولكن انظر . ان هذا الرجل لا يزال راقداً
 لا يستطيع وقوفاً » . فأجاب الغلام ضاحكاً « مباحش . انه هو
 الذي أذن . لقد كان أولى به أن يعد نفسه لهذا الموقف خيراً
 من هذا وكان عليه أن يحسن تلاوة الكلمات . ولكن انظري .
 ها هو الشيخ يسير محماده نحو ناحية البيت وقد آن لما أن نعود
 من حيث أتينا . فان الحر قد اشتد والغبار قد نار في الهواء .
 انظري الى عمامتي . لقد اتسخت واغبرت . وقفطاني قد تمزق
 أيضاً ولكن لا بأس فقد رأيت « الدوسه » وانه لم يضر جميل وان
 كان شيخنا لا يقره ولا يرتفضيه . ومن يدري لعل يوماً سأرقد
 هذه الرقدة ليمر الجواد فوق مدني »

فقلت له أخته متذمرة « انك يا عبد الله لا ترى شيئاً حتى
 تود أن تترك فيه » . وأجاب الغلام ضاحكاً « نعم . الا صناعة
 النحاس . ولكن هيا بنا فقد تأخرنا فان خديجة ستغضب
 وسترتدك بزفة طويلة عريضة وستسمعين منها مالا يسرك »

فقال نفيسة « وسيظل الشيخ فدهشة لا يدري أين ذهب
وسيرتقبك والعصا في يده »

فأجاب الغلام « كلا . ما من له يقرع لمثل العصا . حسبى أن
أقول له عند عودتى الى المنزل « لقد كنت أنوى العودة سريعاً
يا أبى ولكنى خفت أن أزجرك وأعطلك عن عملي . فتمكنت
قليلاً » واذ ذاك سيحيب « الحمد لله يا بنى اد وهبنى غلاماً
مثلك كثير التفكير . حكماً عاقلاً »

فضحكت الصبية وقالت « له الله . ان شيخك هذا رجل
أبله على نباته » . ومضى يسرعان الخطى فى الحارات والأزقة
الضيقة وكانت اذ ذاك مهجورة قد تركها الناس لمشاهدة الاحتفال
ورؤية الدوسة فى « الازكية » ولم يتملا فى سرهما حتى اقتربا
من الحى الذى كان يسكنه الشيخ . ولكنهما ما كادا يصلان الى
الطريق الذى ينحدر من القلعة حتى سمعا أصوات حوافر خيل
قادمة من بعيد . ولم يلبث أن شهدا فارسين على جواديهما
يدنوان صوبهما وهما سائران خفا

وكان فى المقدمة ، على جواد أسود ، قى لم تنبت بعد لحيته ،
ولا يناهز بعد الربيع الثامن عشر وقد اسودت ملامح وجهه من
أثر الشمس وقد وضع فوق رأسه خوذة من الصلب وكان يلبس
صداراً من الحرير مزركشاً بالقصب وفقطاناً فضفاضاً اشتمل به
بدنه النحيل حتى تدلت حاشيته وتراخت أذياله على جنبى جواده

وقد بدا من تحت شملته غطاءان فخيان لغدارتين وقد تدلى
السيف المقوس بجانبه ، وكان يلوح عليه أنه شخص ذو مكانة
في خدمة أحد البكوات .

وكان رفيقه ولا ريب يستحق أن يستلفت الانظار ، لا من
أجل روعة ثوبه ، ولخامة مظهره ، بل لقوامه الطوال وعوده
المشذب وقامته المتعالية .

وكان يبدو عليه أنه من أصل جركسى أبيض اللون ، ذهبى
اللحية، وكانت تنقصه خفة صاحبه وتلبيه وسرعة حركاته ولكن
لم يكن فى وسع من ينظر اليه أن لا يعود فيرمقه بنظرات الاعجاب
والاكبار والمهابة . وكان يمشى وراء الفتى رفيقه على جواد
ضخم يكاد يزحم بعرضه الدرب الضيق

ولم يجد الغلام وأخته من حيلة لافساح الطريق لمرور الفارسين
الا أن يقفا مستندين الى جدار أحد البيوت ، ولكن ما كاد
الفارسان يدنوان منهما حتى انطلقت نفيسة بوحي الغريزة تريد
الالتجاء الى باب هناك لكي تمتصم به وكاد الجواد الأول
يدهمها لولا أن الفارس أسرع الى اجتذاب عنان جواده فتراخى
وتقهقر قليلا . وللحال أرخى الفتى يده مستضحكا فالتقط الصبية
ورفعها بخفة الى السرج وهى تتلوى وتتمنع وتريد أن تفلت من
قبضة يده كالقطة الثائرة الغاضبة

فضحك الفتى ثانيا وقال « غنيمة لطيفة »

فصاح به رفيقه « أتركها تنزل يا أحمق فاننا لا نريد أن
 نثير جميع أهل الحى علينا لأساءة احدى نساءهم »
 فأجابه الآخر « أتركها ! يا للعجب من أمرك . أتظن أنني
 تاركها قبل أن أظفر منها بقبلة . ان مثل هذه المفاتن لا ينبغي أن
 تختفى وراء البرقع »

واذ ذاك سمع الفتى صوتاً أجش قد امتلأت نبراته غضباً
 وحنقاً يصيح به « دعها تنزل »

فالتفت المملوكان مندهشين وكان عبد الله اذ ذاك قد خطا
 الى بهرة الطريق ووقف محمر الوجه منتفخ الاوداج أمام الفتى
 وهو يصيح به « اتركها يا اسل الخنا ! »
 فضحك الفارس الشاب وقال « اسمع يا سيدى . ان هذا
 الغراب يريد شجاراً »

فصرخ الغلام وهو فى أشد الاهتياج « اذن ترجل عن
 جوادك لأريك اذا كنت غراباً ام لا . »

قال ذلك ووثب الى زمام الجواد فأمسك به
 ولكن الفتى ظل يضحك ملتفتاً الى صاحبه وقد أعمل
 المهماز فى بدن جواده ، فوثب الجواد وقفز ووقف على قوائمه .
 وظل عبد الله ممسكاً بالعنان فرمحه الجواد وسقط على الارض وقد
 ضربه الجواد فوق رأسه .

فصاح الفارس الآخر على الفتى قائلاً « ماذا فعلت يا عثمان .

ماذا فعلت . وما هذا الحق الذى أتيت ؟ »

فلم يكن من الفتى اذ ذاك الا أن ترك الصبية تفلت من يده
وقد بدا فى وجهه علام الجسد والسكون . واخفى أثر المزاح
والضحك وترحل مسرعا عن صهوة جواده

فصرخت الصبية فى وجهه وقد انحنى فوق أخيها غاضبة
حائقة « أتركه واذهب فى سبيلك »

فقال الفتى وقد أنصر الجرح الذى كان يدمى فى رأس الصبي
« ما أردت به سوءاً يعلم الله ولا قصدت شراً . ففى حائبا .
يا سلام . لقد أصيب بجرح كبير . أين تسكنان يا صبية ؟ »

فأجابت الصبية « ان أخى يسكن مع الشيخ فضل فى بيت
غير بعيد من هذا المكان »

فرفع الفتى عبدالله عن الارض وأمرها أن تمشى امامه قائلا
« هيا اذن معنا حتى أوصله الى البيت »

فمشى الصبية فى عجلة تجتاز حارة فخارة فزقاقا والفتى فى أثرها
يحمل الغلام بين ذراعيه وفى أثرها المملوك الآخر الطويل القامة
فوق جواده . وجواد صاحبه يسير مقودا وهو ممسك بعنانه ،
حتى بلغوا أخيراً الشارع الذى يسكن فيه الشيخ فضل

واذ ذاك أفاق عبدالله من غشيته فتعامل وجعل يصرخ طالبا
انزاله الى الارض وتركه يمشى بمفرده

وراح يسأل عن قلق وجزع « أين نفيسة . أين أختى ! »

فعدت اليه فكانت بجانبه في خطف البرق وهى تصبح « الحمد لله لقد كنت أخشى أن تكون قد قتلت يا أخى »

فقال الغلام « ألا امسحى الدم من عيني ووجهي اذ لا ينبغي أن يرانى الشيخ على هذه الصورة . فلم يكن ذلك الا من الجواد والا لكانت القيتة على الارض »

فانبرى المملوك الكبير يقول وهو يلاطفه ويلبس بيده ظهره معجباً « لقد كان ينبغي ان يكون مملوكا . ولكن هلم بنا . ينبغي أن نصل بك الى البيت حتى نطمئن عليك »

وكان منظر الشيخ فضل اذ نىء بالنبأ وتبين ما حدث لغلامه . مؤلماً للغاية وكان يريد أن يبعث في طلب أمهر اطباء القاهرة . ولكن الفتى الفارس طلب اليه أن يأتى بقدر من الماء . ثم حمل الفتى الى داخل البيت . فغسل له وجهه . وأزال أثر الدم المتجمد عليه . واقتطع قطعة من ثوبه وضمد الجرح بمهارة عجيبة وهو يقول « نحن الممالك قد اعتدنا رؤية الجراح ولبس جرحه خطيرا بل لا يكاد يمضى أسبوع واحد عليه حتى يندمل »

فأجاب الشيخ بلهجة الحزين المتألم « ان شاء الله » ولم يبق المملوكين من حاجة الى الانتظار ولكنهما لم ينصرفا بل وقفا يجيئان البصر في الحجرة وما حولها وهما في دهشة وفضول اذ شهدا اكدا سا مكدسة من الاوراق والمخطوطات وقد انتثرت في زوايا الحجرة تدل على حياة وعمل جسد مختلفين عن حياتهما

وعملها ، واذ ذاك التفت الفقى مستحييا وقال « نحن من ممالك
مراد بك فأنا عثمان السلحدار وهذا صديقى حسن الاكبر وهذا
الحادث الأليم الذى وقع للصبي كان بسببى فهل ثمت سبيل
لاصلاح ما أفسدت ، ولتدارك ما احدثت »

وبعد أن أتم هذه الكلمات ، تحسس السلسلة الذهبية التى
كانت حول عنقه . فأجاب الشيخ بوقار وجلال ورزانة وسكون
« لقد اعترفت بخطئك يابنى ولم ترد أن تتحلل من عملك والله
يتقبل التوبة فهل لعبد مثلى من عبیده أن يطلب اكثر مما يتقبل
مولاه ، ويسألك فوق ما يسأل الخالق ؟ »

وسقطت السلسلة التى كان الفقى يتحسسها الى صدره .
فعاد الشيخ يقول « انى لآسف لأن خادمى خرج من البيت
فى هذا المساء والا ما كنت أدعكما تنصرفان قبل أن اؤدى
لكما من حق الضيافة مايجب على قلة الحال . وضيق المكنة »
فأجاب الفقى برزانة « سنعود مرة أخرى لنحظى بالسرور
وشرف الزيارة » . فأجاب الشيخ « مرحباً وأهلاً بكما وسهلاً
لانه ليس من خلقكم معاشر الممالك الاعتراف بالخطأ . والاقرار
بالزلل . والقيام بمثل ماقت به اليوم . بعد وقوع الحادث
وحدوثه . وقد كادت الثرى تيبس بين الممالك واهل البلد .
وتنقطع بعض صلوات المودة والوئام »

فأجاب الفقى متأدبا « لعلنا سنعرف بعضنا بعضا ونتحاب

ونتواد فى المستقبل يا أبى »

فالتفت الشيخ الى عبدالله وقال « أرجو أن تشفى من جرحك سريعاً يا بنى . لأننا سنلتقى بهما مرة أخرى قريباً ان شاء الله » ولما كان الفارسان فى طريقتهما يجتازان دروب الفسطاط الى حيث كانت « المعدية » فى انتظارهما ، بدأ الفقى الحديث ، وكان قد ظل صامتاً طول الطريق ، على غير عادته ، اذ كان كثير الكلام قال « والله يا صديقى حسن ما كنت أظن أهل القاهرة قوما بهذه الاخلاق الكريمة »

فضحك صاحبه وأجاب « انك لاتزال تفكر فى الصبية أيها الاحمق »

فقال الفقى بلا حياء « هذا صحيح . ألم تر عينيهما ، والوردة الحمراء فوق كل وجنة من وجنتيهما . ولكن مع ذلك أردت أيضاً بكلمتى تلك ذلك الغلام فقد أبدى من الاستعداد الى القتال ما يبدو من النسرا أكثر مما يلوح على الغراب اذ وصفته ذلك الوصف . وقد استخف بجرح كان كثيرون من غلمان المماليك لو اصابوا بمثله سيروحون باكين متألمين ناشجين . ثم ألم تشهد الشيخ وما كان من ابائه ورفضه السلسلة والادب الذى تلقانا به والخفاوة وكرم الاخلاق . والله لقد وددت أن أرى يده احتراماً واكباراً . أنا الذى كنت الى هذه الساعة اعد أهل القاهرة جمعاً من الخمازير » .

فأجاب الآخر وهو يلعب بأصبعه في لحيته « لقد سحرتك
الصبية ولا عجب » ولم يكن يدري هذان الفارسان ، وهما يسيران
عائدين الى معسكر الجيزة بقلب مغمم بالسروور ما كان يجنبه القدر
من الحوادث التي سترد بعد في هذه القصة . وما سيكون من
هذا الحادث الذي وقع لهما مع الغلام وشقيقته

وفي بيت الشيخ فضل في تلك اللحظة كانت نفيسة جالسة
واجمة حزينة في ألم وحسرة تقول لاختها برنة أسي شديد
« لقد كان بهم الفتى أن يعطيك السلسلة يا عبد الله لولا رفض
الشيخ وابائه . »

فقال اخوها « لعنة الله عليه وعلى سلسلته »

فعادت نفيسة تقول « والله لقد وقع في قلبي منظره . ألم
تشهد ثوبه وزبه الفخم . ثم الرجل الآخر الذي اكبر منه سنا
ما اظن مراد بك الفخم منه منظرأ وروعة وحسن سمت . لقد كان
يلوح علمه أنه سلطان لا مملوك »

فأجابها الغلام « ربما ولكن اظن خديجة امرأة عمنا قد
اصابت اذ قالت أنه قد آن الاوان لك لتلبسى البرقع وتختبئ
في البيت . »

الفصل السابع

المسلم الجديد

لقد مضى من العالم ستيفن هيلس وخلق بَدَلَه اسماعيل افندى . فنقص بذلك عددالمسيحيين فى المدينة واحدا . وزاد عدد المسلمين عليهم فرداً جديداً

وقد انصرفت خمسة اعوام على تاريخ حل الشركة التى كانت بينه وبين الشيخ ليفبر ، فكانت هذه السنوات مفعمة بالحوادث فما كان ستيفن هيلس فى أيام محنته وفقره ورقة حاله يطعم فى نواله ، ويمد اليه عينه لبلوغه . مضى اسماعيل افندى الجديد ينعم به ويتمتع بألوانه ، ويجده سهل المنال موفوراً

وكانت كل تلك النعمة الجزاء الاوفى لهذه الردة عن المسيحية التى لم تفلح فيها ضراعات زوجته وتوسلات شريكه .

ففى غد اليوم الذى كشف هيلس لزوجته عن نيته وأنبأها بعزمه الاخير ، جاء الشيخ ليفبر مهرولا مسرعا الى بولاق ، برسالة معجلة من مرغريت ، فاقبل على صديقه وشريكه والدمع يجول فى عينيه . ومضى يتوسل اليه أن يطرح الفكرة من ذهنه ويطرد شبحها الخيف من مخيلته . وتمادى فى اقناعه حتى عرض عليه أن يكون شريكه بالنصف فى متجره وشرح له احلامه

الذهبية في المستقبل . ومضى يقول له « اتوسل اليك ياسيدى
أن لا تتخلي عن جنسيتك ودينك . نعم . التمس اليك التماسا
أن لا تقصد روحك وتحسر نفسك المطمئنة »

فذر الآخر واجاب « ومن الذى قال اننى بذلك سأتحلى
عن جنسيتى ؟ » . فقال مسيو حول مستيئسا « الست تريد أن
تكون مسلما ؟ »

فأجابه ستيفن وهو فى هدوئه الطبيعى « هذا موضوع
آخر . ولكن لا فائدة من الكلام يامسيو جول فاست أريد
أن ادع فكرة طائشة كهذه تقف فى سبيل مستقبلى فقد فكرت
واعملت رأيي . وقلبت الامر وادرتة على جميع وجوهه »

فقال ليفير « ولكن زوجتك . ماذا سيكون مصيرها ؟ »
فاضطرب فؤاد ستيفن ورعدت فرائضه وقال جازعا « آه .
مرغريت . لست استطيع أن افعل من اجابها شيئا . اننى اريد
منها أن تعود الى بلادنا ولكنها ترفض وتأتى السفر . وتقول
انها قد عازمت على البقاء فى مصر والعمل لكسب قوتها فى أية
مهنة ما لانها لا تريد أن تقبل منى قرشا واحداً من كسب تعده
حراما ورمح تراه آثما . فهل سمعت قبل الان بحماسة كهذه ؟ »
فرفه الفرنسى الشيخ ذراعيه وقد هاله ما سمع . وراح
يقول ضارعا :

« سيدى . صديقى . اننى أتضرع اليك »

فصاح به الآخر وقد تفد صره « كفى . لست أريد أن تؤلمنى
أكثر مما آلمتنى وضايقتنى . لقد انتويت نيتى ولن أرحع عما
اعتزمت . مهما كانت النتائج »

فركب جول ليفبر دابته وعاد الى القاهرة وهو أشد حزناً
مما لو سمع أن حانوته قد التهمته النيران فلم تبق على شىء فيه
وعاد الى بيت مرغريت بعد أيام ثلاثة من ذلك التاريخ وقد
علم شدة اصرارها على أن تشتغل فى أى عمل فى الحى الافرنكى
لتقتات من اجرتة . وكان مجيئه ليتوسل اليها أن تقبل العمل فى
حانوته وتمسك حساب المتجر ، متشفعاً لذلك بأنه لا يجيد 'مسك
الدفاتر ، ولا يحسن الحساب . وصناعة الارقام . ولا يثق بالكتابة
الاقباط . وانها اذا قبلت هذا الاقتراح الذى عرضه عليها اعطاها
ثلث الايراد الذى كان يتقاضاه زوجها

فتقبلت مرغريت العمل بسرور ، اذ لم تجد البحث عن عمل
آخر ذلولاً سهلاً قريب المنال . ولو انها رفضت تناول الثلث ،
ولم تقبل غير المرتب الذى كان جول ليفبر سيدفعه لو أنه استعان
بكاتب قبضى .

وكذلك عادت مرغريت الى دارها القديمة فى حى الافرنك ،
واستخدمت جارية من السودانيات لعمل البيت
ومضت تلك الاعوام الخمسة فلم تقع عين ستيفن على زوجته
فقد اختفت من حياته بتاتاً .

ولكنه كان يلقي جول صدفة في الطريق ، فيجترىء على أن يسأله مرة او مرتين قائلاً « ومدام كيف حالها . في خير حال كما أعتقد » .

فكان جول يجيبه : « نعم . في أحسن حال . » ثم يتمهل قليلاً ويعود يقول له بلهجة المتلهف الظامى : « الديك ما تبكلفنى بمحمله اليها ؟ »

وكان ستيفن جالساً في مساء يوم من الايام يستريح من العناء ويروج عن نفسه الهيم ، في حديقة منزله ببولاق واذا ذاك دخل عليه الخادم فسلم باحترام وقال « قد حضر مفتش الترسيخانة لزيارتك يا سيدى »

فأجابه ستيفن « طيب . قل للمفتش يتفضل هنا وجهاز «شبك» آخر واحضر القهوة »

فانصرف الخادم . وللحال حضر رجل قصير القامة ضخيم البدن في ثوب فخيم . وعلى رأسه عمامة حمراء . وهو منتعل نعلا كالمركوب الأصفر ، وقد تمنطق بحزام من الشاش ، وتدلى سيفه الى جنبه .

وكان يعرف الطريق ، ومنافس الحديقة ، فجاء الى المكان الذى كان فيه ستيفن جالساً . ثابت الخطى ، مما يدل على انه كان قد الف المكان وزاره كثيراً وغشيه عدة مرات من قبل فابتدره ستيفن قائلاً « آه . ها أنت قد حضرت يا افندى .

لقد كنت أخشى أن يمنعك الحر من الحضور ، ماذا تشرب يا صاح
 أنبيذاً تريد أم قهوة أم كمسلم تقى ورع تفضل الماء القراح على
 أى شراب آخر ، فصاح الزائر قائلاً : « في ذمة الشيطان هذا
 الماء القراح . اننى أشربه ولا أكاد أسيغه ولا أبل به ريقى
 إلا عند الضرورة القصوى وعند ما أؤدى الصلوات في الجامع
 اذ في ساعات الوضوء وأنا أتمضمض بالماء تسقط قطرات منه في
 حلقى فتتهبط الى بطني » . فضحك رب البيت والتفت الى الخادم
 وأمره أن يحضر الزجاجاة وكانت مغطاة بقماش مبلول ندى بالماء
 تحت رخامة هناك . فقال الضيف وهو يتلمظ ويمسح شفثيه
 وقد جرى لعابه « ليس هناك غنى عن التعرف بهما بالجرمك
 للحصول على شراب طيب وخمرة خالصة لا غش فيها ولا بد من
 القدوم من الحين الى الحين عليك للتمتع بمثل هذه النعمة . ولكن
 في الرسالة لانجد شيئاً من هذا » التأريط »

فضحك ستيمن وقال وهو يشير الى أساحة الضيف « ولهذا
 تحمل دائماً شيئاً يدل على ترسانتك وصناعتك »
 فأجابه هذا « ينبغي للانسان اتخاذ شيء من المظاهر .
 وهذا السيف الذى ترانى أتقلده انما أخرج به لأميز نفسى عن
 العامة . انه علم على الوظيفة « وشارة المنصب »

فابتسم الانكليزى اذ كان يعلم عن صاحبه حبه للمظاهر ،
 وولوعه بالرأس والابهة . ولم يلبث أن صاح الرجل البدن وقد

نهض من مجلسه فخرس العمامة عن رأسه الاصلع « ياسلام . الحر شديد . اننى لا أرضى أن أذهب الى القاهرة الليلة ولو أعطيت خمسة اكياس من الذهب . تصور ليلة كهذه تقضيها فى بيت ضيق فى حى الافرنك . أليست الجحيم أهون »

فهز ستيفن كتفيه وعاد الضيف يقول « لا ادرى كيف يطيق الشيخ ليفبر السكن هناك . فى ذمة الشيطان . اما هذا الرجل يكرهنى . ويحقد علىّ حقداً شخصياً لاننى اصبحت مسلماً . لقد عرفته قبل حضورك الى مصر بعدة سنوات . ويخيل الىّ انه لا بد قد تصور ان لى يداً فى اعتناقك الاسلام »

فقال ستيفن « ومع كل هذا لا يزال جول رجلاً طيباً »
فعاد مكسيم ليجران يسأله « واظن ان مدام لا تزال تمسك له حسابات الدكان » . فبدأ على ستيفن ظل استياء واجاب موجزاً « نعم . اظن ذلك »

فقال رفيقه وحاول بصعوبة أن يترجم فى مجلسه « ان النساء مخلوقات عجيبة غريبة الاطوار . ألم يعجز سليمان الحكيم وكان له منهن ستمائة عن فهم طبائعهن وها أنا الذى تزوجت ستمائة « نصف ستمائة » - وراء بعض - لا أزال أجد الصعوبة والمشقة فى تفهمهن . خذ مدام هيلس زوجتك مثلاً : انها تفضل أن تشتغل فى الحسابات والارقام وتسكن الحى الافرنكى فى تلك المدينة القدرة على العيش هنا فى الترف والراحة الرفاهية . ولم

كل ذلك . لا لشيء غير ان زوجها قد أضحى يولى وجهه شطر مكة والبيت الحرام بدلا من ان يولى وجهه نحو محل آخر لا يزيد عن ذاك فقراً وقفراً ، فى سوربة ، والله هذا شىء لا استطيع ان افهمه أو ادرك سره ! »

فقال ستيفن « ان نظر النساء للامور يختلف عن نظرنا نحن معاشر الرجال . يا عزيزى مكسيم . والدين لديهن ليس كما هو لدينا واسطة لاغراضنا ووسيلة لغاياتنا »

فأجابه صاحبه وهو يحاوره « كلا . كلا . ليس الامر كذلك . نهن لا يغضبن من العقيدة فى حد ذاتها فلو انك يا صاح ارتددت ملاحداً ، او دخلت فى دين البراهمة ، لما احتفلت زى بك ولا كترت البتة بردتك . ولكن أن تمقلب مسالما ! وتدخل فى دين يسمح بأن يكون للرجل منا أربع زوجات . يا للداهية عليهن . ذلك احط دين فى العالم تتصوره المرأة المسيحية . . . ! اذ كيف تحتفل ان تنال من الرجل ربع الحصاة التى كانت ستكون لها وحدها . هذه هى نقطة الخلاف يا عزيزى ستيفن ! »

فهز رب البيت ثانية كتفيه لأنه لم يشأ أن يسترسل فى هذا الموضوع فان فراق زوجته له لاعتناقه ديناً غير دينها ظل منذ وقوعه صدر ألم وحزن عميق لديه وأشد من ذلك أنها آثرت ان تشتغل للحصول على قوتها كحاسبة فى حانوت تاجر كمسيو جول يفبر على أن تظفر منه بمال وفير يغنيها عن الكدح فى

سبيل رزقها ولئن كان مرور الزمن على ذلك الحادث قد خفف من حدة ألمه ، وجعله لا يكثرث ولا يحتمل بما كان من زوخته فقد كان يكره أن يسمع اسمها مترددا على شفتي هذا الفرنسي المرتد عن دينه قبله

ومضى مكسيم ليجران أو فرج افندى فى حديثه مستفيضاً يقول « نعم . يا صاح . ان هذا الدين لطيف للرحال اللهم الا النهى عن الخمر وازوم الصوم فى رمضان وان كان يمكن للانسان أن يهرب من المريضتين بأن فزع الى الطبيب فيطلب اليه أن يصف له نوعا لطيفا من الشراب يسد مسد الخمر أو يكتب له شهادة تثبت أنه مريض فيتحلل من الصوم عملا بقوله تعالى « فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » وأما مسألة عدة الايام الأخر فتبقى غير معمول بها . أغنى تؤجل من وقت الى آخر حتى تنسى . نعم . اننى أردد ما قلت واكرر أنه لا يكون دين كهذا ثقيلًا فاسداً سيئاً ، وهو يبيح للرجل أن يتخلص من زوجته الشريرة المعاكسة المشاكسة بمجرد قوله لها « طلقتك ثلاثا » ولم يكن النبى بالرجل الابله ، بل كان احكم المشرعين . وفدقلتها خمس مرات فى خمسة عشر عاما متوالية وأخشى أن اقولها اليوم للمرة السادسة فأن الست « بتاعى » قد اصبحت ثقيلة فى هذه الايام ناشزاً سيئة المعاملة وقد كان بودى أن اقول هذه الكلمة منذ زمن بعيد لولا أنها غنية ولديها دخل كبير ، ولا احب أن

تقلت ثروتها من يدي وفضلا عن ذلك قد رزقت منها بولد ،
فتغيرت منذ ذلك العهد وجهة نظري الى الموضوع لأنني أحب
هذا الولد الملعون اكثر من أى عزيز فى مصر كلها »

فقال ستيفن « وى فرنسا أيضاً ؟ » . فتجههم صاحبه وقطب
جبينه وقال متجهما « اتقول فرنسا . ان ذكر اسمها يقف فى
حلقى . نعم لا انكر أننى ولدت فى فرنسا ولكن ماذا اجتنيبت من
فرنسا وفرنسية مولدى . انهم يتكلمون هناك عن العدل ويتغنون
بكلمة الانصاف ثم لم ألق فى وطنى ذاك غير عيشة أشبه فى ألمها
وعذابها بعيشة الجحيم . فقد تلفظت وأنا صغير السن حدث طائش
بكلمة عفووا دون قصد ، كلمة حمقاء خرجت من فم فتى نحت تأثير
الشراب ، فكانت عقوبتي أقسى العقوبات . اذ بدأت منذ ذلك
العهد عيشة الاضطهاد والالام . وقد سافقتى تلك المعاملة «العادلة»
الى الاجرام ثم الى الحكم على بالاعدام . ولم أجدى وسعى غير
الهرب الى مصر . ولكنى ذكرت لك القصة بخذافيرها قبل
الآن . ولا حاجة الى ترديدها الآن . ماذا يهمنى الآن . أنا الآن
مصرى ومسلم فح من رأسى الى اخمص قدمى . وهنا أقمت وهنا
سأقيم حتى الموت . راضيا بما يقسم لى يا صاح . ولكن صدقنى
يا عزيزى ستيفن . ان يهدألى بال ، ولن تطمئن نفسى حتى اتمكن
من الانتقام من فرنسا بلدى ولو مرة واحدة . وسيكون ذلك
بأذن الله . »

وقد فاه بهذه الكلمات الاحيرة بحمية وتشنج حتى لم يسع
جليسه الا أن يشيح عنه بوجهه ، كأنما يولى وجهه عن شيء
قبيح يؤلم النظر . قال ستيفن « ومن الامور العجيبة أن فرنسا
قد بدأت تهتم بهذه البلاد اهتماما شديداً ففى خلال الاسابيع
الاخيرة رأيت اكثر من ثلاثة فرنسويين قد جاؤوا الى بولاق
من الاسكندرية وهم يقولون أنهم من السياح والمكتشفين الرحالة
ومن رواد الآثار القديمة ولكن رجلا منهم كان يعرف شيئاً
كثيراً من الفنون البحرية وقد سمعته يقول لصديق معه اشياء
لا يمكن لغيره أن يقول مثلها . اما لم يكن ملها بشيء كثير من فن
انشاء الاساطيل والعمائر البحرية »

فتحفظ الا حري محاسنه قلتما متضايقا واجاب « قد يكون
ذلك محض اتفاق . وليس وراء ذلك شيء البتة »
فعاد رفيقه يقول « قد يصح ماقلت . ولكن لم افتأ منذ
ذلك الحين اتساءل عن عجب وحيرة كيف ان فرنسا لم تقم بغارة
على القطر المصرى حتى اليوم لتقطع على الانكليز طريق التجارة مع
الهند . اننى اتذكر ان هذا المشروع كان قد رسمه الوزير كارنو
قبل الآن » . فلم يحرجوا ابداً اذ كان مشغولاً بخواطره
وهواجسه ولكنه لم يلبث أن تتم قائلًا « غريب أن تتذكر ذلك .
لأن مصطفى بك كان دائماً يضرب على هذه النغمة فى أحاديثه ،
ولكنه لم يكن ينظر الى هذه الفكرة بازتياع ، بل كان يتوجس

خيفة منها كما أتوجس أنا الآخر منها الشر كله لان مصطفى بك كان فرنسونا كذلك ولو أنه غادر فرنسا وهو في المهد صبي « فصاح الآخر عجباً » أتعرفه يامكسيم : لقد سمعت طرفاً من قصته فهلا سردت لي حكايته بحذافيرها »

واستوى ستيفن في مجلسه ، متشوقا لسماع تلك القصة .
فأنشأ الآخر يقول « من يدري قصته كلها . اننى أعرف منها فقط انه جاء الى مصر مع أبيه وكان أبوه على ما أذكر هارباً من موطنه فلما مات أصبح مصطفى مملوكاً ثم ارتفع على ممر الزمن فأضحى من البكوات وهو الفرنسى الوحيد الذى اصاب مثل هذه المكانة . لان تلك الحكايات الأخرى التى تسمعونها على افواه الكثيرين من ان على بك كان ايضاً من الفرز ريين وكان اسمه قبل داك لينارد . من قبيل الخرافات والاشاعات الكاذبة المملقة »
« وكان اول لقائى له عقب وصولى الى مصر ولم يكن لى نصير ولا معين ، فأكرمنى وترفق بى واحسن الى ولا يدري الا الله ما الذى بعثه على اكرامى . له الله لقد كان رجلاً مهذباً لطيفاً شجاعاً باسلاً . وكان الرجل الوحيد الذى كان يستطيع ان يجالده مراد بك بالسيف او الجريد .

» وكان الرجلان صديقين حميمين ، على احسن المودة ، حتى وقع فجأة ما فرق بينهما وذلك ما يشيعون من ان مراد وضع عينه على زوجة مصطفى وكانت اجمل نساء عصرها وافضلهن أدباً

وعفاها وطهرا واعلمك سمعت بقية القصة . وذلك ان مراداً ارسله لمحاربة اسماعيل بك فلم تكدر تمضي بضعة ايام على ذهابه حتى اغارت عصابة من رجال مراد بك على دار مصطفى في غيابه وكانت داره في الجيزة فحاولوا اختطاف زوجته وولدها ولكنها طعنت نفسها بخنجر فماتت مؤثرة الموت على العار وفقدان الشرف » فلما نعى الخبر الى مصطفى جمع حوله مماليكه وركب عائداً

الى القاهرة فلقى مراداً وهو في وسط رجاله وحاشيته وحراسه فأقسم مراد بك انه كان بريئاً من هذه القعلة ، ولم يشترك فيها ولم يأمر بها ولكن مصطفى بك رماه بالكذب في وجهه ثم لطمه على وجهه امام حاشيته وسأله النزال ، وطلبه الى الجلاّد حتى الموت فلم يرفض مراد بك ولم يخش الطلب . ولكن البكوات والمماليك حوله منعوه من منازلته ، وحكم على مصطفى بك بالاعدام » على ان الحكم مع ذلك لم ينفذ ، فقوم يقولون ان مراد

بك تداخل في الامر وحال بينه وبين الموت وقد احسن لو صح انه فعل بعد أن أتى تلك القعلة النكراء ، وخفف الحكم واستبدل باخر يقضى بتجريد مصطفى بك من رتبته والقباه وجلده بالسياط

في وسط ساحة عمومية وتفيه الى مكان قنر في بلاد الشام

» وكان من حسن حظ مراد ان تخلص منه اذ لو كان بقي

في مصر لنأزعه على لقب شيخ البلد . فقد كان رجلاً عاقلاً اديباً ذكياً ألعياً ، ولطالما سمعته يتكلم عن الموضوع الذي قات

لى عنه الساعة ، فكان لا يفتأ يقول لى « تذكر يا مكسيم كلماتى هذه فسيأتى الانكليز أو الفرنسيون يوماً من الايام الى هذه البلاد فاعمل على ان تكون مدافعك على اتم الالهبة والاستعداد لذلك اليوم » وجعل اذ يتم هذه الكلمات يضحك مازجا الجهد بالهزل . وهنا راح ستيفن يقول « وهل مدافعك حقاً على استعداد ؟ » . فصاح الاخر مسروراً « بوه ! انها الان على حالها تلك التى كانت عليها يوم كان يكلمنى ذلك الرجل منذراً موعداً لم تزد ولم تنقص ولا بد لمن يريد ان يحصل على المدافع من المال وكلمها سألت مراد مالا ضحك و اشار الى مماليكه قائلاً « هؤلاء مدافعى يافرج افندى » ولهذا ترانى اشتغل الان فى صنع البنادق لا المدافع وقد انقلبت الترسانة صنعا للسيوف والبنادق والسروج والجلود وما اليها . ولكن معلىش . فان الفرنسيين لم يحضروا بعد وقد مضى خمسة عشر عاماً على العهد الذى كان مصطفى بك يردد نبوءته ولم تتحقق الى الان ولا ادرى اين هو الان وماذا يفعل كل هذا الزمن واخشى أن يكون قضى نحبه منذ امد بعيد رحمة الله عليه فقد كان رجلاً طيباً وكان بى رؤوفا . »

قال ستيفن « واولاده . يا عزيزى مكسيم . ماذا كان من امرهم ؟ »
 فهز الاخر كتفيه وقال « لعلهم ماتوا كذلك فقد احرق بيته وكان مراد يريد الزوجة لا الاولاد وقد تحررت يومذاك عنهم

فلم اظفر بنتيجة ما . واذ ذاك سمع صوت صفير طويل متتابع من ناحية النيل فنهض ستيفن من مقعده وتطلع ناحية الصوت فرأى قاربا عند الشاطئ ، وعند الدفة قد جاس فتى من المماليك . وفى القارب جواده .

قال الفتى وقد وقف به القارب عند المرسى « هل أنت وحدك يا اسماعيل افندى ؟ »

فأجاب هذا قائلا « كلا . بل معى فرج افندى مدير الترسانة أيضا . الى أين أنت اذن وهذا الجواد . لقد كنت أظن انك ستأتى للعشاء معى الليلة » . فأجاب الفتى « لقد كانت هذه نيتى . ولكنى مسافر الى المنصورة للحاق بمراد بك ففكرت فى أن أحضر لاقول لك كلمة التوديع قبل السفر . اذ سأمكث هناك نحواً من اسبوع » . فقال ستيفن « اذن تعال لتتغشى معى عند رجوعك بالسلامة . فأجاب الفتى « طيب »

وابتعد به القارب فى عرض الهر وعاد ستيفن الى مجلسه فبادره فرج افندى بقوله « من هذا » ولم يكن قد قام من مجلسه ليرى صاحب ذلك الصوت

فأجابه ستيفن « هذا عثمان السلحدار المملوك الشاب . أظنك تعرفه ؟ » . فقال رفيقه « أتسألنى اذا كنت أعرفه . من الذى لا يعرف ظل مراد . ان هذه العلاقة التى بين هذا الشاب وبين مراد مذهشة للغاية . وكان هذا الشاب وهو ولد صغير لا يكاد

يسمى كلمة صغيرة ضد مراد بك حتى يثب على قائمها كالقطة المفترسة ولو كانت الكلمة على سبيل المزاح ، وفي تلك الليلة التي بوغت فيها مراد في القاهرة وأديت إليه ذلك الصنيع ، كان هذا الفتى الشيطان بجانبه في لحظة . حتى لقد أراد أن يعبر النيل هو ومن معه بجيادهم في وسط الموج الزاخر وحمل ينحى باللائمة على الآخرين . ويسبهم بألعن السباب . عند ما ارادوا أن ينتظروا حضور القوارب لتحملهم الى الشاطئ الآخر . ولولا ذلك الشهم العاقل الرصين حسن الاكبر بجانبه دائماً ، لوقع هذا الفتى فيما لا تحمد عاقبته

فقال ستيفن : « انهما أشبه شيء بزندان في وعاء لولا كلمة حسن ، وطيش عثمان . فاسترسل الآخر في حديثه يقول « ألم تسمع بأن عثمان هذا لم يستحي اذ جعل يطالب حسن بالنزول معه في الميدان ، فلما ضحك حسن استخفا ، انطلق عثمان يسبه ويرميه بالجن . حتى أن حسن ، وهو الحليم الساكن النفس ، لم يلبث أن غضب ، وفارقه حاميه . فصرح بأنه سيضع في الحال حداً لدعوى هذا الفتى وغروره . وفي الحال اخرج عثمان سيفين من سيوف الفرنجة فلما رآهما حسن صاح به . هذه سكاكين لقطع اللحم واستخف بهما ولم يشأ أن ينازله . ولكن الفتى صاح به « اننى سأقطع اذن بهذا السكين لحك . فهل أنت خائف من طعنة بهذا السيف » فتناول حسن سيفاً منهما . بين ضحكات

المشاهدين واما زيجهم . وظن أنه سيعلم القى النزق درسا اليا على
غروره ذاك ولكن الشيطان لعنة الله عليه راح يتحفز ويحوم
حول منافسه . والسيف يهتز فى يده . ولم يلبث ان طعنه به طعنة
نفذت فى ذراعه ويخيل الى أن عثمان تعلم فن المجادلة على الطريقة
الاوروبية عن أحد الاساتذة فيها ولكن لا يدري الا الله من هو
ذلك الاستاذ وأين مقره »

فابتسم ستيفن وقال « انه فتي ظريف ولو كان لى ابن لوددت
أن يكون على مثاله »

فضحك رفيقه واجابه « لن تكون لك هذه الفرصة يا عزيزى
مادمت ستمعيش على هذا المنوال . على الرغم من احكام دينك الجديد
فأنت اليوم تعيش عيشة « الاغاوات » فلماذا لاتزوج وقد
اخبرتني زوجتي اليوم أنها تعرف بنتا غنية وجميلة أيضاً فهي ولا
ريب توافقك . فابتسم الآخر واجاب « اشكرك ولكن مرادا
نفسه عرض على من قبل الزوج بأبنة عم له »

فقال مكسيم « وهل قبلت ؟ »

فأجاب ستيفن « يظهر أننى سأفعل »

فصاح به مكسيم « اننى اهنتك من صميم فؤادى . هذه
خطوة « هائلة » فأنى لم أر شيوخ البلد يعرضون على يوماً
بنات اعمامهم للزواج بهن ولو أنهم فعلوا لما كنت ادرى هل
اتقبل أم ارفض . لأنك تعلم أن التخلص منهن صعب . وليس

من السهل كما يتخلص الانسان بالطلاق من النساء العاديات. وعلى كل حال . اسمح لى اذن بالانصراف . فقد وجب الذهاب « فقال الاخر يستوقفه « الا تنتظر حتى موعد العشاء ؟ » فقال مكسيم « الف شكر . ولكن « مش الليلة » فأذن الولد الصغير ينتظرنى ولا يصح أن اغضبه . ليلتك سعيدة « فأجاب الاخر « سعيدة مبارك »

ومضى الفرنسى وظل الاخر فى مجلسه يفكر فيما عرضه عليه مراد بك . لقد جعل يقول لنفسه أنه قد قطع ما كان بينه وبين العالم فيما مضى . وقد اصبح مصرى صميا . ولكن لم يبق له من صلات الماضى غير زوجته . ولكن لعلها اذ تسمع بنبأ زواجه مرة أخرى بمقتضى الشريعة الاسلامية ستفادر . سر وترحل الى بلادنا . وسيقرر لها ولا ريب تفقة طيبة .

لقد بقيت هذه النقطة فقط من آثار الماضى . ولولاها لقطع كل علاقة له بالماضى البعيد



الفصل الثامن

عبد الله في يوم نزهة

اختلطت الاصوات ببعضها البعض وعلا الضجيج وارتفعت
الضوضاء . في بكرة الصباح . في الجامع الازهر . ذى السبعة
الابواب . وقد ارسلت الشمس اشعتها في رحابه وحلقاه فامتلاً
نوراً وضياء . وكان الطلاب جلوساً رباعى وزرافات وجوعاً
وهم يتلون دروسهم أو يتجودون القرآن . أو يسمعون لشروح
شيخ لهم جلس في بهرتهم يمين لهم ما غمض من دروس الفقه الاسلامى
وقد امتلاً المسجد بأربعة آلاف من الطلاب . جاء اكثرهم
من اقصى الارض . ومن كل فج عميق . حيث تسود عبادة الدين
الحنفى على قلوب الناس . بين جزائرين وتركستانيين وفرس
وافغان وعرب ونوبيين . الى اكبر جامعة دينية في العالم الاسلامى
قاطبة . فى ركن قريب عن باب المزينين . جلس شيخ وقور وحوله
حلقة من الفتيان والصبية يحملون في أيديهم صحائف مخطوطة
يقربونها من اعينهم ويتبعون شيخهم وهو يقرأ عليهم من
الصحائف التى في يده ثم يقف عن القراءة ويأخذ في الشرح
ويتوسع في التفسير . »

وكان الفتيان سكوتاً صامتين يصغون بكلياتهم الى الشيخ
اذ لم يكن من السهل أن يظفر الفتى منهم بنعمة التلمذة على الشيخ
السعدى . وكان من بين أولئك الجمع من الفتيان غلامان كانا
يستمعان الى الشيخ ويلتزمان كل ما يقوله أو يخرج من شفثيه .
وهما جالسان بجانب بعضهما البعض . وكان احد هذين الغلامين
عبد الله . وقد بلغ ما كان أقصى غاية المنى لديه . وهو أن يدرس
على هذا الشيخ . فاستخدم الشيخ فضل نفوذه حتى دفع به الى
الاستاذ ليدرس عليه .

فكان عبد الله يحضر الازهر فى الصباح للدرس . ثم ينطلق
بعد الفراغ من الحلقة لخدمة شيخه

وانه لعلى هذه الحال من الاصغاء . والشيخ أخذ فى الشرح ،
معجب به ، يتمدحه على ذكائه ويتوسم فيه النجابة والمستقبل
اذ لفت انظار الغلام شخص دخل المسجد من باب المزينين فى تلك
اللحظة . فتشاغل الصبى ونظر صوب ذلك الباب وللحال تبين
المملوك الفتى الذى وقعت له معه تلك الحادثة التى مرت فى الفصل
السابق . ولم تكد تمضى دقيقة او بعضها ، حتى تقدم المملوك
فقال بلهجة يمتزج فيها الوقار بالحياء « السلام عليك أيها الشيخ ! »
فرفع الشيخ عينه الى المتكلم وقال مندهشاً « وعليك السلام
يا بنى » . فالتفت المملوك الفتى الى عبد الله وصاح به « أكذا
لم أهتد اليك يا عبد الله بعد البحث الطويل الا فى هذا المكان .

السلام عليك يا صاح . لن يمضى وقت طويل حتى أراك تخطب فوق هذا المنبر . ولكن هلم بنا الان . فان هذا الدرس يجملنى أهرب كأنى أمام شزيمة من الفوارس الصناديد »

فأجاب عبدالله « لقد انتظرتك أمس فقد كان يوم عطلة » فقال المملوك « لقد تأخرت فى الارياف . والآن لكنت جئت كما وعدت . ولكن هيا بنا نمضى الان . فقد جئتك ببغل ليحملك ونزهة يوم فى الجيزة ستفيدك ! كثر مما تجدى عليك قراءة هذه الخطوط المشققة الملعونة »

فقال الشيخ محتجاً « ولكن الدرس يا بنى لم ينتهِ بعد » فأجاب الفتى المملوك مهدوء « يمكن اتمامه غدا يا ابى » فقال الشيخ متألماً « ولكن هيهات أن يسترد من الزمن ما ضاع » . فابتسم المملوك واجاب « لقد قلت حقاً يا ابى فكلمنا اسرعنا فى الذهاب أنا وعبد الله كان ذلك خيراً لنا . ألم تسمع يا عبد الله ما قال شيخك . هيا بنا . ينبغي أن تطيع نصيحة مولاك ومعلمك » . فحنق الشيخ وقطب جبينه وقال متأففا متبرماً « ولكن هناك شئ كثير لابد له من تعلمه الان »

فقال الفتى « وهل هو بطيء اذن فى التعلم ؟ » فقال الشيخ « كلا يا بنى فان هذا الغلام يرتشف افويق العلم كما تشرب شجرة القطن الماء الذى تروى به » فابتسم الفتى المملوك وقال « وستصبح رأسه فى النهاية أيها

الشيخ أشبهه بلوزة القطن . فجعل عبد الله ينظر إليهما متلهفا على نتيجة هذا الجدل الطويل اذ هما كانت الكتب مصدر لذة لهذا الغلام ، فلا تزال الزهرة وقضاء يوم في معسكر مراد بك بالجيزة فرصة لاتقاس بها لذة أخرى

وكانت قد توثقت عرى الصداقة بين الفتى والغلام منذ ذلك الحادث ، اذ جعل الفتى عثمان السلحدار يزور الغلام في بيت الشيخ فضل مرة في كل يوم ليستفسر عن صحته ، وعن الجرح الذي أصابه وكان يأتي معه بشيء من الفاكهة كالبرتقال أو الاعناب يقتطفها من حدائق الجيزة . وكانت زيارته الأولى تأدية واجب رأى انه يخلق به القيام به ، ولكن بعد أن شفى الغلام من جرحه ، استمر عثمان على زيارته لا ينقطع عنها ، اذ استراة منظر الشيخ وغلامه ، ومال بكليته اليهما . وانطلقا من المسجد بعد أن تفح المملوك الشيخ بقبضة من المقود كصدقات ليفرقها على مستحقيها من المساكين ففرح الشيخ بها ورضى لعبد الله الذهاب معه . لانه لم يكن بين مشايخ الازهر وعلمائه رجل اكثر اتباعا وأرام على الفقراء وشيعته من الشيخ السعدى ذاك . واعتلى عبد الله ظهر البغل ، وتشبث برمانة السرج التي أمامه ، واستوى عثمان على صهوة جواده ، واجتازا باب الفتوح الى النسطاط حيث شرعوا ابن العاص عَلم النبي لأول مرة في مصر

وذهبا صُعُدا وعن عينة منهما القصر العيني ، وهو أزاء منيل

الروضة ، فلما مرأ به ، نظر المملوك حوله ، ولم يلبث أن لوح بقبضته في الهواء مهدداً وقال « هماك يسكن ابراهيم بك ، الله يخرب بيته » . فنظر عبدالله اليه عن دهشة وحيرة وقال « كنت أظن أن مراد بك الذى تخدمه و ابراهيم بك قد اصبحا الآن صديقين متوادين » . فتمتم المملوك بصوت أجش « صديقين ! نعم لقد عاشا على الهدنة هذه الاعوام الاخيرة ، وهما في وئام ، لا حرب بينهما ولا قتال ، ولكنهما في حبهما لبعضهما البعض أشبه بعالمين من علماء الازهر يود كل منهما لو أنه خنق صاحبه خنقاً . ولن السى ما حييت أنه أراد يوماً أن يغتال حياة أبى مراد ، لولا أن قبض الله له اسماعيل افندى الذى يقيم الان فى بولاق وقد تناولت اليوم طعام الفطور معه »

وكان عبد الله فضولياً يحب أن يعرف كل شىء ولذلك لم يعتم أن سأل قائلاً « اننى لم أسمع بهذه القصة فهلا سردها لى » فانطلق عثمان يقص عليه حادثة قطع الخليج وما كان من ستيفن فى نجبته مراد بك . ولم ينته من سرد قصته ، حتى كان القتّيان قد بلغا الشاطئ الآخر وقد لاح لهما اهرام الجيزة عن بعد . وقال عثمان أخيراً « ان اسماعيل افندى هذا رجل وأى رجل فلا غرو اذن اذا كان مراد بك يحبه الحب كله »

فأجاب الغلام ببسالة وعناد « اننى لا أحترم الرجل الذى يرتد عن دينه » . فأجابه عثمان بصراحة « وأنا أيضاً . هاك فرج

افندى مدير الترسانة ، ان لسانى لا يكاد يقم على لسانه قط . أما اسماعيل فذلكم رجل لا أستطيع أن اعامله بتلك المعاملة . ولو اننى يخيل الى اننى لو كنت فى مكانه ، لما طاوعتنى نفسى ولو أعطيت ملك مصر وذهبها وكل ما فيها من نعمة أن أرتد عن دينى وأعتنق الاسلام لانه ينبغى أن تعرف يا عبد الله ان له زوجة فاضلة أغلى قدراً من الاديان جميعاً ، وقد هجرها كما بلغنى وانتبذها ، منذ دخل فى الاسلام » . فخلق عبد الله البصر وقال « أتقول امرأة تقوم بالاديان جميعاً . اننى لا أظن ان فى العالم امرأة واحدة تستحق ان يترك الانسان لأجلها ركعة يؤديها فى المسجد »

فأحابه عثمان « انك لاتزال صغيراً يا عبد الله . بل اننى يخيل الى اننى لا أتردد فى اعتنق النصرانية لاحت المرأة ولو انها تكاد تكون فى العمر كأمى . ولكن انظر ها نحن قد أشرفنا على قصر مراد . ألا تنظر تلك الحقائق التى تلوح على مسافة ليست بعيدة . ها هى حقائقه . ثم هناك » وأشار الى صف من الانية يلوح عن كشب » - « تلك مساكن المهاليك »

ثم تمهل قليلاً ونظر صوب الساحة . وكانت الساحة مترامية وراء تلك ، حيث كان جمع من الفرسدان يترامون ويتجالدون بالجريد أو يروضون خيولهم وصافناتهم .

فقال المملوك « لقد انتهت ألعاب الصباح ، ولكننا سنراها فى وقت آخر من النهار ، والآن هلم بنا الى السلامك لىكى أرسل

خبراً الى مراد بك بأننى عدت من الارياف «
ولوى عنان جواده وانطلق به يسير ماراً من الابواب الخشبية
هازاً رأسه بالتحية ليرد على سلام الحراس .
وقال أحياناً وقد أمسك بالعنان وأوقف جواده امام بناء
فخم كبير ظنه عبد الله القصر الذى يسكنه مراد بك « هذا هو
السلامك يا عبد الله . وأنا ورفيقي حسن الاكبر نسكنه لاننا من
حاشية مراد ولهذا ينبغى أن نكون قريبين منه لتنفيذ أوامره »
وترجل دن جواده بخفة ونزل عبد الله عن ظهر البغل فكاد
يقع . فضحك عثمان وقال مماًزحاً « ان ساقيك متوترتين يا عبد الله
أشبه بلسانى لو اننى قرأت الدروس على الشيخ السعدى ولكن
هيا ادخل وبارك الله هذه الزيارة الأولى لمسكنى والخير على
قدوم الواردين » . وبعد أن خلع الفتي ثيابه واشتمل بقفطان
مهنهف فضفاض. انطلق مع عبد الله ليريه القصر ومنافسه ورحابه
ومداخله حتى يحين وقت الغداء . وقال متابِعاً وحى غريزته
الفروسية « هلم بنا نذهب الى الاسـطبلات ومرابط الخيل ،
فلعلنا نجد حسن هناك » . فانطلقا حتى باغا الاسطبلات. وجعلا
يتنقلان فى المرباط ، وعبد الله فى فرح وذهول لا يوصفان
وانتهى بهما المطاف الى مربط فرس جعلت تصهل متلهلة فرحة
اذ أقبل الفتي يدنو ناحيتها . قال المملوك وهو يضع يده بلطف.
حول عنقه وراحت هى تتحسس بمنخارها اثوابه واجتذبت

قطعة من القصب كان قد اخفاها طي نوبه « آه ها أنا قد رجعت
ايتها الحبيبة . هل أنت غضبي مني لاننى لم آخذك معى ؟ »

ثم التفت صوب عبدالله وصاح به وقد وقف ينظر الى فرسه
معجباً بها متغزلاً فى محاسنها « انظر يا عبدالله . ليس لهذه الفرس
الكريمة مثيل فى الاسطبلات جميعاً ولا فى خيل مراد نفسه
وأفراسه . وقد أعطانى اياها يوم كانت مهرة صغيرة قائلاً انها
ضعيفة نحيلة البدن ولا تستحمل » ثقله « وقد تعبت فى تربيتها
وتمرينها ولكنهم الآن أجل ما فى المرباط من الافراس ، ولا يدانيها
فى مهارتها وحذقها جواد ولا صافن ولا أدوم فهى لا تمرض يوماً ،
ولا تغضب بة ، ولا تحزن ولا تأسى وتحمل الآن مرادين لا مراداً
واحداً لو طلب منها أن تحمل . ألا أنظر الى رأس جسمها ورأسها
الدقيق وعينها النحلاء . ألا أنظر . ان عينها تكاد تنطق . ألا
أنظر الى تدويره أضلاعها وكراديسها . واشهد قوائمها واستقامتها
كأنها السهم . الله . انها لفرس بديعة من غير شك »

فقال الغلام متسائلاً : « وهل تحبها »

فأجابه المملوك « ولم لا . فقد طالما نفعتنى وخدمتنى فى
المجالات ولولاها لكنت مغلوباً مهزوماً . ولعلى سادىن يوما لها
بالحياة . من يدرى . بل لقد عرض على عمر بك صاحب اسبوط
فى سبيل التنازل عنها له عشرين كيساً من الذهب وأكرم خيله
المربوطة فى اسطبلاته فقلت له اننى لن أرضى عنها بديلاً ولو

بيكويته ومديريته كلها . ووالله لقد كنت أجدرّ في قولي ذاك
وما كنت فيه بالهازل المارح ، وأنا أعلم شدة ولوعه بالخيل
وسبقه واغترلامه للنساء وقد خفت أن يسرقها من مربوطها اذا
الليل جن ، فمكثت عشر ليال متوالية أنام بجانب الاسطبل اذ
رأيت في عينه بريق الطمع والجريمة « وفي تلك اللحظة دنا منها
أحد البكوات وقال للمملوك الفتى ان حسن الاكبر يريد أن يقابله
وهو ينتظر قدومه اليه عند أقصى ناحية من الاسطبلات .

فانطلقا

وبلغا المكان فاذا جمع من الفرسان والبكوات وقوف حول
جواد جعل أحدهم وهو رجل طوال مشذب العود يتحسس قوائمه
وتال أحدهم « ما أحـب إلا أن الجواد يشكو من نوبة في
اعصابه » . فصاح آخر به محتدأ « قلت لك أن بعض الرمل
تسرب الى حوافره »

واذ ذاك التففت المملوك الطويل القامة حوله وللحال تهللت
أساريره فرحا وصاح قائلاً « سلام عليك يا عثمان . هاهو صاحبك
سليم قد أصابه العرج فلا يقوى على المشى ولا بد من ان للشيطان
في ذلك يداً لا أنى لا أستطيع أن اكتشف السبب . وهؤلاء
الحكماء البيطريون مختلفون في ذلك . آه . والشيخ الصغير
الازهرى معك . سلام . سلام »

ومد يده بالتحية الى عبد الله بمنتهى الأدب وأنشأ يقول :

« لقد نبأني عثمان بأنك ستحضر إلينا يوماً من الأيام ولكني لم أكن أعرف الميعاد المحدود والا لكنت ركبت لاستقبالك .
ثم التفت إلى عثمان وقال : « وما رأيك يا عثمان ؟ . في عرج سليم » . فقال المملوك وهو مرتبك لا يدري بماذا يجيب :
« والله لا أعرف يا أخى »

وفي تلك اللحظة أقبل رجلان على الحلقة . أحدهما طويل عريض الكتفين حسن السمات والآخر قصير القامة بدين حسن المظهر ، فخم البزة . فلما لمحهما المملوك الكبير تهلت أسارير وجهه وصاح بحماسة وبلهجة حارة متلهفة « الحمد لله ، ها هو قد حضر اسماعيل أفندي من بولاق فهو الرجل الوحيد الذى سيدلنى على مرض سليم » . فنظر اسماعيل أفندي هذا إلى حسن وابتسم قائلاً « ماذا جرى يا حسن ؟ » . فأجاب حسن الأكبر « ان سابم هذا يعرج وقد عجزنا عن الاهتداء إلى سبب عرجه فهلا اسديت لى جميلاً بتحسس قوائمه لعلك مكتشف باعث عرجه »
وجعل عبدالله ينظر إلى الرجلين اللذين أقبلا اذ ذاك نظرات الدهشة والفضول . وللحال أدرك مبلغ الاحترام الذى كان المماليك يستشعرونه للرجل الطويل دون صاحبه ، فنظر إليه ثانية ولم يلبث ان تبين له انه المملوك بعينه الذى لقيه هو ونفيسه فى الدرب الضيق ولم يكن بحاجة إلى همسة عثمان اذ جعل يقول له بصوت منخفض ان الرجل هو اسماعيل أفندي مفتش الصنائع .

بيولاقي الذي ضحى زوجته في سبيل دينه

واذ ذاك قال حسن متلهفا على معرفة سبب عرج جواده .
« والآن ماذا وجدت يا افندى ؟ » . فرفع الآخر بصره اليه
واجاب « ليس الباعث تسرب الرمال الى حوافره . وانما اخشى
ان يكون قد انقطع في الساق شريان صغير . اظنه هذا »

ووضع اصبعه على نقطة في قائمة الجواد

فقال حسن « وكم يوما لعلاجه حتى يستطيع الانسان ان
يعتلى صهوته » . فضحك اسماعيل افندى واجاب « عشرة ايام
لرجل متوسط البدن وثلاثة اسابيع لرجل في ضخامة بنيانك .
وان اصف له الاستحمام بالماء البارد في كل يوم وربط قائمته
هذه بضادة مشربة بماء مزيج بالملح ليلا »

فاجاب حسن « ليكن ذلك . سأنفذ وصفتك »

ونهمز ستيفن فحيا عثمان ألطف تحية قائلا « آه . لقد عدت
اذن ولهذا استعشى معي الليلة » . ولمح في تلك اللحظة عبدالله
وهو واقف عن كئيب فرمقه بنظره بفضول واستغراب

فانبرى عثمان يقول « هذا صديقي يا اسماعيل افندى وهو
طالب من طلاب الازهر . وعالم كذلك . والنبي سيصبح يوما مفتي
الديار » . فأطرق الغلام بعينه حيال نظرات ستيفن . ولكن
هذا ظل يحدق البصر فيه وقد تحيرت على محياه ابتسامة الحيرة
والدهشة . وعاد عثمان مخاطب استيفن قائلا « وستنفدى معنا

يا افندى . « وأشاح اسماعيل افندى اذ ذاك بوجهه واجاب
« ألف شكر ولكننا سنتغدى على مائدة رضوان اغا ومع ذلك
سنلتقى مرة ثانية لاننى سأبقى هنا لمشاهدة المبارزات اذ مع هذه
الكثرة من المماليك ننتظر ان نرى العبابى غاية الاهمية والبراعة »
وكان عبد الله قد اعتاد من قبل ان لا يرى على مائدة زوجة
عمه الا النزر اليسير من الطعام ، ولم يكن يرى على مائدة شيخه
الا ابسط الاطعمة ، فلا غرو اذا دهش وعجب وانبسطت اساريه
اذ جلس مع المملوكين الى مائدة فخمة كثيرة الالوان متعددة
الصحاف . فلما انتهى الثلاثة من الطعام وغسلوا ايديهم راح
المملوك الكبير وقد جلس جلسة الراحة فوق زرابى من الحرير
يسأل الغلام قائلاً « هل تشرب دخان يا عبد الله »

فضحك الصبي وقال « لقد وعدت الشيخ ألاّ افعل حتى
اتم دراستى فان الشيخ لا ينثنى عن قوله ابداً اذ من يشرب الدخان
تنتابه الاحلام والهواجس وكثرة التفكير ، ومن انتابته هذه فلا
يجد روحاً ولا نشاط للعمل » . فقال حسن ضاحكاً « ان
شيخك رجل حكيم . ومع ذلك جرّب التدخين فلن يعرف انك
فعلت » . فأجاب عبد الله « لقد وعدته ألاّ افعل وسأبر بما
وعدت » . فقال حسن الاكبر بلهجة الاعجاب « لقد كان ينبغى
ان تكون من المماليك يا عبد الله . لانك على خلق كريم أسمى
من اخلاق اولاد البلد . ولكن هاهى القهوة قد حضرت . فهل

يحرّمها الشيخ عليك ايضاً : « . فقال عبد الله « كلا . فهو ليس من طائفة العلماء الذين يحرّمون شرّها . بل هو يستحسنها وينصح بها . ويقول ان الانسان اذا رأى نفسه قد اوشك على الناس ورنق النوم في عينيه من كثرة القراءة فان فنجانا واحداً من القهوة يفتح العين ويجلى النظر واطالما مكنته القهوة من تأدية صلاة العشاء بعد ان كان قد تراخى واغمض عينيه وجلس يهوم متلبداً » . وجلس المملوكان يدخان ومضى عبد الله يطوف بجدران الحجرة يتفرج على مختلف الاسلحة والدروع المعلقة فوق الحيطان . وانه لفي شغل بمشاهدة تلك الاسلحة اذ سمع صوتاً غريباً بجانبه يقول بنغمة عذبة رقيقة « سلام عليكم يا عثمان وياحسن » . فالتفت ليرى صاحب هذا الصوت واذا به يشهد رجلاً طوال القامة قد وقف بباب الحجرة ، فتبين في الحال من كثافة شفّتيه وذقنه الناعم الاملس والانوثة المتجلية من تقاطيع وجهه ان الرجل من حراس الحرم ، أى من الاغاوات . وكان عبد الله يعرف النفوذ العظيم الذى كان لهؤلاء الاغاوات في مجالس العظماء والميزات التى كانوا يتمتعون بها كحراس للنساء ، وحفظة للحريم ولكنّه كطفل كان ينظر اليهم وفي فؤاده منهم شعور يكاد يقرب من الكراهية والاحتقار لانهم اشباه النساء لديه ولذلك لا عجب اذا اندهش عند ما رأى المملوكين قد نهضوا من مجلسيهما يرحبان بالقادم ويردان على تحيته بأحسن منها

وهم المملوكان بأن يضعا جانباً شيشتهما ولكن بحركة من
 الاغا امتنعا عن ذلك . قال الاغا « لقد سمعت من اسماعيل افندى
 مفتش بولاق انك قد رجعت من السفر يا عثمان فهل احضرت لى
 التقاوى التى وصيتك عليها من الرحمانية والله انى لا راهن انك
 قد نسيت اذ كنت فى عجلة ولا ريب للعودة الى القاهرة من تلك
 البلاد الملعونة التى لا يستطيع الانسان ان يحصل فيها على تبغ
 يستحق التدخين » . فأجاب عثمان ضاحكا « كلا . والله لم أنس
 ما طلبت . وقد أعطينها بائع التقاوى فى الرحمانية ويظهر انها
 تقاوى ثمينة يارضوان افندى لأن الرجل أعطينها كأنما كان
 ينزل لى عن بدره من الذهب وهو ينظر يمنة ويسرة ويهمس لى
 فى أذنى أن لا أعطيها أحداً غيرك أنت وفى يدك . انظر هاهى »
 ومد يده فتناول رزمة صغيرة كانه بجانبه .

فأخذها الاغا ودسها فى ثوبه متعجلا .

واذ ذاك قال المملوك الفقى ضاحكا « وهل سندوق من
 ثمارها عند ظهورها يارضوان افندى أم لا ؟ »
 فنظر اليه الاغا طويلا وأجاب « عند ما تنضج فاكهتها ستأخذ
 نصيبك منها يا عثمان السلحدار » . فضحك المملوك واجاب « اذن
 أرجو الله أن تصح هذه التقاوى وتفلح »

فتمتم الاغا بصوت منخفض « ربنا وحده اللى يعلم »
 واذ ذاك التفت صوب عبد الله وكان واقفاً فى صمت ولم

يلبث أن صاح مندهشاً « هل أنت عبد الله تلميذ الشيخ فضل .
لقد سمعت الشيء الكثير عنك لأن عثمان هذا لا يخفى شيئاً .
أرجو الله أن يكون جرحك قد اندمل »

فلم ير عبد الله من جواب غير أن رفع العمامة عن رأسه فظهر
أثر الجرح المندمل . فأجاب الخصى « لقد شفى تماماً » وراح
ينظر في دهشة الى شعر الغلام الاشقر وبحركة آلية وضع يده
على رأس عبد الله وقال « وانت بالطبع ابن رجل من اصدقاء
الشيخ . أليس كذلك » . وكانت كلماته تلك تم عن فضوله ودهشته
فأجاب الغلام « كلا . يا افندى . فان أبى توفى في طنطا ولم
يكن بينه وبين الشيخ معرفة ولا صداقة . وانما كنت اسكن في
بيت عمى وهو فاتح دكان في سوق النحاسين ولم اكن اميل الى
صناعة النحاسين ولكن شحاذاً كان يعرفنى علم ان الشيخ كان
بحاجة الى غلام يقوم على خدمته ويتلمذ عليه فاجتهد حتى وقم
لى الحظ » . فظل الاغا متحيراً دهشاً ولكنه اجاب « آه . ان
مصر بلد المعجائب . ولا عجب فيها ان يقنع شحاذ احد مشايخ
الازهر الكبار ويؤثر على ذهنه ، ويجعل من صانع نحاس اماما
وازهرياً بل شيخ الازهر ومن يدري لعل ذلك سيحصل »

وابتسم ابتسامة خفيفة . فانبرى عثمان يقول « أمال » -
انه الان قد اصبح يقرأ كالعلماء والمشايخ الاقحاح فقد سمعته
وهو يتلو ما في يده من الكتب في هذا الصباح فقط وكانت

الكلمات تتحدر من شفقيته أشبه بالماء منحدرًا من الساقية وانه يتعطش الى العلم ، تعطش الشارب المالح على الشرب لنهلة من الحمر ورشفة من الحمى . وانه ليلقى عليك اسئلة قد تحار في الرد عليها ولو ان علمك كالبحر الخضم لا يعرف غوره ولا تحد حدوده ألا قص عليه حكاية الملك الانكليزي الذي كان يحارب صلاح الدين فقد قصصت عليه طرفا منها ولكنه جعل يسألني عن كل صغيرة وكبيرة ويلقى اسئلة عجيبة ويتجرى الدقائق ويتقصى البواطن ويسأل عن النتائج حتى حرت في امرى فلم ادر بماذا اجيبه . فابتسم الاغا وقال « آه يا عثمان . لقد سحرتك قصة ذلك الملك الانكليزي ويخيل الى أنك لو خيَّرت بين ان تكون في مقام النبوة او تكون ذلك الملك لآثرت ان تكون ملكا على مثاله متنازلا عن النبوة لغيرك . لكن شؤون الحرب وفنونها وقصصها لا تقم عند طالب الازهر وموقع الاهتمام اذ ليست اساحته السيف والنشّاب والرماح العوالي »

فضحك عثمان وقال « لا اعتقد ذلك لان هذا الغلام ليس من محبي السلم والدعاة الى السكون فلو أنك رأيته أول لقائي به وقد وقف في وسط الطريق وجعل يلوح بقبضة يده في وجهي منذراً موعداً ويرميني بشتائم وسباب . ويطلبني أن ازل عن جوادي ليدق عنقي دقا ، ويزهق روحي ازهاقا »

فقال الخصى « سأقول له الحكاية في يوم آخر اذا كان مهتما

بها كل هذا الاهتمام وأرجو أن أراه مرة أخرى . السلام عليكم »
 فأجابه الجميع « وعليك السلام » فلما خرج الاغا من الحجرة
 جعل يتمم لنفسه قائلاً « ان عثمان لا يدري أى ثمر سيخرج من
 هذه البذور . وأسفاه لآتأتين أيام سينتبه فيها الغافلون مثله اليوم
 من سباتهم . فيرون العويل قد ملأ الجو والنيل يجرى دما . نعم .
 أنها قادمة . قادمة دانية منا . واهر قلباه لا يستطيع الانسان
 ان يتفادى من قدومها . نعم . انها آتية لا محالة . وانا متيقظ لها
 لا انام ملء جفنى كهؤلاء المجانين الحمقى الغافلين ... »

الفصل التاسع

ستيفن يحارب فى جيش مراد

ومضت الظهيرة بقيظها واقبل الاصيل بنسائمه فتحرك المملوك
 الفتى فى مجلسه ونظر الى رفيقيه وكان حسن الاكبر ممدداً وهو
 يغط فى نومه واما عبد الله فكان جالسا يهوم تهويمته المعتادة
 ولكنه لم يلبث ان تحرك اذ سمع خفيف ثوب عثمان وقد
 تحفز فى مقعده .

فقال عثمان يخاطبه « من عادنى فى هذه الساعة أن اذهب
 الى مرابط الخيل لأننى أحب أن أرى الجياد مسرجة أمام عيني
 فان السياس مهملون اذا لم يراقبهم أحد ويقف عن كذب منهم

« اصحى يا حسن » . ومضى ينادى رفيقه ويهزه من كمه ففتح هذا عينيه ببطء وتثاقل ولكنه نهض من نومه متثاقلاً وهو يقول « لم يحن الوقت بعد » ثم ارتدى ثيابه وانطلق الثلاثة الى الاسطبلات . وماكادوا يقتربون منها حتى اقبل عليهم سائسان فقال احدهما لعثمان « اى جواد سترك ياسيدى اليوم ؟ »

فقال عثمان « اسرج عصفور فى هذا الاصيل »

فاعترضه حسن قائلاً « يظهر يا أخى انك تريد أن تنتهز الفرصة لتغلبنى اذ اى جواد لدى يضارع فرسك «عصفور» مادام سليم مريضاً ؟ » . فضحك الفتى وقال « كلا . كلا . ما كنت بالاحمق لاركب جواداً آخر غير فرسى هذه وسأركب عصفورى وأنا بحاجة الى عونها لأقى رأسى من طعناتك ، لانى أتبين فى عينك نظرة مخيفة يا حسن لأحبها » . وأخرجت اذ ذاك الجياد من مرابطها وتقدمت عصفور تمشى الخيلاء وأقبل جواد بجانبها ضخيم قوى العضلات يلائم جثة راكبه

وكانت الساحة غاصة اذ ذاك بجمع جامع من المماليك يتمرنون على المجادلة ، بينما كان آخرون مقبائين زرافات ووحدانا من ناحية الاسطبلات . وانطلق الثلاثة الى الساحة حيث كانت تمت خيام كبيرة مضروبة وقد جلس قبالتها على الابسطة جمع من المماليك يرتقبون أن تهدأ حرارة الشمس حتى يوافوا اللاعبين ويشترکوا فى الجِلاد مع المجالدين ، وكان من خلفهم خدمهم يروضون جيادهم

ويذهبون بها ويحيئون . وكان هناك عدة بكوات جاؤوا من بلادهم في حرس كبير من مماليكهم ليحضروا الديوان في القلعة . فهمس عثمان الى رفيقه حسن « أنظر يا أخى . ألا ترى عمر بك واقفا هناك . لم اكن أدري انه فى القاهرة »

فأجابه صاحبه « لقد حضر بعد ذهابك الى الرحمانية بمومين اثنين فقط » فقال عثمان ضاحكا « الحمد لله الذى لم يمكنه من سرقة عصفور فى غيابه » . فابتسم حسن وقال « وهل نسيت وجودى هنا . وهل تظنه كان مجترئا على فعل ذلك . ضربة على رأسك عند المجادلة لاجل هذه الغلطة التى ارتكبتها فى حقى » فاجاب عثمان بلهجة النادم الاسف « معذرة يا أخى . لقد قلت قولاً طائشاً » . وكان الرجل الذى تكلم عنه متوسط العمر ذا لحية تضرب الى الشقرة ، كثة مستطيلة ، وكم من هؤلاء المماليك على الرغم من سعة سلطانه واستبداد امارته كان يرتكب الشنائع ، ويسطو على متاع الناس ، ويسلب وينهب ، غير مبال ولا مكترث اذ لم يكن لأحد سلطان عليه ، ولا حكم فى امره الا لضميره ولم يكن للضمير أثر فى نفوس السواد الاعظم من المماليك ، ولكن فى هذا الرجل على الأخص كانت روح الاستخفاف بالآلام الناس وبالقسوة فى معاملتهم قد بلغت حد الوحشية ولم يكن لوحيته مثل فى تاريخ الممالك كله ، وكان يجمع الى هذه القسوة المتوحشة المفترسة دهاء واختلا جملاه مخيفاً خطراً شديداً

الاذى . وكان الناس ينكمشون وينزوون رعباً من منظر هذا الرجل ومن أنفه الصقرى وعينيه المخيفتين ، حتى لقد كان الفلاحون فى المنيا مديريته يفرون من وجهه ويتحاشون اللقاء به فى طريق ، وينزوون خشية من رؤية لحيته الغزيرة ولم تكن تسلم امرأة من شر هذا الرجل ونظراته اذا وقعت على وجهها أو حدث نفسه باستلاكها ورغب فى التمتع بها ولم تكن حياة أى رجل لتنجو من مخالب الموت اذا استهدف يوماً لعداوته .

وقد وقف عبد الله فى دهشة ورعب اذا وقعت عينه على تلك النظرات المربعة . ولما أقبل المملوكان على الجمع الجلوس امام الخيمة تلقوهما بالترحيب والتحيات وصاح احدهما « سلام يا حسن . وسلام يا عثمان » لقد تمهد عمر بك هنا امامنا ان يعطى قفطانا من الحرير لمن يغلب مملوكه فرج فى ثلاث مجالدات فمرة بالمسدس للتصويب على هدف معين والثانية للمباراة بالجريد والثالثة للمصارعة على ظهور الخيل . فقال عثمان بتلهف « أود أن أجرب بحتى أنا أيضاً ولكن والله لا احفل بالقفطان الجديد ولا اكترث وان كنت احفل بلذة المباراة فى حد ذاتها ونعمة المجالدة ، واما خرجت منها بضرب وطعن واضلاع مكسورة » فانبرى له أحد المالك الاشياخ يقول « يلوح لى انك لن تخرج منها الا بأضلاع مكسورة كما قلت . اذ لا يضارع قوة فرج فينا جميعاً غير قوة عمر بك »

فقال هذا الاخير بصوته الأَجَش الخشن « ان مملوكى لا يبارز ولا يبارى غير الاحرار لا الممالك »

فالتفت عثمان اليه وأجابه بحدة قائلاً « ومن الذى يقول اننى لست حرّاً » . فقال عمر بك ضاحكاً مستهزئاً « انك لم تنبت لك لحية » . فصمد الدم فى وجهه الفتى وكانت نعومة وجهه وعذاره مصدر ألمه وتسخطه واستيائه وقال « اننا لانزن الناس فى القاهرة يا عمر بك بطول لحاهم ، مهما كانوا يفعاون فى الدنيا فتميز البك من الغيظ وكاد ينهض من مجلسه محتدماً وقال بصوت متهدج من شدة الغضب « والله لو مكنتنى الايام من لقاءك فى الصعيد لما ونيت فى تأديبك وتعليمك الأدب »

فهم الفتى بأن يجيب ولكن المملوك الشيخ أمسك به من ذراعه وقال « كفى . كفى . يا عثمان فلا فائدة من المشاجرة فان مراداً سيغضب اذا سمع بالخبر . وعلى اية حال سيدشترك طوسون فى الدور الاول . وها هو قد أقبل » . وفى تلك اللحظة خرج من الخيمة رجل من الممالك شاكى السلاح مدجج . واضع خوذة من الصلب فوق رأسه . فصاح به عثمان « طوسون . استعد بمسدسين لدورك » . فضحك الآخر وقال « كلا . كلا . يا عثمان فانى فى اشد الاحتياج الى ثوب جديد لأن ثوبى قد أصبح خليقاً بسائس جيادى » . وكان هناك على بعد بضعة مئات من الامتار مملوك من القوم يثبت للتسديد هدفاً وكان الهدف « قلة »

صغيرة الحجم ، لايسهل على مطلق الغدارة وان أوتى مقدرة كبرى فى الرماية أن يصيبها وهو على جواده يعدو به وسرعان مسافة ثلاثين مترا . وعند ذلك خرج من الخيمة ذلك المملوك الذى كان عمر بك زهواً به وهو فرج الصعيدى ، وكان الرجل قد أصاب شهرة فائقة فى المهارة باستعمال الاسلحة ، وكان فى دمامة وجهه ووحشية ملاحه ، أوفى مملوك لمولاه عمر بك الذى وصفناه . ووضعت الخطة للمباراة وقرر أن يطلق كل فرد من المتبارين ثلاث طلقات على « القلة » وهو يعدو بجواده ، فاذا انتهيا من ذلك تباريا بالجريد مدة خمس دقائق فاذا تمت هذه المجادلة أخذوا عشر دقائق أخرى فى المصارعة على ظهر الجواد ، ومن تفوق على منافسه فى اثنتين منها ، كان الفائز الرابع ، وقرنه المغلوب الخامس . واذ ذاك قال المملوك الشيخ « كان بودى لو ان رجلا آخر فى مكان طوسون ، لانه وان كان قرنا ماهراً فلا يزال دون فرج الصعيدى فى المهارة »

فرد عليه آخر يقول « ها هما قد ابتدآ . انظروا . لقد أخطأ كل منهما المرمى » . وكانت النارسان قد راح يعدوان على جواديهما وقد علا الغبار وانطلقت الرصاصات تدوى فى الفضاء وصاح صوت آخر يقول « ها هو طوسون قد أخطأها ثانية . ياله من أحمق . يالله . ها فرج قد أصابها . الله اكبر » ورأى الجمع القلة قد وقعت متحطمة وقد تطايرت شظاياها

فى كل جهة . فبهت مهالىك مراد بك واكفهرت منهم الوجوه
وقال احدهم وقد انتهى الدور الثانى وهو اللعب بالجرید
« لقد غلب صاحبنا الآن فى المباراة الثانية . ولو انه ربح المباراة
فى الرماية لكان يحتمل أن يصيب فى الثانية ، ولم يبق غير
المصارعة وليس له فى الغالب فيها حظ . اذن لقد ضاعت منا هذه
المسابقة » . وفى الدور الأخير سقط طوسون عن ظهر جواده
مذموما مدحورا ووقف مهالىك مراد بك فى خجل واستحياء
وقد بدت الذلة والشعور بالعار الذى لحقهم على معارف وجوهم
ومضى عمر بك يضحك بملء فيه استهزاء واستخفافا واحتقارا
ويقول « والله لكان أولى بمملوكى أن لا يلبس ويتهيا لمثل هذه
المبارزة . فاشبه عنده بملاعبة طفل صغير . لقد كنت أظن ان
لديكم فى الجيزة مهالىك أصلح من هذه « العينة »
فرد عليه المملوك الشيخ قائلا « يؤلمنا أن تكون خيرة
مهالىكنا غائبين اليوم ولكن هلا أذنت لى فى البروز الى مملوكك
هذا » . ولكن صاح المملوك الفتى مقاطعا « كلا . كلا . دع
ذلك لى يا محمود . فان هذا دورى »

فصاح عمر مستخفا « ماذا اسمع . ماشاء الله . أعاد الفتى
الناعم اللحية الى التبجح مرة أخرى . هلا نزلت اليه يافرج لترينا
نتيجة زهوه وخيلائه » . فخرج المملوك منافسه ببصره مستهزئا
وقال « لا بأس . ولكنى كنت افضل أن انازل رجلا . وأظن

أن هذا المملوك الضخم الواقف هناك قد يجب أن يجرب «
فضحك حسن حتى بانت نواجذه لأنه عرف أن الكلام يعنيه
ثم اجاب « ولكن صديقى قد سألك النزال قبلى »

فتمتم عمر بك « اخص » أنه لجبان على ضخمة جثته «
فقال عثمان يخاطب صديقه وقد مشى الى جواده ليعتليه « لو
كنت طلبت النزال قبلى مع أنى كنت البادىء بسؤاله لما سلمت
اليوم من مقاتلتى يا حسن » فهمس صاحبه له فى اذنه « ابذل كل
اجتهادك فى اللعب بالجريد يا عثمان فإنه سيدق عنقك فى المصارعة
على ظهر الجواد لو تمكن منك وهو يعرف أن عمر بك يكرهه
كما يكره المسلم اليهودى » . فضحك الفتى عن استخفاف ووثب
فوق صهوة فرسه وانطلقت به ركضا . وعدا المملوك الآخر
كذلك يريد الهدف ولم يلبث أن اصاب هو القلة واخطأها
عثمان ، وان كان ممالك مراد جعلوا يتهايمسون فيما بينهم بأن فرج
المملوك لم يصبها الا لأنه لم يكن يعدو بجواده ركضا بل ترفق
فى جريه ليتمكن من الهدف . وفى الطلقة الثانية اصابها عثمان
وكان يعدو بأقصى سرعة، وتحطمت القلة قطعاً صغيرة

أما المملوك الآخر فلم يصبها فى الطلقة الثانية

ووقف عبد الله وكان موقفه بجانب ستيفن ، وهو يراقب
المباراة خافق الفؤاد فى أشد اللف والتشوق والتطلع لنتيجة كل
طلقة ، وما عثم أن قال بعد الطلقة الثانية « اللهم سدد رميته ،

فسمع ستيفن دعوته تلك فأجابه . « لاخوف على عثمان
 من اخطاء الهدف ياسيدنا فليس في مصر كلها رجل يضارعه في
 الرماية بالغدارة أو البندقية . انظرها هو قد اصابها مرة أخرى »
 ولكن عمر بك قبل البدء بالطلقة الثالثة طلب أن تفحص
 الغدارتان ليستوثق مما فيهما . فبهت ممالكك مراد لهذا الطلب
 وعلت وجوههم سياء الدهشة ، وكان عثمان اشد هم دهشة ، ولكنه
 لم يرفض الطلب . فتناول عمر بك الغدارة من يده ومضى
 يفرغ الرصاصات التي فيها وهو يقول « من يدري لعل في الخزانة
 رصاصتين فقد اكتشفت حوادث من هذا القبيل في ظروف
 كهذه » . فرد عليه حسن بكبر وزهو « اننا لانستخدم هذه
 الالاعيب والحيل في الجيزة » . واردف عثمان على قوله وهو
 يكاد يبكي غيظا وحنقا ويتحسس بأنامله مقبض سيفه « اتحسبنا
 غشاشين خداعين » . وكان ممالكك مراد بك وقوفا على وشك
 أن يفور تنور غضبهم . فما كان من المملوك الشيخ الا أن رفع
 عينه والنفث الى عثمان ثانية وقال « سكوتا . سكوتا » ثم نظر
 الى عمر بك وقال « هل اقتنعت » . فأجاب هذا « نعم أن
 الغدارة لا تحوى غير رصاصة واحدة »

فتمتم أحد الممالك قائلا « ليتها صوبت الى رأسك »
 واعيدت الرصاصة الى الخزانة وعدا الفارسان الى الهدف مرة
 أخرى فبينما فرج قد اخطأها اذا بعثمان قد أطلق رصاصة عليها

فَهَزَتْهَا هَزْأً مِنْ مَكَانِهَا بَيْنَ هَتَافِ جَمْعِ الْمَمَالِيكِ اقْرَانَهُ وَهُمْ يَصِيحُونَ
« لَقَدْ رَجَحَ عِثْمَانُ الْمُبَارَاةَ الْأُولَى ! » فَجَرَى عِثْمَانُ لِيَحْضُرَ الْجَرِيدَ
وَالْتَقَى فِي طَرِيقِهِ بِالْمَمْلُوكِ الشَّيْخِ فَهَمَسَ هَذَا لَهُ فِي أُذُنِهِ « سَدَدِ
الطَّعْنَ يَا عِثْمَانُ وَابْذُلْ كُلَّ اجْتِهَادِكَ حَتَّى تَبْرَعَ الْمُبَارَاةَ الثَّانِيَةَ ، لِأَنَّكَ
قَدْ تَخْسِرُ الْمَصَارِعَةَ » . فَأَوْمَأَ الْفَتَى بِرَأْسِهِ عَلَامَةَ الْإِيجَابِ وَقَدْ
ادْرَكَ الْمُرَادَ مِنْهُ ثُمَّ عَدَا لِلِقَاءِ قَرْنِهِ . وَجَعَلَ الْمُتَنَافِسَانِ يَدُورَانِ
حَوْلَ بَعْضِهِمَا الْبَعْضَ كَمَا تَفْعَلُ الْكِلَابُ الْمُتَقَاتِلَةُ ، وَكُلُّ مِنْهُمَا
يَتَرَصَّدُ لِصَاحِبِهِ لِيَطْعَنَهُ . وَكَانَتْ مَهَارَةُ الْمَمَالِيكِ فِي اللَّعْبِ بِالْجَرِيدِ
قَدْ سَارَتْ مَسِيرَ الْأَمْثَالِ ، وَكَانَ الْفَتَى مُتَنْبِهَاً لِكُلِّ حَرَكَةٍ مِنْ
حَرَكَاتِ مُنَافِسِهِ ، وَكَانَتْ عَصْفُورَاتِي يَمْتَلِي ظَهْرَهَا تَحْفَظُ لِلْوُثُوبِ
بِشَوْقٍ وَحَذَرٍ وَرِبَاطَةٍ لَا تَقِلُّ عَنْ صَاحِبِهَا وَعِلَا الْغُبَارِ وَتَدَانِي
الْمُقَاتِلَانِ ، وَغَلَبَ الْمَمْلُوكُ الصَّعِيدِي عَلَى أَمْرِهِ إِذْ تَمَكَّنَ عِثْمَانُ مِنْهُ .
فَضْرَبَهُ بِالْعَصَا الطَّوِيلَةِ ضَرْبَةً عَلَى وَجْهِهِ أَرْسَلَتْ الدَّمَ يَسِيلُ مِنْهُ صَيِّبًا
وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ مَمَالِيكِ مُرَادٍ بِالصِّيَاحِ وَهَتَافِ السَّرُورِ
بَيْنَنَا وَقَفَ عَمْرُ بَكْ يَزْجُرُ وَهُوَ مُتَجَهِّمُ الطَّلْعَةِ يَنْظُرُ شِزْرًا إِلَى
مَمْلُوكِهِ الْمَغْلُوبِ . فَقَالَ أَحَدُ الْمُتَفَرِّجِينَ « لَقَدْ خَسِرْتَ رَهَانَكَ
يَا عَمْرُ بَكْ . » وَالتَفَّ الْمَمَالِيكِ حَوْلَ عِثْمَانَ وَاحَاطُوا بِهِ كَالْهَالَةِ
يَهْنُؤُونَهُ وَيَعْتَزُّونَ بِهِ وَلَكِنْ عِثْمَانُ كَانَ مَشْغُولًا عَنْ تَهَانِهِمْ بِالنَّظَرِ
إِلَى كَمِ ثَوْبِهِ وَلِلْحَالِ قَالَ يَخَاطِبُ أَحَدَ الْجَمْعِ « لَمْ أَغْلِبْ بَعْدِيَا إِدْرِيسَ
أَنْظُرْ مَاذَا فَعَلْتَ عَصَا فَرَجِ بَثْوِي » . وَرَاحَ يُرَى الْمَمَالِيكِ خَرَقًا

في كم القفطان الحريرى . فتمتم ادريس هذا يقول « اذهب مجنون
اسكت . لا توقعنا في فضيحة »

فصاح عثمان غاضبا « ماذا اسمم . هل أنا كلب حقير اكسب
الرهان بالكذب والخديعة » : وتقدم على جواده صوب فرج
الصعيدى قائلا « انظر ، ها هي عصاك قد مستنى هنا ، فشرف
الغلب مناصفة بيننا في هذه المرة » : فسمم عمر بك ذلك منه
وللحال صاح فرحا « آه ، اذن لم يقع القفطان بعد لك ، ووالله
ما انت بظافر به بعد الان » : ونهض من مجلسه فمشى الى
الخيمة وكان فرج قد سبقه اليها ليتهيأ للمصارعة القابلة

ولم يلبثا أن برزا للمصارعة متخففين من الثياب ، حاسرى
الرأس ، فبدا عثمان نحيفا ضاويا مفتول العضل ، في نشاط الهرة
الغضوب وخرج فرج فاذا هو عظيم الالواح ، قد نبت الشعر في
صدره ، طويل الذراعين في بأس وشدة ، والويل للفتى لو انضمت
الذراعان على بدنه . ووقف محمود المملوك الشيخ يهمس
لحسن الاكبر قائلا « أرجو أن لا يصيب الفتى أذى من هذا
الوحش ، ضلة له ما كان أولاه أن يسكت فلا يلفظ كلمة عن
قفطانه الممزق . لانه لا يضارع فرج الصعيدى في المصارعة .
انظر اليه ألا تراه أشبه شئ بجانب فرج بالشجيرة أزاء النخلة
العظيمة وفي الحقيقة لا أكتمك يا حسن خوفا من هذا البريق
الذى أشهده في عين المملوك فرج فانه يقصد الأذى ويضطنن

على عثمان . ولكن ماذا ترى اسماعيل افندى قد دنا ليفعل «
وكان ستيفن اذ ذاك قد تقدم صوب عثمان ووقف يشد
شريحة الفرس وآببه ويحكم ربطها

ولم يلبث محمود المملوك الشيخ أن تبين مافعله ستيفن فقال
مخاطباً حسن « له الله هذا الافرنكى . ان بصره اليوم حديد »
وكان عبد الله فى أثناء هذه الفترة قد انطلق يطوف بالخيام
ويحوم حول المضارب ، دون أن يعيره القوم التفاتهم ، ودون
أن يشعر به أحد ، وكان فى أشد حالات الاضطراب والدهشة
لكل ما كان يجرى أمام عينه . واذ ذاك تقدم نحو ستيفن
وهزه من كم القفطان . فتلفت هذا ليرى من الذى هزه من
ثوبه ولما تبينه ابتسم ولكن ابتسامته لم تلبث أن اختفت من
محياء اذ شهد الفتى واجماً مكفهر الطلعة

قال « ماذا بك . انك تلوح كمن يحمل أخباراً سيئة »
وانحنى ليسمع ماذا يريد عبد الله أن يهمس له فى أذنه
ولم تمض لحظة وهما واققان على هذه الصورة حتى أجفل
ستيفن وقال مندهشاً « ماذا تقول . هل سمعته يقول ذلك .
يا للوغد . ألم تسمع يا محمود . ان هذا الصبى يقول انه سمع عمر
بك يأمر فرج الصعيدى بأن يطعن عثمان طعنة مميتة . ويضربه
ضربة قاتلة لاتنجيه من مخالب المنون وعرض عليه أن يعطيه
خمسین جنيهاً « ديناراً » اذا هو نجح فى تنفيذ ما أمره به »

فاضطرب المملوك الشيخ لسماع هذه الكلمات وقال دانه
الشیطان بعینه ونادی اذ ذاك حسن الاکبر ونبأه الخبر ثم أردف
يقول « ولكن اسمع يا حسن لا ينبغي أن تقول الآن شيئاً والأ
ادعى عمر بك ان هذه حيلة منا وادعاء فقط لكي نهرب من
المصارعة . ولكن هل سيثبت الغلام على قوله انه سمم هذا
الكلام من شفة عمر بك » . فقال عبد الله بشهامة وجراءة
« نعم . لن أنكر ولن أخشى في الحق شيئاً »

فأجاب محمود « حسن جداً . انتظر معنا هنا قليلاً . ليت مراداً
كان حاضراً الساعة . فان هذه الحادثة ستسيل الدماء »

ولم يزد على ما قال حرفاً بل وقف يراقب بانتباه شديد الحركات
الأولى بين المتصارعين . ووقف حسن الاكبر بجانبه وكذلك
ستيفن وهو صامت ساكن الاعصاب متجهم مكفهر وهو يتبع
كل حركة باهتمام شديد . وفي تلك اللحظة خرجت صرخة من
أحد المماليك اذ قال « أما فرس طيبة ولو كسب عثمان المراهنة
لكان بها مديناً لعصفور » . وقال أحد البكوات « والله اعطيه
عشرين كيساً من الذهب لو تنازل لي عن تلك الفرس الكريمة »
فرد عليه آخر « والله لو دفعت فوق العشرين مائه أخرى
لما أخذتها منه لاني أعرف الفرس وصاحبها »

وفي تلك اللحظة ضجت الاصوات قائلة « الله اكبر . انه قد
قبض عليه » . وكانت الفرس في تلك الهنيئة قد وثبت الى الامام .

فمكنت راكبها من لف ذراعيه حول خصر منافسه من خلف ولم يلبث الجمع أن هتفوا ثانية « والله ما نظنه سيتمكن منه خلفه بدنه ». ومضى المتقاتلان يتدافعان بالأيدي ويتواثبان وهما على ظهر الجواد . وبعد لحظة أو أخرى صاح القوم « انظروا ها هو فرج قد امسكه من معصمه . وانه سيكسرهما في يده » فأخذ الفتى ينفلت منه ويحاول دفعه وجذبه ، ولكن فرج حمل على الفتى وكان في مكنته أن يسقطه عن صهوة فرسه ، لو أراد ، ولكنه عمد الى حيلة أخرى وذلك بأن مضى يطبق بصدره فوق حثة عثمان . ولو كان نجح في حيلته لطبق صدر الفتى تحت ثقله كالبيضة . ولكن الفرس بلا سابق نذير سقطت على ركبتيها ، ولو لم يدع فرج المملوك يد مقاتله في خضف البرق . لسقط هو عن جواده . ونهضت الفرس براكها وكان شاحب اللون والدم يسيل من فمه ودار بفرسه قليلا ليملك انفاسه ولكنه في تلك اللحظة تقدم اليه المملوك الكبير السن فأمسك بعنان الفرس وصاح به في لهجة الآمر « قف ! »

فتمنفس الفتى الصعداء وقال بأنفاس خافتة « ماذا حدث . اننى استطيع مواصلة القتال » فقال عمر بك ضاحكا « أتريد أن تأخذ فتاك يا محمود افندى . أتراه خائفا ؟ »

فصاح عثمان اذذاك بمحمود حانقا « اترك العنان يا محمود ! » . فأجاب محمود ملتفتاً الى عمر بك « كلا . اننى امنع »

القتال . لقد ظهر لجميع الحاضرين أن مملوكك ياعمربك أراد أن يكسب المصارعة بحيلة سافلة . فقد كان يريد أن يضغط بجسمه الثقيل بدن عثمان فوق السرج »

فأجابه عمر بك مستهزئاً « هذه حيلة منك فقط لان مملوكك كان على وشك أن يغلب » . فصاح المملوك الشيخ بغضب ولهجة تأكيد « بل كانت الحيلة من مملوكك أنت وكانت أيضاً بناء عن أوامرك . فاحتمد عمر بك ووثب وثبة واحدة من مجلسه واقفا وهو يقول « ماذا اسمع . اتجترىء أن تقول لى هذا يا ابن الكلب » . وفى لحظة أخرج السيف يلعم نصله وشهره فوق رأسه . فخرج المملوك محمود اذ ذاك عن هدوئه الطبيعى وصاح قائلاً « نعم . أقول ذلك فى وجهك فأن اردت قتالا فهلم ابرز فى الساحة فتقاتل . فأنى قرنك الاوحد » وفى الحال سكنت اصوات المماليك ووجت الوجوه اذ لاح لهم أن الامر قد انقلب خطيرا على غير ما كانوا ينتظرون .

وصاح محمود بلهجة الامر « اغمد السيف يا حسن فاننى هننا قائدكم حتى يحضر مراد ولن يكون قتال وانا حاضر . ألا تذكر أن عمر بك لا يزال ضيفنا »

ولكن عمر بك ضحك اذ رأى المملوك حسن قد وجم وأعاد السيف الى غمده ثم قال « اننى متنازل عن حقوق كضيف عندهم اننا فى الصعيد لا نفعل فعلكم هذا فنسب رجلا فى وجهه ونرميه

بالكذب وننطلق ذاهبين بعيداً عنه »

فرد عليه حسن بصوت خشن حاد « اننى منتظر كلمة واحدة من أبى فسترى ما سيكون منى » . واذ ذاك تداخل أحد البكوات قائلاً « ولكن هذا الامر لا ينبغى أن يترك على هذه الصورة فنحن ضيوف شيخ البلد ولا يليق بنا ان ندع هذه التهمة معلقة فوق رؤوسنا . فما دليلك على أن عمر بك أصدر أمراً كهذا ؟ » فأشار حسن الى عبد الله وكان واقفاً على مقربة من الجمع بجانب ستيفن وقد وضع هذا يده على كتفه وقال « سل هذا الصبيَّ يجبك » . فالتفت المملوك الى الغلام قائلاً « ماذا لديك من القول » . فوقف عبد الله بحياء أمام هذا الجمع الكبير . وانطلق يتحدثهم بكل ماسمع . فقال عمر بك « ومن أنت حتى تقول كذبا وتفترى على قوم أشرف مثلنا... طالب فى الازهر ! » قال ذلك وحقه ضاحكا بملء فيه وعاد يقول « وهل لوعذبتك بالنار تقول هذا وتصبر عليه » . فلم يجزع الصبي ولم يرتعب بل أجاب مستبسلاً « نعم . سأصر على ماقلت . والله يهبى القوة على احتمال كل ألم فى سبيل قول الحق »

فتهاشم رجال عمر بك مصدقين على هذه الفكرة والتفت عمر بك اليه وقال « اذن لنجرب هذه الطريقة » ولكن ستيفن صاح قائلاً « لاضرورة لذلك يا بك فأنى لا ارضى بأن ادع هذا الصبي يعذب امامنا »

فنظر عمر بك اليه نظرة الساخر واجابه اذن تريد أنت أن
تتشاجر معنا وتدخل في خلاف . أتريد أن « تبدو اليوم بطل
ممالك مراد بك » . فاجابه ستيفن بهدوء « نعم . اذا احتاج
الامر الى ذلك لأننى وان كنت خادم مراد بك فليست مملوكا
والسبب الذى يمنعهم من مقاتلتك لا يمنعنى أنا فأنا منه فى حل »
فضحك عمر بك ضحكة الاستهزاء وقال « اذن احتر السلاح
الذى تريد رمحا أو سيفاً أو نشاباً أو ما يروق لك . فأنى لا اعبأ
بأى الاسلحة تقاتل . ولا احفل سواء بررنا راكبين أو واقفين
بل حسبى أن القاك بسيفى هذا وبفضل الله قبل أن تغيب الشمس
عن رؤوس هذه النخلات العاليات سرى مراد بك محتاجا الى
مفتش آخر لبولاق وبناء السفن . فلهم تشجع »

وفى تلك اللحظة تقدم عثمان ولا يزال الدم يسيل من فمه وهو
واضع كفه فوق شفطيه نحو ستيفن وهو يقول « والله انى لآسف
يا اسماعيل افندى اذ كنت أنا السبب فى كل هذا . والآن حذار
أن تقاتل بسيف الترك فلا جلد لا أحد على مقاتلته به غير مراد
أو ايوب وانما عليك بسيف الفرنجة فنلك فرصتك الوحيدة . »
فهز ستيفن رأسه بالموافقة وقال « لقد احسنت نصحا فأن

ذلك سلاح اعرفه على الاقل ولم اعتد بعد امتشاق سيفكم »
ونادى المملوك الفتى عبد الله وقال له « اسمع يا عبد الله
انك تتذكر ولا ريب السيفين الافرنكيين المعلقين على الحائط

فى حجرتنا التى كنا جالسين فيها . فاذهب واحضرهما دون تأخير ،
فانطلق عبد الله يجرى وقد ادرك ما طلب اليه .

وتخفف عمر بك بمساعدة ممالكه من ثيابه الخارجية . ونضا
عنه قفطانة ووقف فى قييص من الحرير قد بان منه عضله وروعة
مظهره . وشدة بأسه . وجعل يمد ذراعيه ويرخيها ليمرن يده
على السيف وهو يهزه فى الهواء هزاً

ووقف ستيفن بعد أن خلع عنه قفطانة الواسع ينظر الى عمر
بك نظرة المتفحص وقد ادرك للحال أن الرجل أشد بأساً فى
الجزء الاعنى من بدنه منه فى ساقيه . وان كل قوته تكمن فى صدره
وذراعيه . وأن الرجل لا بد من أن يروح اثبت على ظهر جواده
منه على قدميه واقفاً . وجعل البكوات يتساءلون فيما بينهم
« أى سلاح تراه يستعمل ؟ » فرد عليهم آخر « والله لا اعرف .
لعله سيبرز له بعضا » . فقال آخر « اذن فهو لا محالة مقتول .
ولكن ألا تراه والله لا يقل عنه قوة وشدة اسر . انظر ذراعيه
الطويلتين وكيف تتحرك العضلات تحت هذا القمييص الحريرى .
وعلى الرغم من أنه ولا ريب يعلم أن ساعته قد أزفت ومنيته قد
حانت لا يزال ثابتاً لا ترتعديده . ولا يبدو للخوف أثر فى عينيه
اننى متأسف عليه . والله يا خسارة . انه رجل . ولكن عجباً ما
هذا السلاح ؟ » . قال ذلك ونظر الى السيف الطويل الذى تناوله
ستيفن من يد عبد الله وجعل يطعن الارض بمحده »

وعاد يقول « هل يظن أنه سيغلب عمر بك بسيف كهذا »
 وكان عمر بك نفسه ينظر اليه وهو مكفهر الوجه مقطب ثم
 التفت الى احد اعوانه وكلفه بأن يأمر سائس جواده بأسراجه
 فانبرى ستيفن يقول « كلا . يابك . اننا سنتقاتل ونحزن على
 القدم . طبقا للاتفاق » . فتردد عمر بك وود لو يعارض ولكن
 البكوات احاطوا به وقالوا « هذه شروطك يابك » وهمس احدهم
 له في اذنه « يا سيدي . المسألة لا تحتاج الى كل هذا التعب .
 فسندفد سيفك فيه في غمضة العين »

ولكن عمر بك كان يعرف من أمره اكثر مما كان محدثه .
 واذ ذاك صاح عمر بك « اعطوني درعى »
 فحىء اليه بدرع فخمة من جلد الوعل مبطنه بالذهب والنحاس
 فاحتج محمود قائلا « ولكن ما الحاجة الى درع كهذه .
 انك عنيت السيف فقط ولم تزد » . فصاح به عمر بك « اليس
 للسيف بد من الدرع . اننى سأقاتله بأسلحة الممالك فدع الا فرنكى
 يتخذ درعا ان اراد » . واراد الملوك أن يحتج ثانية ولكن
 القوم احتاطوه واقنعوه بأن لا فائدة من الاحتجاج فاذعن مكرها
 وكان منظر ستيفن رهيبا لانه لم يكن حسب للدرع التى
 لبسها مقاتله حسابا ولكنه رأى أن لا جدوى من المعارضة ولذلك
 خلع مداسه الاصفر وتقدم فى الساحة واختار ارضا ملساء خالية
 من الحصى والحجارة . والتف الممالك ووقفوا فى حلقة كبيرة

في صفوف ثلاثة ووقف عبد الله وهو شاحب اللون مهتاج النفس مضطرب المشاعر . وهو يدعو الله في نفسه لاسماعيل افندى بالفوز وهمس عثمان لاستيفن في اذنه « تذكر الطعنة العالية . ألا تريد شيئاً آخر تؤديه لأجلك » . فقال ستيفن « دع حلقة التفرجين كبيرة ولا تجعلهم يتزاحمون على موقفنا فأني آسف لأنه لبس تلك الدرع الملعونه » . ووقف الرجلان مواجهين بعضهما البعض في وسط الحلقة . وكذلك ظلالا يراقبان بعضهما بعضاً مدة وجيزة من الزمن ثم لم يلبث أن وثب المملوك والسيف مشهور في يده على خصمه فرد الطعنة عنه وكذلك راح الرجلان يتطاعنان ويتواثبان . وتوالت الطعنات تخطف الابصار ولا تكاد العين تتبعها لسرعتها ، وكان ستيفن يتلقاها متوقفاً متوقفاً منصرفاً ، منفعلتاً في سرعة الرق ، وكان السيف الافرنكي يبلغ بدن المملوك ، فيرتد عن الدرع ولم يمسه . فجعل ستيفن في اعماق نفسه يلعن ويسب ويتسخط على هذه الدرع التي حمت المملوك من شر سيفه . فصاح اذ ذاك احد المماليك دهشة واكباراً « عجباً والله انه لا يزال حياً الى الان »

فرد عليه عثمان قائلاً « وسيظل حياً كذلك على الرغم من هذه الدرع الملعونة » . ولكنه لم يتم كلماته اذ كان عمر بك قد وثب الى الامام ثانية فتلقى بدرعه ضربة أخرى من مقاتله ولصق حد السيف قايلًا بالجزء الجلدي من الدرع ، فضرب المملوك

خصمه بالسيف من اسفل الى اعلا ولو بقى النصل لحظة أخرى لاصقا بالدرع ، لهوى سيف المملوك على ستيفن فأطار رأسه عن بدنه . ولكن ستيفن وثب متراجعا واجتذب النصل من الدرع واندفع يطمعن خصمه فأصابه فى ذقنه . وتقدم المملوك ثانية يريد الالتحام به ، وراه ستيفن بعد ذلك وهو يسح الدماء التى كانت تسيل من عنقه ، وفى تلك اللحظة بعينها لمح ستيفن وجهه مراد وهو يطل عليهما من خلف صفوف الممالك وكان الاغا واقفا خلفه ، ومن ورائهما رجل طويل القوام

ذو عينين نجلاوين وقف يرقبهما باعجاب ودهشة

وكان الرجل أيوب بك اشجع مماليك مصر وسيد أبطالهم قطبة . والصر ستيفن مراداً وقد امسك بأيوب بك من ذراعه مشيراً اليه والى السلاح الذى كان يقاتل به . ولكنه لم يسمع ما كان يقول مراد اذ ذاك فى همس لصاحبه « انظر . الا ترى السلاح الذى فى يده . فأجابه ايوب « آيه . وهل تذكر متى رأينا مثله لآخر مرة وفى يد من كان ؟ »

فقال مراد بك « وهل تظننى انسى ذلك . ان عمر بك كذلك لا ينسى . ألا انظر اليه كيف تراه واجماً عابساً محاذراً محترساً وليس من عادته أن يقاتل خصمه بكل هذا الحذر والحيلة » .

فصاح أيوب بك « هاها قد عادا الى القتال ثانية » وفى تلك اللحظة كان المملوك قد وثب على خصمه مرة أخرى

وهو يعرض درعه لمقاتله ، ولكن ستيفن كان قد تعلم هذا الدرس ، فلم يشأ أن يغرس نصله في درع كهذه لا تفيد ، ولكنه تحايل على خصمه وأوهمه أنه يريد أن يضرب الدرع بسيفه فعرصه هذا ثنائية ، ولكن ستيفن كخطف البرق ضربه ضربة أطارت السيف من يده وشعر ستيفن بأن يده قد خدّرت من شدة الصدمة فحول السيف من يمينه الى يساره بينما وقف عمر بك كالمصعوق لما وقع به ، ولكنه بلا سابقة انذار القى بدرعه جانباً ونزع خنجرآ من منطقته ووثب على خصمه

فصرخ مراد صرخة منذرة فالتفت ستيفن صوب تلك الصبحة فانتهز المملوك التفاته وأهوى عليه ، فلم يجد ستيفن وقتاً ليتلقاه بسيفه وانما قفز الى ناحية وضرب المملوك من أسفل وامسكه من منتصف لحيته . وارتد المملوك من تلك الضربة القاتلة على ذقنه فوقف عمر بك لحظة محلقاً ثم ترنح قليلاً وسقط الى الارض صريعاً مغشى عليه . لقد كانت تلك الضربة ضربة ملاكم ماهر بذّ الاقران جميعاً . وانطلق المماليك سراعا يرفعون عمر بك عن الارض . ولكن مراداً لم يعبأ بالصريع ولم يحفل ، بل مشى رأساً الى ستيفن فتناول يده وجعل يقلبها بين كفيه وهو يقول « عجبا . ما الذى فى يدك . وبأى شئء ضربته . فأنى علم الله لم أر فى حياتى رجلاً يسقط كما سقط وأما اللعب بالسيف فذلك اعرفه واطالما رأيت سيفاً مثل سيفك هذا فى يدرجل أعز من اخى .

ولكنى لم أضر به كهزد ورأس النبي ما كنت أظن أن سيفاً كهذا يقف ويرد طعنات سيف كسيوفنا ودرع كدروعنا ، وإن رجلاً كعمر ضخم الجثة شديد الأسر يسقط مغشياً عليه من قبضة يد واحدة . ولكن ماذا كان باعث هذا القتال يا محمود . تكلم »

وبينا كان ستيفن يلبس قفطاناً بين هتاف المماليك وتهانيهم كان محمود يقص النبأ كله على مراد ، ومشى ستيفن يصحبه دثمان وحسن منصرفين من الساحة . وما كاد مراد يسمع الحكاية حتى صعد الدم في وجهه وصاح مغضباً « والله ليكونن لى معه شأن على ما فعل » . ثم اطلق الى حيث كان القوم قد حملوا عمر واذا غضب شيخ البلد احدث احداثاً قد يندم عليها اذ يعود الى صوابه ، ولذلك مشى حتى جاء الى المكان الذى وضع فيه المملوك وكاد يضع يده عليه . لولا أن ايوب منعه واضعاً يده على كتفه وهو يقول « تذكر ان الرجل ضيفك فهل تنسى أنت ما لم ينسه ممالكك ؟ » . فأجاب مراد « لقد قلت حقاً . ولكن اذا كان للضيف واجب فان عليه واجباً مثله لمضيفه »

فقال ايوب محاولاً تهدئته « هو ذلك ولكن الافرنجى قد علمه درساً ، فهل تريد يا سيدى البك أن تلقنه درساً آخر »
فأجاب مراد « لقد اصبت قولاً يا ايوب » . ثم مشى الى عمر بك فوجه اليه الخطاب قائلاً « يا عمر بك صاحب الصعيد لقد علمت القصة بخذايرها ولا يليق بى أن اتهم ضيفاً لى بالغش

والخيانة لكلمة قاهاصبي قد يكون مخطئاً فيما سمع . ولكن الذى لا ريب فيه هو أن مملوكك قد اساء فى قتاله وخرج عن اداب المقاتلة والمجالة . ولهذا خذ عنى هذا الحكم وهو أن جو الصعيد أصح لك من جو القاهرة ودعنى اقول لك — وهنا بدأ صوته يتهدج ويخشن — أنه لو كان عثمان السلحدار قتل اليوم ظالماً ودسيسة وأنا اعلم انك تكرهه وتطوى كشحك على عداوته واعلم أننى ورأس النبی ما كنت تاركا واحداً منكم حياً على الارض ساعة واحدة . فاجاب عمر مستخفاً متهمكماً « يليق بعظمة شيخ البلد أن يهدد ضيوفه »

فقال مراد بحدة « وما حكمك على الرجل الذى يتمتع بحقوق الضيافة ثم يسيء استعمالها » . فقال عمر بتكبر وقد دار بعينه حوله ليستمعين ببيكواته على تبرير ما قال « هذا محض افتراء ومن ذا الذى يجرأ على اتهامى بهذه التهمة »

واذ ذاك انبرى الاغاله يسأله قائلاً « ماذا تقول » ألم تسيء حقوق الضيافة يوماً فى الجيزة . فرد عليه عمر قائلاً « انك تنكلم بالاغاز » ولكنه لم يستطع أن يواجه نظرات الخصى بل ظل مشيحاً بوجهه عنه . فقال الخصى « تذكر سيف الافرنكى وابحث فى اعماق نفسك عن الجواب » فارتعش المملوك وظل ينظر الى مراد خائفاً . ومشى مراد فى صمت منصرفاً

الفصل العاشر

أنبياء سيئة

مضى على المصريين أربع مائة سنة وهم تحت نير المماليك ، حتى لقد أضحوا اذ ذاك ينظرون الى هذه الحالة كأنها حكم الله عليهم ولا مرد له ، ولم يكونوا يدرون بأن دولة المماليك أوشكت على الزوال ، وان جنديا محاربا اعظم جنديا ورسالة من أولئك الذين سادوا على مصر قد بدأ يمد عينه لامتلاك الكنانة ، ويتطلع الى السيادة على أرض الفراعنة .

وكانت الدلائل الأولى ظاهرة بيّنة ، ولكن لم يكن ابراهيم في القصر العيني ، ولا مراد في معسكر الجيزة مطمئنا حوله المماليك محفوفًا بشجعانه وابطاله قد ابصر شيئا من تلك الدلائل .

وأما الفلاحون أهل مصر فكابوا في جهل عما كان يجري بين أمم الغرب من الشحناء والخلاف . فأنجلة ظلت عندهم اسما لا مسمى له ، واسم نابوليون بونابرت الذي كانت الاطفال في القرى تذكره برعب وخوف ، بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ لم يكن جرى بعد على شفاه القوم في مصر .

ولكن في أسواق القاهرة والاسكندرية حيث كان الناس يتباعون السلم من القوافل التي كانت ترد اليها من أسواق آسية

والهند كان القوم يعرفون بعض الشيء ، إذ كانت القوافل تجلب مع سلمها وامتعتها الاخبار المتواترة عما كان يجري في الهند من السند الى بوندشيري وكبف كان الغرب يتقاتلون في تلك الاصقاع ويتذابحون ويتطاحنون على امتلاك أرض لم تكن ملك أحد منهم قط . والذين كانوا يجيئون من الشمال راحوا ينبئون القوم بنبا صيال الفرنسي على الطليان وامتلاكهم مدينة البندقية التي ظلت تتاجر مع الموانئ المصرية من قديم الزمان

ولكن المصريين وهم المؤمنون المسلمون لم يكونوا يدركون كيف كانت تلك الأمم تتقاتل وهي تعيش على عقيدة واحدة وهي الدين المسيحى . ولكن كان هناك بضعة أفراد قد تجلب لهم الحق ، وأدركوا ما وراء تلك الانباء فقد كان ستيفن يوجس خيفة على ذلك الترف الذى كان ينعم به أن يذهب من يده ، وتلك النعم التي كانت في حوزته أن تتولى عنه . وكذلك كان الخصى قد علم شيئا كثيراً مما كانت تلوكه الألسنة

وأما جول ليفر صاحب المتجر . وكان أكثر منهم مصادر لاستقاء الانباء ، فقد كان عليما بالحوادث والشؤون التي كانت تقع خارج مصر ، وجعل يراقبها وفي فؤاده منها الشك والخاوف لانه كان يخشى أن تحدث أثراً في تجارته النامية بعد أن نفقت واتسعت وطال كسبها . وان كان مطمعه وهو أن تكون له صلات

مشحونة في كل مرفأ من مرفأ الغرب ، فكان أ بعد شيء عن التحقيق ، كما كان دائماً . وكانت مرغريت قد جلبت بدخولها في خدمته شيئاً من تباشير النجاح ، فابتسم التوفيق له وتهدت هي دفاتره بالقيد والضبط وتغلقلت في المتجر أكثر من ذي قبل وكان ليفبر قد مزج التجارة بالوطنية اذ كان يرى ان سمعة بلاده فرنسا في مصر في يده ولذلك لم يكن يعمل على أن ترد من فرنسا بضائع رديئة مزجاة ، لئلا ترمى فرنسا باستيراد السلم الفاسدة المعشوشة . ولكن بضائعه لم تكن تتبادل في أيدي الفقراء وعامة الشعب المصري ، بل كان الاغنياء وحدهم هم الذين يقبلون على شرائها ، وكانت للاغنياء خاصة وهؤلاء كمادتهم كانوا يأخذونها اليوم وعند الدفع يقولون « بكرة »

ولكن مرغريت بفضل تديرها استطاعت شيئاً فشيئاً أن تغير تلك الطريقة فقد تغلغت في معرفة الخلق المصري وتمكنت من الالمام به بما عجز ليفبر وزوجها أن يأتيا بشيء مثله ، وقد أدركت ولوع أهل القاهرة بالفخفة والمظاهر الخداعة وحبهم المساومة و « الفِصال » فاستعاضت عن السلع الحريية الغالية التي كان المحل مخزونها بها ، بضائع رخيصة فخمة المظهر خداعة مغرية بالشراء ، واستبدلت الاثمان المحدودة « البريفكس » التي كان المحل يزهي بها ويعتز ويفتخر بطريقة أخرى تدع لطلاب السلع فرصة المساومة والأخذ والعطاء في الثمن . فلم تكن تدع

القدام ينصرف دون أن يبتاع شيئاً من المحل أو يخرج مؤجلاً الدفع
 الى موعد آخر على أمل أن يفلس الدكان ويفاق ابوابه
 ولم تقنع بذلك بل توصلت الى الدخول الى خدور النساء
 وزيارة «حريمات» البكوات واعيان البلد فكانت تزور السيدات
 والعقائل وربات الخدور لتعرض عليهن عينات من البضائع
 فكانت الاسرات تلقاها في مبدأ الامر كدلالة ليس الا ، ثم
 لا يلبث الزمن ان يؤلف بينهن وبينها فتصح صديقة لهن ، ذات
 مكانة عندهن ، حتى انقلبت الدلالة بعد مدة ضيفة يرحب بها
 ويؤهل لأن أولئك النساء وقد حيل بينهن وبين العالم الخارجى
 مضين يعشن في منازلهن على تلك الغريزة الالهامية التى نراها في
 الاطفال وهى سرعة الوثوق بما يحدث اثره في نفوسهم ، فلا غرو
 اذا اكتسبت مرغريت فى مدة وجيزة من الزمن حب أولئك
 السيدات واحترامهن . فكان كالأطفال يتحسسن ثيابها ويسألنها
 الاسئلة الغريبة ويرحن يلقين فى سمعها ويبتثن لها آلامهن
 واوجاعهن ، وما يشكين منه وما يعرض لهن ، وما يروق لهن وما
 يسوء فى اعينهن فكانت الوصفات البلدية التى يستعان بها على
 اكتساب زوج هاجر واستعادة حب تغير مع الزمن ، والتعجب الى
 بلع قاس ، وهزيمة قرين مستنفر خليم ، وعلى منع حسد الحاسدين ،
 وما يجعل المرأة تلد البنات بدل البنين ، كل أولئك الوصفات
 الخرافية كانت حقائق فى معتقدن لا شائبة للريب فى فعلها واثرها

وكن في اغلب الاحيان يطأن اليها ان تتناول منهن منديلا
 لتعلقه لهن على باب زويلة أو يسألنها أن تملأ لهن قلة من العين
 التي في الرملية ، لكي يبهن الله غلاما يصيح فرحة ازواجهن
 وكانت تلك الخرافات والالوهام على الرغم مما كانت تحاول به
 مرغريت أن تزيل أثره من نفوسهن ، قوية الجذور في أعماق
 قلوبهن ، لاسلطان لأحد على استئصالها أو الطعن عليها أمامهن
 فكانت مرغريت كلما جادلتهم تريد اقناعا تجدهن يرمينها بالجهل
 ويعمدن الى ذكر خمسين سابقة أو تزيد لأثبت صحة افكارهن
 ولكن كانت هناك وسيلة وحيدة استطاعت بها مرغريت
 أن تأسر قلوبهن ، وذلك صناعة الطب ، فقد كانت تلك الصناعة
 في أيام المماليك قد استحالت تدجيلا وخزعبلات وجملة من
 الخرافات والالوهام . ففي بيوت الذوات ، على الرغم من ذلك
 الترف الذي كان يملأ قصور السراة وتلك المناعم والحرائر التي
 كانت لساؤهم يرفلن فيها ، كانت الامراض تتمك بالنساء
 فتكا ، وكانت الردى تطيح بهن ، وما عجزت عنه الامراض ، وما
 لم يحدثه الموت ، كان هدفا لثرهات الخرافة ، معرضا للخزعبلات
 والجهل . ولم تكن مرغريت تعرف من علم الطب ومعالجة
 الامراض اكثر مما تعرفه أية امرأة أوروبية أخرى في بلادكمصر
 وما كانت تجهله أو ما كان ينقصها من العلم في أمراض كثيرة كانت
 تستعمل فيه العقل وتستخدم فيه البدهة حتى لقد كانت نساء

الدوات اذا استعصى الداء على المريض منهم وبلغ منهم اليأس
مبلغهم لا يلبث أن يصحن صارخات « ارسلوا في طلب الست
الافرنكية . ارسلوا في طلب الست الافرنكية »

وكان هذا العمل يشغل من فؤادها مكانا ظل خاليا ولم يستطع
عملها في التجارة وفي حانوت الشيخ ليفبر أن يملأ جزءاً منه ،
فقد تكون الامومة عند بعض النساء حادثاً صغيراً في حياتهم ،
ولكنها كانت عند مرغريت عاطفة عميقة جياشة متمكنة من
نفسها ، حتى لقد كان لعب بضعة أطفال عند ركبتيها يحدث لديها
لذة يقرب اليها فكرة الجنة فقد غرق ابنها في النيل وأما المخلوق
الآخر الذي كانت توليه حبه وتخصه بعطفها وعنايتها واخلاصها
فقد مضى عنها ليعيش عيشة مختلفة عن عيشتها ، ويريد في الحياة
آمالاً ومطالب لا تشاركه فيها ولقد جرح عزة نفسها حتى أدامها
احساسها بأنه رضى لها الذهاب والابتعاد وآثر اعتناق ديانة لم
يكن يؤمن بها وقد آذى طبيعتها الكريمة ذلك الشعور أكثر
من تركه دين آباءه للدخول في دين آخر . ولكنها رضيت لنفسها
الانتظار آمله انه قد يأتي يوم تستطيع فيه أن تثبت له حبها
واخلاصها فبقى ذلك الأمل مصدر الحياة عندها فمضت السنوات
تلو السنين ، واختلطت الشعرات البيض بتفاريق شعرها الاسود ،
ولم يعد ستيفن ولا رجع ! ولقد رأته أكثر من مرة في الطريق
وهي في حبرتها ونقابها ، طائفة ببيوت الاكابر ، فكانت عينها
< ١٣ >

تنظر إليه منهومة به وبأثوابه الفخمة الرائعة .

ففى ذات ليلة بعد ان تناولت العشاء ، وقد رفعت خادمتها السودانية بقية الطعام على المائدة ، جلست بجانب المصباح تقلب فى يديها عدة عينات كانت قد وردت الى المحل منذ ايام

وكانت متعبة من شغل النهار فلم تلبث أن طرحتها جانبا وأخذت الى خواطرها . وكانت كلها على الرغم منها تحوم حول زوجها . واذا ذاك سمعت وقع أقدام ليفبر وكان قد حضر فى تلك الليلة مبكراً على غير عادته . فدخل عليها الحجرة كيوم دخوله عند ما أنقذ زوجها مراد بك من مخالب الموت وقد بدت آثار الشيخوخة عليه من السنوات السبع التى مضت على تاريخ ذلك الحادث . خيته مرغريت بذلك الحزن الذى تحيى به الفتاة أباه الشيخ

وجلس الرجل فوق المتكأ ووضعت مرغريت أمامه علبة التبغ الانكليزى الذى أحضرته من بلادها لأجله لانه كان يؤثر قصبة التبغ اكثر من أى نوع من السجاير المصرية .

وجلس برهة صامتا ولكنه كان يلوح قلقاً مضطرباً وجاءت الخادمة بالقهوة فتتم يقول « الليلة حر جداً » ورفع عمامته عن رأسه ثم استرسل قائلاً « فاما أن يكون الحر قد اشتد عن ذى قبل أو ان الشيخوخة قد بدأت تحدث تأثيرها » فقالت مرغريت « بل انك تشتغل كثيرا يامسيو ليفبر »

فقال « كلا . لست أنا الذى أكد وأتعب وقد أصبحت أنام بعد الظهر منذ زمن بعيد ، ولكن هناك متاعب جديدة فإن فرنسا قد بدأت تهتم بمصر وقد أصبح يزورنى كثيرون من اهل وطنى لا لشراء بضائع ولكن لتلقف الاخبار والبحث عن الخرائط ومعرفة وسائل النقل والاماكن التى توجد فيها الابار وان كانوا يدعون انهم جاؤوا للبحث عن آثار مصر القديمة ، وهم يجهلون الفرق بين المأذنة والمسلة .

د وقد علمت ان مسيو ماجيلان قنصل فرنسا هنا قد بدأ يرسل التقارير تلو التقارير الى حكومته واكبر ظنى ان فرنسا تنوى الاغارة على مصر أو تريد العبور منها لأجل الهجوم على الهند ، فقد قرأت شيئاً من هذا القبيل فى الجرائد التى وصلتني من فرنسا » فقالت مرغريت بلمجة جزع « أرجو أن لا يكون الاهالى قد بلغهم شيء من هذه الانباء والا كان الخطر كله على الافرنج المقيمين الان فى مصر »

فأجاب ليفبر مهدئاً روعها « كلا . مع انى رأيت أحد الاغوات منذ ايام وقد حضر الى المحل لا بتياع شيء من السلع . وقد مضى يسألنى عدة أسئلة غريبة ولسلامة نيتى كنت أجيب عليها . ولولم آخذ الحذر أخيراً لالتقط كل شيء منى وأنا فى غفلة ربنا » . فأجابت مرغريت « ولكن ألم تلاحظ يامسيو ليفبر ان الانسان اذا بدأ يرتاب بشيء خرج به الشك الى سلسلة طويلة

من الريب والوساوس والشكوك »

فقال ليفبر « هذا صحيح يامدام . ولكنى لا أعرف لماذا أشعر بأن هذا الامر لم يعد شكاً فى فؤادى ولست أستطيع أن أبلى لك أسباباً ولكن أحس فى اعماق نفسى ان هناك ايما سيئة مؤلمة قادمة ولقد احسنت صنعاً اذ عملت بنصيحتك فأرسلت جميع الاوراق المالية التى كانت عندى الى بنك ليون »

فقات مرغريت « ولكن يحسن ايضاً ان نرسل جميع مالىنا من المال الى المصرف ونوقف ورود رسالات التجارة بعد الان . فلن كان فى ذلك خسارة تجارة سنة كاملة ، فهو خير »

فابتسم الشيخ وقال « لقد أصبح لدينا ما نستطيع به أن نعيش فى أوروبا براحة تامة ، مع أنه قبل أعوام سبعة كان ذلك حلاً بعيداً . آه يامدام . ليتك كنت شريكى فى المحل منذ عشرين سنة فوالله لما كان محل ليفبر ليجد ضرباً له فى عظمتة واتساع نطاقه من بومباى الى انتورب »

فضحكت المرأة وقالت « انك تولينى فضلاً كبيراً وثناء عظيماً يامسيو ليفبر . »

فأجاب الرجل « كلا . ولكن الشئ الوحيد الذى آخذه عليك هو كبدك واجهادك نفسك فى العمل والان ماذا فعلت من ساعة اقبال المحل . اننى أرى عيinat فوق المتكأ »

فأجابت مرغريت « ذهبت الى بيت الشيخ البكرى »

فقال ليفبر ضاحكا « ذلك الشيخ الذى يذكر الانسان برجال محكمة التفتيش فى اسبانيا فهل رأيت ياسيدتى قبل الان عبوسة وصلابة خلق وهيبة وجلالا فى بنى آدم مثل هذه ولكن كيف حال الصغيرة مش الحمد لله ؟ »

فقالت مرغريت « نعم . لقد خفت الحمى قليلا »
فأجاب ليفبر « الحمد لله واذا قدر لها الشفاء فسينسب شفاؤها لمضلك وعنايتك »

فقالت مرغريت « اننى لم أفعل شيئا غير اتباع ارشادات الدكتور ليبونى فقال ليفبر ثم تذهبن بعد ذلك اليه يوما بعد يوم فتشرحين له الاعراض التى ظهرت لمينك من نتيجة الفحص . ياسلام على الناس الجهلاء كيف يرفضون أن يزورهم الطبيب فى بيوتهم وقد يعمل رفضهم بأن الحريم مقدس لا تطأه قدم رجل غريب، ولكن ليست الحياة الانسانية مقدسة . وأن يغير الرجل منا ولو كان طبيبا على حريم من أولئك الحرم حريمة فى نظر هؤلاء المسلمين ولكن أن تذهب حياة ، وتقتل نفس فشيئة الله وارادته وحكمته . هذا منطلق على الطراز المصرى . ياهؤلاء الحمقى المغفلين »
وضحك الشيخ ملاء فيه ولكنه لم يلبث أن سكت عن الضحك فجاءه ، كما قد هيئت بخاطره فكرة أزالت الضحك عن شفتيه مضى ينظر حوله قلما مضطرب الاعصاب

فنظرت اليه مرغريت نظرة متفحصة وقالت « انك فى حالة

غريبة الليلة يامسيو ليفبر فأنى لم اسمعك قبل الان تتكلم بمثل
 طجكتك هذه عن المصريين «
 فماذا أَلَمْ بك « وماذا يفضبك »

فلم يجب بل جعل يتحسس رقبتة وقفطانه عند عنقه
 فنظرت اليه صاحبتة متسائلة وللحال بدا في عينها ظل الخوف
 فقالت « أية اخبار سمعتها ياسيدى وأية انباء جديدة »
 فأجاب الآخر « سيدتى لقد كان أولى بمثل أن يقيض الله
 له أن يحمل اليك دائماً أحسن الانباء ، ولكن لقد قدر على
 أبداً أن اكون نذير السوء ، وحامل الانباء الأليمة . وقد هممت
 الليلة أن اعود اعقابى الى منزلى ولكن فكرت في أنه خير لك
 أن تسمعى النبأ منى من أن تسمعيه من أى انسان آخر »
 فتمتمت المرأة برنة حزن « الا قل ماذا سمعت »

فقال ليفبر « سمعت ياسيدتى من رجل فى السوق يسكن
 بولاق أن مسيو ستيفن زوجك قد تزوج منذ بضعة اسابيع
 بأمرأة من قريبات مراد بك فتحررت عن نصيب هذا الخبر
 وللأسف وجدته صحيحا »

فظلت مرغريت محلمقة البصر اليه ، وهى شاحبة الوجه اشبه
 بانسان قد طمن طعنة قاتلة وجعلت تقول متممة وقد خفتت
 انقاسها « تزوج ثانية . . . ستيفن تزوج ثانية ! »
 فقال ليفبر بصوت منخفض وهو لا يدرى بماذا يجب

« هذا لا يهمك ياسيدتى . لأنه لا يغير مركزك »

فتلعثمت قائلة « انك اذن لا تدرك احساسى »

ولكن ليفبر كان فى الحقيقة يدرك مشاعرها . فقد تبين له
أن زواج ستيفن قد ذهب بجميع آمالها وقطع كل صلة لها بالماضى
فلم يجد الشيخ مايقوله لتعزيتها بل نهض فجعل يمشى فى الحجرة
يتمتم اللعنات وكلمات السخط على ستيفن وردته ومصر واهلها أجمعين

الفصل الحادى عشر

الجالوسية

كان الوقت فجراً ، وشوارع القاهرة خالية قفر من المارة ،
والسكون شامل .

ففى داخل جامع السلطان حسن المضاء بالمصابيح كان رجل
فى اطار بالية يرتعش برداً فى تلك الاسمال وكان الرجل نائماً ولكن
نوم المرتقب المنتظر

فاطفأ خادم الجامع مصباحا من تلك المصابيح وتلفت حوله
ثم قال « هل أنت بردان يا صاح ؟ »

فقال الاخر « الله معنا يا اخى » فضى الخادم ولم يلبث أن
حاد ومعه قطعة من الخيش « زكينة » وهو يقول « والله ان

تقواك لتخجل كثيرين من المسلمين اللاهين عن صلواتهم وإيمانهم
ألا أبسط هذا الكيس فوق بدنك فإنه من الخيش الاعتيادي
ولكن لعل الله سيبدلك منه يوما قفطانا من الذهب »

فتمتم الرجل قائلا « اشكرك أيها المحسن وبارك الله فيك
وكرر خيرك » . فأراد الخادم أن ينطلق في الحديث . ولكن
الآخر تلمت حوله فلما ثم نهض مستويا على قدميه ووقف موقف
الصلاة ، فلما رأى خادم المسجد منه ذلك وكان يود أن يجد انسانا
يكلمه ويثرثر معه ، اضطر مكرها الى الانصراف .

ولم يكد ذلك السائل ينتهي من صلواته ويجلس يسبح الله
على خرزات سحخته حتى أقبل يدنو منه شيخ رجل آخر منسلا
في خلسة ورفق كأنه قد انشق من الظلام وخرج

وكان الخوف يبدو في كل حركة من حركاته فتحرك السائل
من مكانه وحدثت سحخته صرعا في ذلك السكون ولم يلبث الشيخ
أن اختفى وراء عامود من اعمدة المسجد ولكن الشحاذا كان
قد رآه ونهض بألم من مجلسه فمشى يعرج يريد الباب وذلك الرجل
يمشى في أثره

واختفيا وراء جدران جامع السلطان حسن ، والسائل يمشى
في المقدمة . تم انحرفا الى جهة الجنوب الى ميدان الرملية وكان
يفضى الى الجبانات

وكان صوت الديببان التركي يسمع من ناحية اليسار وهو

يقول « دور قومندر أول » أى « قف من القادم ؟ »
 فلم يخفل السائل بالمداء ولم يكثرث ولكن الرجل الآخر
 كان ينكمش وينزوى رعبا كلما سمع ذلك الصوت
 وللحال وقف السائل ومضى يسأل رفيقه « هل أحضرت
 الاوراق ؟ » . فأجاب الآخر « نعم يا افندى انها مربوطة حول
 وسطى وهى تلتهب وتضطرم كنار جهنم وفى كل مرة أشعر بأنها
 تحدث صوتا يتولانى الرعب مخافة أن يكون القوم قد سمعوا
 ذلك الصوت وفى الحق ان يصيدنى غير عذاب الجحيم اذا اكتشفت
 معى هذه الاوراق »

فقال السائل « ولكن فكّر فى حسن الجزاء »
 فأجابه الآخر « أmaal . ما أظن إلا جزاء الشهيد جزائى »
 فقال الشحاذ « والا كياس العشرة من الذهب . أنسيها »
 فتولى الرجل الفرع وقال بلمهجة المتلهف « اذن سيدفعونها
 حقاً يا افندى جزاء على كل هذه المتاعب التى عانيت بها ؟ »
 فقال السائل ليزيل من فؤاد رفيقه كل اثر لاشك « يدفعون...
 وهل تظن ان الأمة الفرنكية تهتم بدفع عشرة اكياس ذهباً
 فتمت غادرت الاسكندرية ؟ »

فقال الآخر « منذ أربعة أيام . فدخات مصر فى الوقت الذى
 كان الحراس سيغلقون فيه الابواب »
 فراح السائل يعيد سؤاله « وهل سلمت الى الافرنك الاوراق

التي أعطيتك اياها ؟ »

فأجاب الآخر « نعم ومعى الايصال الذى أخذته منهم ومعى أيضاً أوراق أخرى دفعوا بها الى ذمتى وعهدى »
فسكت السائل رهبة ثم قال « حسنا . هلم بنا فان الفجر يوشك أن ينبثق »

وانطلقا كالعفاريت فى الظلام يجتازان الازقة والحارات ،
وينخطوان فوق الكلاب النائمة ، حتى وقف السائل أخيراً أمام
باب منحدر فى الارض فدقه باحتراس ففتح الباب فى سكون
فدخلا يتعثران فى الظلام

وأقفل الباب وراءهما وأشعل الرجل الذى فتح لهما من الحجر
والصوفان ذبالة مصباح فسقط الضوء على لحيته وانفه ولم يكن
مرتدياً ثوباً ممتازاً ، بل جلالية قدرة ، وكان مكتوباً على معارف
وجهه انه يهودى ، فضم الرجل الذى جاء مع السائل أثوابه كأنه
كان يخشى أن تمس الرجل اليهودى فتتنجس

وقال اليهودى « ان الافرنك قد بدأوا يشعرون بالقلق
ياافندى اذ ظنوا ان حادثاً سيئاً لابد قد وقع لك ، وقد نزلوا فى
شتيمة ووجهوا الى لعنات لا يمكن أن يوجهها مسلم الى يهودى »
فقال السائل بسرعة « أوصلنا الى محلهم » فشى اليهودى فى
المقدمة حتى وقف وأزاح سترا ثم أدخل رأسه وقال « لقد
حضرأ أياها الافرنك »

فصاح صوت جهير قائلاً « ياسلام . لقد جاء فى الوقت
والساعة . ولكنى والله قد سئمت الجلوس والانتظار فى هذا الحجر
الموبوء اللعين اكثر من سآمتى من رؤية وجهك يا اسحق . فان
منظر وجهك والله لا يتفق مع معدتى كما لا يتفق لحم الخنزير مع
معدة المسلم . » لعن الله اليوم الذى تركت فيه مكانى فى السفينة
وجئت الى هذا الكهف الملعون «

فصاح به صوت رجل آخر « حذار ياسيدى وتذكر انك
هنا منصور افندى التاجر فى الاثار المصرية القديمة »

فقال الاخر « آثار . وانتىكة . فى ذمة الشيطان هذه
الانتىكة يا حبيبى . فان هذا اليهودى المسمى اسحق هنا انتىكة
تكفينى ولست أحفل اذا لم أر أنتىكة أخرى غيره ولست أخفى.
عليك اننى عندما تطوعت لهذه الخدمة كان ذهنى مفعماً بالنساء
والحریم والقصور والخوريات فى الله . بدل القصور ها أنا أرى
الاقبية والكهوف ، وبدل الخور ها أنا أرى وجه اسحق ! «
فصاح رفيقه مشيحاً عنه بوجهه هارباً من حديث مؤلم كهذا
« دعهما يدخلان »

ولقد وصفها ذلك المتسخط حقاً بأنها كانت كهفاً لا أكثر
ولا أقل . فلما دخل الرجلان ، السائل ورفيقه ، أبصرا على
بساط حقير فى الحجرة رجلين جالسين وكل منهما فى جلاية
مصرية ، وكان احدهما قصير القامة ، ضخم البدن احمر الوجه .

تتجلى على وجهه طيبة القلب ولطف المعشر وخفة الروح ولكن كانت عيناه على فرط تملأهما تباين عن ذكاء مزيج بدهاء وخبت وكان رفيقه طويل القوام ضمر البسند وقد حسر العمامة عن رأسه فبدا جبينه الضيق العالى ، وكانت ملاحة الطويلة وخطوده العظيمة ولحيته الصغيرة تجعله مناقضا لهلل معارف رفيقه وخفته وتبسطة وسروره . وكانت لهجته عند ما قال « دعهما يدخلان » ثم عن صيغة الامر فى الطابور

فلما دخل السائل ورفيقه يتعثر فى اذباله وراءه ، بدأهما السائل بالتحية قائلا « السلام عليكم »

فأجابه اطرل الرجائين قائمة بلهجة قاسية « سلام »
فصاح الرجل الآخر من فجرا « ينعل ابو سلامكم . دعونا نتكلم بلسان آخر متمدن . فان هذا الافندى - مشيرا الى السائل - يعرف اللغة الطليانية ونحن نعرف ذلك عنه ويظهر انه سيكون له فرصة أخرى لتعلم اللغة الفرنسية ها . ها . »

فاحتج زميله قائلا « ينبغى لنا الحزم والاحتراس »
فصاح الآخر : « حزم ، واحتراس أشكرك . أظن هؤلاء الناس حمقى مجانين يا حبيبى فان اسحق يعرف كل شىء عنا - هذا الشحاذ كما نعرفه رجل دكى وأما عن هذا القبطى الناعم وجهه فانه ليبلوح أماهى كأنه يعرف علم القرون والاجيال . بالله نظر اليه . ليخيل الى والله انه نزل هذه اللحظة عن مثال من

التأثيل ! » فقال الرجل الطويل التامة :

« هل لديك الاوراق ؟ »

وبأشارة من السائل خلع القبطى قفطانه ووضع يده فى صدره ففك أزراره وانتزع من حول خصره منطقة من القطن فقدمها الى الرجل .

فتناولها الرجل الضخم البدن ثم ناولها الرفيقه ففرض غلافها وألقى نظرة على ما احتوت تلك الاوراق وقال لصاحبه :

« حسن . ان الزوارق كلها هنا والاىصال الذى كتبته أصحابنا

مما يدل على انهم استلموا الاوراق سالمة صحيحة غير ناقصة »
واذ ذاك نظر الى القبطى وقال وهو يخرج من جيبه
مقداراً من الذهب :

« لقد أدت العمل على أحسن وجه . أنظر هذا نصف المبلغ الذى وعدناك ان نعطيك اياه . واما النصف الباقي فسيُدفع لك يوم تغادر الاسكندرية »

فتملقى القبطى المال وجعل يعدده ويفرزه بطمع وجشع ولهف ولم يلبث أن بدا على وجهه أثر الغضب وخيبة الرجاء فمضى يشكو الى الشحاذ باعث الله ويدينه حزنه وخيبة آماله

فقال الرجل الفرنسى « ماذا يريد الرجل »

فأجابه الشحاذ « انه يقول ان هذا هو نصف المبلغ المتفق

عليه » فصاح الفرنسى قائلاً :

« هذا صحيح . ولكن هل تظننا مجانين معاتيه نحن الافرنك
فاننى ما دمت مبقيا عندى خمسة اكياس أخرى من الذهب على
ذمته اشعر بأن تحت يدي ضمانات خمس مثلها على تمسكه بالاخلاص
لنا » فتمتم الفرنسى الآخر قائلا :

« والله أنا عندى الخمسة الا كياس هذه ولا وجهه »

فانبرى الرجل الطويل يقول : « والآن اتركنا لحظة ولكن
لا تبتعدا عنا »

فخرج السائل ومن خلفه القبطى وضرب الستر على الرجلين
فقال ذو الوجه الاحمر لصاحبه « والآن يا سيدى . كل شيء
تمام ، الست ترى ذلك ! »

فأجابه رفيقه « تمام جداً فان سيدى الكولونيل لديه الان
الخطط والخرائط ومعها مذكراتنا والتصميمات التى رسمناها فلم
يبق امامنا من عمل نعمله غير ان نحصل على معلومات أخرى عن
الطوبجية التى لدى المماليك وتنظيم الخطة لجواسيسنا ولكن سيدى
الكولونيل يريد منك كذلك أن تستطلع الساحل شرق
الاسكندرية لانه سيقوم بنفسه باستعراضه من الجهة الغربية
وقد انحدر أيضاً الى جهة الرحمانية لاستكشاف الطريق برا ثم
يريد منا أيضاً ان نركب النهر الى رشيد لنستكشف الطريق ونضع
مذكرات عما نشاهده »

فتمهد الآخر وقال « والله انى لأود أن تنتهى قريباً من

هذه المأمرية الثقيلة فأننى لا أجد من عملى هذا غير الاضطراب الذى أشعر به . ويا للدهية لو انهم عرفوا بأمرنا اذن سيحكم علينا بأن تقضى ايامنا فى أشد العذاب ، وسيكون منظرنا يا صاح فى غاية الجمال اذ يظل رأس كل منا وهو مفصول عن البدن على الساحة العمومية . منظر فى غاية الجمال والجلال ولا سيما منظرى أنا . فان وزنى ٨٠ كيلو . ان رأسى يضرب من الان كلما فكرت فى ذلك الموت الزؤام »

فهر رفيقه كتفيه فلقا وقال « اننى اتوجس خيفة من نظرات ذلك القبطى »

فأجابه الآخر « ولكن يكره أولئك المسلمين باشد مما يكرههم اليهود وهو اشد من ذلك حبا فى الفلوس وقد ابعد فى التداخل معنا والاشتراك فى عملنا . وسيبدأ المماليك برأسه أولا » فقال الآخر « ولكن الشحاذ . لا ادرى ماذا الذى بعته على الاشتراك معنا »

فأجابه صاحبه « ان لديه ولا ريب اسبابا معقولة يكتمها لنفسه . وفوق ذلك لم يضمه لنا مسيو ماجيلان القنصل » فقال الآخر « نعم . ومع ذلك على رقة حاله وفقره وصناعته لا يزال يوحى الى النفس باحترامه وتهيبه »

فأردف رفيقه على قوله « ولا أدرى ماذا كنا سنفعل لو لم نجده . فاذا طلبنا شيئا فلا نلبث أن نجده عند منال ايدينا . حملة

أو وسائل نقل ففي خطف البرق تأني الحملة وتقدم وسائل النقل
ولقد سأله عن عدد جيش المماليك وقوته ، فأيناه يحفظ ذلك
عن ظهر قلب ولا تقوته صغيرة منه . ويظهر أن الخطة مدبرة
من قبل . ولكن من الذي يقبض على الخيط . هذا هو السر
واللغز وعلى كل حال لم يبق لنا هنا من عمل ، وخير لنا أن نسافر
الى رشيد في عرض النهر »

فصفق الآخر بيده قائلا « دعنا نطلب الشحاذ يدخل علينا
الآن » . فدخل اسحق على النداء وجاء بالشحاذ فجلس هذا
مترعا امامهما على البساط

فقال الرجل الفرنسي « لقد عزمنا على السفر الى رشيد فمتى
يمكننا الرحيل ؟ »

فأجاب الشحاذ « في الفجر »

فعاد الرجل يسأله « ولكن لابد من عمل الترتيب لذلك »
فقال السائل في صمت « لقد اعد كل شيء »

فصاح الفرنسي « عجبا . يا الهى . اتنا لم نفكر في هذا السفر
الا منذ بضع دقائق فقط »

فقال السائل « نعم . ولكن لابد من السفر الى رشيد
والقارب في الانتظار ببولاق »

فتمتم الرجل الضخم قائلا « هذه بلد ملأى بالعجائب . وأنت
ياشيخ لا تقل في الغرابة عن أولى تلك العجائب . ولم يبق عليك

الا أن تخبرني متى يأتى الجيش وفى أى مكان سيقع القتال ، وماذا سيكون مآل الحرب »

فقال الشحاذ متفاديا من الحديث « هذه يد الله يا سيدى »
فقال الرجل الضخم وهو لا يزال فى دهشة « وعلى ذكر بولاق
قل لى من القائم بشؤون تلك الميناء . فقد رأيت المفتش اذ لا
أدرى أى اسم يسمونه به يوم وصولى بالذات . وباسلام يا أخى .
لقد نظر لى نظرة مخيفة لم أنبسط منها . فلما قلت له اننى تاجر
انتيكه نظر الى نظرات فهمت منها بكل جلاء انه يريد ان يقول
هذه الكلمات « انت كاذب ! »

فابتسم السائل وقال « انه رجل انكليزى اعتنق الالام
واصبح يسمى اسماعيل افندى »

فصاح الاخر مضطربا « انكليزى . . . ارجو ان لا يكون
قد شتم ريحتنا »

فاجاب السائل « هذا لا يهم . فانه رجل كسول بليد وقد
سرت فى عظامه عدوى البهالة المصرية ولن تراه يقول شيئا
اكثر من كلمة معلمش . وعلاوة على ذلك لقد تزوج امس فقط »
فضحك الفرنسى ملء فيه وقال « انت فيلسوف يا صاح ! »
فقال الرجل الطويل بلهجة المحاذر الموجس خيفة « وهل تعلم
احداً قد عرف سر مجئنا الى مصر »

فأجاب السائل « نعم . رجل واحد فقط على الاقل وهو

اغا من اغاوات مراد بك »

فصاح الرجل الضخم قائلاً « يا للشيطان . كيف توصل الى ذلك ؟ » . فأجاب السائل « هذا مالا أعرفه ولكنى على يقين من أنه قد اكتشف السر . وهو يعلم كذلك بنبأ وجود الكولونيل فلعل له جواسيس هناك »

فصاح الفرنسي « يا الهى . ماذا سيقول مراد عن ذلك ؟ »
فأجاب السائل « انه لن يصدق النبأ اذا نبىء به بل سيمتشق السيف ويقول « دعوهم يقدمون فانى سأقذف بهم الى الساحل ياله من احقر ! »

واتم السائل كلماته الاخيرة فى لهجة استهزاء واحتقار وسخرية فقال الرجل الصخم بنخب « انك لا تحب شيخ البلد . اليس كذلك » . فاحتدم السائل قائلاً « اتقول احبه . الله شاهد بينى وبينه . انظر الى قدمى يا افندى »

قال ذلك وازاح الثوب عن ساقيه فبدتا عاريتين معوجتين فصاح الرجلان « يالله ! » ثم تبادلا النظرات واطرق برأسيهما اذ ادركا مافى نفس كل منهما

فقال الرجل الضخم « وهل سنراك غداً ؟ »

فأجاب السائل « الافضل أن لا اكون .

اسحق الا أن يوصلكما الى المكان ومعكما صنادير

فقال الرجل الفرنسي « اذن اليس هناك شيء نستطيع أن

تؤديه لك لانك كنت لنا مفيداً ومهدت لنا انفاذ المهمة .

فتراجع السائل خطوتين

فقال الفرنسي على غير ارادته « معذرة »

وعاد الرجل الطويل القامة يقول بصوت رهيب، كأنا يصرف

السائل من حضرته « اننا سنرفع تقريراً لاولى الشأن في جيشنا

عن مسلكتك معنا وخدماتك الجليلة »

ولكن الرجل الضخم اردف يقول « واكبر املى أننا عند

ما نتقابل مرة أخرى لن نكون في هذه الاثواب المستعارة .

فاذا قدر لنا أن نجىء الى مصر فاسأل عن القومندور ديون

من البحرية فيسكون لى السرور برؤيتك »

ومد يده بالسلام والمصافحة

فتردد السائل لحظة عن مد يده ولكنه تناول يد الرجل

فشد عليها بقبضة غير منتظرة وحياء في عجلة وانفلت يظلم في مشيته

ففكر الرجل الضخم ملياً ثم لم يلبث أن تتم قائلًا « ان حول

هذا السائل دلائل سر لا يستطيع أن ادرى كنهه »

وانطلق السائل والقبطى فى أثره حتى بلغا ثمانية جامم السلطان

حسن وكان المصلون يهرعون اليه اذ ذاك لصلاة الصبح الباكرة .

فوقف السائل عن المسير قائلًا « اننى ذاهب للصلاة »

فتمتم القبطى دهشة واستغراباً « انك ولا ريب أتقى الاتقياء

وأول المؤمنين ورعاً وعبادة »

فأجاب الآخر « ولماذا لا افعل ذلك . أتريد أن اخسر نعم
الآجلة وأنا لم انعم في هذه العاجلة »

فبدأ القبطى يتعامل ويتشكى وقد تولاه الشك وقال « ومتى
سأخذ الخمسة الا كياس الاخرى من الذهب ؟ »

فقال رفيقه « ستدفع لك فى الاسكندرية . ان الافرنك
لا يلحظون وعودهم . ولكن أريد منك أن تذهب معهما الى
رشيد لكى تعود فتخبرنى بنتيجة السفريّة . اذن كن فى بولاق
فى الساعة الثالثة بعد الظهر ولكن احذر أن يراك المفتش الافرنكى
هناك ولو سألك فكن على حذر فى اجوبتك »

فابتسم القبطى ابتسامة السرور وقال « الحمد لله لقد انتقمتم
لنفسى . فقد آدانى مرة ذلك اللعين ولكن تأرت منه فى سبيل
تلك المرة مائة مرة . لقد ضربنى أنا ميخائيل القبطى ولكنى
سحقت فؤاده وجعلت أيامه أسوأ مرحلة فى حياته ، مفعمة
بالآلام والاحزان والحسرات ، ولو انه لا يعرف اننى أنا الذى
كنت السبب فى ذلك . فلا تخف علىّ . فانه لن يرانى »

فتمتم السائل يقول « لا بد من الحذر أيها الأخ : ألا ترى
هذه الفسقية التى يرمى فيها الجناة الذين يستهدفون لغضب شيخ
البلد . ثم ألم تسمع بقصة رجل علم بمكيده كان قد دبرها اسماعيل
بك ضد مراد ، وكان الرجل الذى رفع الخبر الى مراد مشتركاً فى
تلك المكيده ، فى مبدأ أمره ثم انقلب على اسماعيل بك وأراد

أن ينتقم منه فحمل النبأ الى مراد فلم يكن من مراد الا أن وعده
أن يعلا فنه ذهباً »

فقال القبطى بلهفة « وهل برّ بذلك الوعد . وهل اصاب
الرجل منه ما وعده به »

وبدا فى عين القبطى اذ ذاك بريق الطمع وحب المال
فقال السائل « فلما أفسدت المكيدة على اصحابها واضطجع
أولئك رفاتا بالية فى مضاجعهم الاخيرة خلع مراد على الرجل شملة
من الذهب ، وأمر عساكره بأن يحضروا ألف كيس من الذهب
فقال القبطى متلعثما من شدة الدهشة « ألف كيس . ياسلام .
حقاً تلك منحة سلطانية »

فاسترسل السائل يقول « ولما جىء بالمال قال له مراد
« لقد وعدتك أن أملاً فلك ذهباً . فكان جواب ذلك اللاحق .
نعم يا مولاي الكريم المعطاء . فقال مراد « وسيكون لك ما وعدت
فان مراد لا يرجع فى وعد يعد » وأشار الى عساكره فعدّوا نحو
الرجل فطرحوه أرضاً وجعل الرجل يصيح ويصرخ وقد سمعت
صيحاته بأذنى . ولكن العساكر جعلوا يضعون قطع الذهب فى
فم الرجل ويدفعونها الى حلقه واحدة واحدة حتى ألقى المال
كله كما وعد فى جوف الرجل . فلما انتهى العساكر من ذلك العمل
قال مراد « ألم أبرّ بوعدى » ولم يجترىء احد أن يكذبه أو
يواجهه بنقد أو لوم وعاد مراد يقول « والان أريد الذهب ثانية

فشق القوم بطن المسكين وكان لا يزال فيه بقية من الحياة وأخذوا
المال ثانية من جوفه »

فاختفى ذلك البريق الذى كان فى عين القبطى واصفر لونه
وكان يهمس همسا « يا آله السماء . هل فعل ذلك ؟ »

فعاد السائل يقول « نعم . فعل ذلك أيها الأخ . وقد رأيت
ذلك بعينى رأسى فلا تنس أن تكون الساعة الثالثة فى بولاق .
سلام عليكم »

ومشى منصرفا الى المسجد

الفصل الثالث عشر

مجلس الحرب

مضت ايام فتكشف للعاليك ما كان من نية الفرنسيين ،
وارسل عثمان المملوك الفتى الى الاسكندرية وعاد يحمل انباء الى
شيخ البلد فدخل القاهرة على جواده فى خمس عشرة ساعة
ولم تلبث القاهرة ان ضجت واضطربت ولم يكن الاهالى
يعرفون حقيقة الحال ، وانما اوحى اليهم انه لا بد من ان يكون
شئ غير اعتيادى قد وقع فى المدينة

وانطلق رجال مراد بك يركضون جيلاهم على آخر سرعتها
فى الدروب الضيقة غير مكترئين بمن يدهمونهم فى طريقهم .

وجعل السكان يتساءلون في حيرة ماذا وقع او ماذا كان موشكا ان يقيم، وجعلوا يجتمعون زرافات ويتحدثون في جلسات وجوع وعمد التجار من الحوادث التي شهدوها من قبل الى اقبال حوانيتهم اذ من كان يدري لعل مراداً و ابراهيم قد رجعا الى المقاتلة والتخاصم والتنابد كعادتهما القديمة .

ولم يابث أن شهد اهل القاهرة علماء الازهر ومشايخه يركبون حميرهم يريدون الاسوار القبلية للمدينة ، ثم تبعهم قاضي القضاة في أبهة موكبه وروعة مظهره ثم تلاه بكري باشا سفير السلطان في موكب من حراسه وكان بين الجيزة والقصر العيني في ذلك اليوم القوارب والسفن رائحة غادية .

والى مجلس الحرب الذى دعا اليه الداعى فى قصر ابراهيم بك قدم نحو من عشرين رجلا جهرتهم من بكوات الممالك .

وكانت من عادة هؤلاء البكوات فى تلك الايام أن يحضروا الى المجلس مدججين بالسلاح ، لأنهم كانوا يعيشون فى عصر مخوف بالخطر وكان كل منهم فى ريب من صاحبه ، وقد اقبلوا الى مجلس الحرب وهم يخشون أن تكون تلك حيلة مدبرة كادها لهم مراد للايقاع بهم

وتصدر بكري باشا المجلس اذ كان الوالى والنائب عن السلطان . وان كان فى الحقيقة ضعيف الاثر لا يذكر بجانب مراد و ابراهيم وكان هذان الرجلان يختلفان عن بعضهما البعض فى الاخلاق

والمشاعر . وكان مراد جالسا وقد اتقدت عيناه كأنما كانت نفسه
ترحب بالحرب القادمة بفرح وحشى رهيب وكان صوته خشنا
متهدجا وقد حاول أن يغالب وجدانه فلم يستطع

وأما ابراهيم فقد جلس صامتا ساكنا ممسكا بلحيته يسمع
الى حديث صاحبه حامداً لا يتحرك . وان كانت عينه تراقب مراد
وادنه لا تنفوتها كلمة من قوله . وكان يطرق رأسه فى صمت ورهبة
ووقار اذا وافقته فكرة ، فاذا لم يوافق على أخرى ولم يعجبه من
قول الآخر رأى جلس حامداً لا يحرك ساكنا ولا يشير اشارة

ياهما من رجالين خطرین . فرجل منهما هزأ بالخاوف مفترس
مفلق العاطمة ، ممتشق السيف لأية ملجمة تعرض له ، متأهب
للقتال فى أبة لحظة . على حين كان ابراهيم رحلا محاذراً يجنح
دائما الى المسكاند والنساءس ، عذب الحديث ، رقيق الصوت ،
لا يكاد يرى الانسان سيفه المحتفى وراء نفظانه

وحاس فى المجلس بجانب مراد الا انى بك واقعد سمي بالألنى
لانه كان اشترى بألف دينار ثم بجانبه جلس على بك الطرابلسى ،
وفى المؤخرة وقف عثمان بحمل سيف مراد ، وهى وظيفة شرف
كانت له وعلى الرغم من تعبته من السفر الى الاسكندرية والعودة
الى القاهرة لم يرتض أن يذيب عنه غيره لتأديتها

واتخذ مجلسه بجانب ابراهيم أيوب بك الدفتردار ، وكان من
قبل صديقا حميلا لمراد و ابراهيم ، ولكنه بعد ذلك اعتزلهما ولم

يشأ أن يتحيز لأحدهما ويغضب الآخر ، وكان القوم جميعاً يعترفون له بأنه أبسل المماليك جميعاً وأنه سيد من ينظم الحرب القردية الكثيرة المكاييد والمكامن ، وأنه لا مثيل له ولا قرين في القتال بالسيف ، وتسديد الرمح ، ولكنه مع كل هذا كان ولوعاً بالكتب ، صديق العلماء رفيق الكتاب وأهل العلم والدرس

ولذلك جلس اذ ذاك صامتاً منهمكاً في تفكيره بينما راح مراد يقول معلناً عن آرائه بصوت خشن مخيف :

«ياسعادة الباشا وياسعادة البكوات. لقد علمتم الانباء التي جاء بها مملوكي الساحدار من الاسكندرية وان الافرنك الملاعين قد نزولوا بالبر وكانوا يغيرون على البلد عند ما تركها ويعملون فيها السلب والنهب ، وقد وردت الى تقارير السيد محمد الكريم حاكم الاسكندرية وفيها يقول ان الافرنك قد أحاطوا بالمدينة كالجراد المنتشر ولاسكهم والله سيندمون ولات ساعة مندم فدعوني أملك معي خمسة آلاف من المماليك، تروا اني لن أترك كلباً واحداً منهم على هذه الارض »

فقال بكري باشا «اننا لانشك في شجاعتك واقدامك ونعلم كذلك انه لا يستطيع أحد أن يقف في وجوه ممالكك ولكن هذا الموضوع يختص بمولاى فى استانبول ولا بد لنا من أن نعلمه ان الفرنگ قد أغاروا على ولاية من ولاياته »

فقال مراد باستخفاف ولؤم « دعه يعلم ذلك ولكن ما الفائدة التي ستجنيها منه اذا علم بالنبأ وسيستغرق وصول الخبر اليه عدة أيام ولا بد أن تنقضى عدة أشهر قبل أن نرى جيشاً تركياً قد وصل الى مصر وقد كنا ننتظر وصول هذا الجيش لقتال المماليك منذ أربعمئة عام ولكنه لم يحىء »

فانبرى له ابراهيم يقول « هذا كلام له خبيء يامراد ولكن هناك قوم سيظالبون بنصيتهم من النصر ومن رأي أن ندعو جميع البكوات قبل الشروع في التعبئة. فاذنا تقول في هذا يا ايوب! » وكان ابراهيم يخشى أن ينتصر مراد بخمسة آلاف مقاتل ، ثم تحت تأثير نشوة النصر ينقلب هو وجنده عليه ليقاتله أو يقتله ولما سمع ابوب هذا السؤال انتبه وتحفز في مجلسه ثم أجاب « اننى لا أبصر في الظلام نوراً يا ابراهيم والعدو أمامنا فينبغى أن نتأهب للحرب ، وكما قلت ينبغى أن ندعو البكوات الذين في المديرية القصية ونستحث على الخروج الى القتال قبائل البدو كذلك ، ونثير البلد كله لمقاتلة الفرنك اذا أغاروا على القاهرة ، ودعونا نرى عدد المدافع ومقادير الذخيرة التي لدينا في الترسانة وعدد القوارب التي سنضطر الى استخدامها لارسال الجنود المشاة عن طريق النهر ويجب أن نربص بهم الدوائر ونقف للقائهم ولا ندع لهم وقتاً للراحة بل نعمد الى مافعله الظاهر ببيرس في واقعة المنصورة يوم أخذ ملك الفرنك أسيراً »

فصاح مراد « مرحى لهذا الرأى يا أيوب. ولكننا لن ندعهم يحضرون الى القاهرة بل سنقذف بهم الى البحر عند الاسكندرية » فأجابه الآخر بسكون « الله وحده يعلم فقد رأيت فى المنام منذ بضعة أشهر كأن الافرنك قد لأموا الى القاهرة ولم آر الممالك يسحقونهم وما شهدتهم بعين النائم قد قذفوا بهم الى البحر وانما رأيتنى طريحاً على الارض والسيف مكسوراً بجانبى وأثوابى تقطر دماً ». وكان فى ذلك الصوت رهبة النبوءة فلم يسمع السامعين غير السكوت

وللحال عاد مراد يقول بصوته الجاف الخشن « لو كان هذا القول صادراً من رجل آخر غيرك يا ايوب بك لقلت ان هذا الحلم جاء من عقل مضطرب مجنون » فأجابه ايوب بثبات وسكون « وهل تؤكد أنت ذلك الان أم تنكره ». فقال مراد « لقد عرفتك جد المعرفة ، ولطالما كنت بجانبى فى ساحة القتال »

فأجاب ايوب « وسأكون بجانبك مرة أخرى يا مراد وستضطرب الى الركض حتى تلاحقنى لاننى بمشيئة الله سأضرب للايمان ضربة تبلغ صميم قلب العدو »

فقال ابراهيم « وكان يخشى أن تبد من مراد كلمة طائشة فيقع من الخلاف مالا ينبغي أن يقع فى تلك الساعة الرهيبة » نحن لانشك فى ذلك يا ايوب »

وقل مراد في أثره « ان اقتراحك حسن يا أيوب . فليبعث
الى بولاق في طلب المفضّل الافرنكى »
قال ذلك والتفت الى عثمان حامل سلاحه
فأجاب عثمان « انه في الخارج يا أبى فهو الذى احضرنى في
القارب والآن فى الانتظار »
فقال مراد « حسن جداً . وأبعث أيضاً فى طلب الفرنكى
مدير الرسالة . »

فأجاب البنى « انه ولا ريب الآن هنا فقد ظن رضوان
افندى أنّ الافرنكى قد يحتاج اليه فأرسل اليه ينبئه »
فابتسم مراد وقال « آه . ان هذا الاغا عقل من عشرات
من البكوات وأنا منهم كذلك فقد بئانى بهذه الاغارة منذ بضعة
أشهر ولكنى ظننتها حلم مجنون ، ووهم متخيل وقد كنت أنا فى
الحقيقة المجنون الخالم »

فدخل ستيفن بثبات ورباطة جأش اعتادها من جنديته
القديمة . ووقف لا ينكمش ولا ينزوى أمام نظرات الجمع وقد
استقرت عليه

فانبرى له مراد فقال « هل سمعت بأن الفرنك قد نزلوا
الى بر مصر يا افندى ؟ »
قال « نعم »

فما د مراد يسأله « وكم من القوارب تستطيع أن تقدم غداً

وكم تحمل من الجند »

فأجاب ستيفن « فى مكنتى أن أوجد قوارب تحمل
ثلاثة آلاف جندى . وبعد يومين أخرى خمسة آلاف »
فقال مراد بخشونة « أتقول هذا على وجه التأكيد أم

قولا مرسلا على عواهنه »

فأجاب ستيفن بثبات وسرعة « بل انى أجدّ فيما أقول »
فالتفت أيوب اذ ذاك الى ستيفن وقال « اسمع يا افندى .
انك افرنكى فنبئنا الى أى الفريقين ستنتحاز الآن . أتقاتل
فى سبيلنا أم فى سبيل الافرنك ؟ »

فأجاب ستيفن « لقد اكلت من عيشكم وملحكم . وفوق
ذلك فان الفرنسويين اعداء للشعب الذى أنا منه »

فقال ايوب « هذا قول كريم . ولكن تصور أن الانكليز
هم الذين قدموا ، أو سيأتون يوما الى هذه البلاد ليفتحوها . فمن
يدرى لأن العالم اليوم مضطرب ، فماذا كنت اذ ذاك فاعلا ؟ »
فظل ستيفن لحظة صامتا .

فصاح به أيوب « أجب . أنك الان مسلم . فهل تحارب فى
سبيل دينك أم لا ؟ »

فوقف ستيفن ينظر فى وجوه الجمع وقد تصبب من جبينه
العرق البارد وقد شحّب لونه واصفرت وجنته
وجعل يسائل نفسه « ماذا هو فى الحق فاعل ؟ »

لقد كان انكليزى الجنسية وكان أيضاً جندياً ولبس شملة
المقاتل فى سبيل بلاده ولكن ماذابقى له من تلك الجنسية يومذاك
لقد كان مصرياً باختياره ، ومسلماً أيضاً صمياً

فاعاد مراد عليه السؤال بصوته الخشن « اجب على السؤال
يا افندى ؟ » . فقال ستيفن بصوت رهيب « أنى سأحارب
فى صفكم ضد أى شعب يأتى مادمت حياً »

فعاد يسأله « اقسم على ذلك »

فقال ستيفن « اقسم بالله العلى العظيم انى لفاعل ! »
فأطرق الجمع رؤوسهم موافقين فى صمت فقد كانوا يعرفون
الرجل وقد تبين لهم الاخلاص فى نبرات صوته
ولكن لم يكن زعرستيفن وخوفه وتردده يوم اعتنق ديننا
آخر غير دينه يشبه ماتولاه اذ ذاك من الاحساس .

لقد كان هذا السؤال يتردد فى صدره ولكنه كان يؤجل
البت فيه من يوم الى آخر . ويقول لنفسه « بكره .. بكره »
وفى خارج المجلس التقى بمكسيم ليجران . وهو الرجل المرتد
مثله فصاح هذا به « هالو . أيها الرفيق . هذه أخبار طيبة والله
يوم تنفذ قنابلى فى صفوفهم سيندمون ويأسفون لأنهم طردوا
مكسيم ليجران من فرنسا ولفظوه لفظ النواة . نعم . لقد آن لى
أن أضمد جروح نأرى القديم ! .

فكان جواب ستيفن له « فى ذمة الشيطان أنت ومدافعك ! »

الفصل الرابع عشر

معركة الاهرام

وتأهبت مصر للحرب وأعدت عدتها وللمرة الأولى وقف
المماليك والمصريون معا في سبيل قضية واحدة مشتركة ، فان
المصريين من قبل لم يسهموا في المناوشات الاولى التي كانت تقوم
بين المماليك وبعضهم بعضا

ولكن كانت بلادهم الان في خطر داهم من قوم غرباء عليهم
في دينهم ، فسارت الدعوة الى القتال والوثبة الى السلاح من
الاسكندرية الى الصعيد تثير الفلاحين من غيظانهم واصحاب
القوارب من فلايكهم ومراكبهم والبدو من صحاراهم التي كانت
تترامى الى الواحات الخارجة

ولم يشأمراد أن ينتظر وصول النجيدات ولم تترك طبيعة القلق
بل يقعد للدفاع عن القاهرة وسار في الف مقاتل من المماليك للقاء
الطلائع الأولى من جيش العدو وترك ابراهيم للدفاع عن القاهرة
وعمد ابراهيم الى بولاق فخصنها بالخنادق والوسائل الحربية
الاخري ليمنم الطريق على الفرنسيين اذ جاؤوا من الضفة الشرقية
للنهر . واستعان باستيفن وكان هذا يعرف الشيء الكثير من

فنون الاستحكامات لانه كان فى فرقة المهندسين لجعل يعد الخطط
الدفاعية ويرسم التصميمات ويدفع بها الى ابراهيم بك وبكرى
باشا الوالى ، فكانا ينظران اليها وينطلقان يسألانه عدة أسئلة ثم
يقولان له « عد « بكرة » ثانية

لجعل ستيفن يلعب ويسب شاتما متسخطا
ولكن الفرنسيين استفادوا بالزمن وكانت قد مضت اثنا
عشر يوما على نزول الفرنسيين الى البر فسقطت الاسكندرية
ورشيد فى أيديهم ثم اجتاز جيشهم الصحراء فوصل الرحمانية
الواقعة على النيل

ولم تلبث أن جاءت الانباء كالصواعق تعلن اندحار مراد
فى جبارس وتركه أمتعته ومدافعه ومهمات ورائه وعودته الى
القاهرة على جناح السرعة

فلما جاءت تلك الانباء نثرى الى أهل مصر فزعوا الى العمل
وأدركوا عاقبة الاستسلام للقدر والنوم الى الحوادث فاشتد
النشاط ، واستعرت الحمية وأقبلت جموع من الفلاحين والعمال
يحفرون الخنادق من بولاق الى شبرا ، ووقف فى بهرتهم ستيفن
يحفر الارض مثلهم كأنه رئيس الفعلة وكأنما يحاول ان يفعل فى
ايام ما كان ينبغي له أن ينجزه فى أسابيع

وفى الازهر جعل العلماء يجتمعون فى كل يوم ومن بينهم
الشيخ فضل يقرأون البخارى اذ لما كانوا يعجزون عن امتشاق

السيف والرمح رأوا انه خليق بهم أن يسألوا عون السماء ، ويطلبوا
النجدة من خالق الكون

وانطلقت في النيل المراكب لا يحصى لها عدد تحمل الفازعين
الجازعين بآمتعتهم وسامعهم الى مكان أمين في الوجه القبلي ، وأغلقوا
أكثرهم دورهم وأخذوا معهم نفائس ما يملكون ومضوا الى قراهم
في الارياض مبتعدين عن الخطر

ورأى الشيخ البكرى جزع نسوته وعائلته فأرسلهن الى
الى قريته في الواسطى الا ابنة له كانت لا تزال مريضة لا تستطيع
تحمل مشاق السفر وكان لا مفر له من الخضوع في كل يوم الى
الازهر ليشترك مع العلماء في تلاوة البخارى واقامة الصلوات
واستمطار رحمة الله ، فخشى أن يترك في داره الفتاة وحدها بلا
أحد يقوم على تمريضها ، ففزع الى مرغريت ليعهد بالبنات الى
رعايتها .

وكانت مرغريت تريد أن لا تتحمل هذه المسؤولية المخيفة
لولا أن المسيو ليفبر قال لها عندما اظهرت له مخاوفها لما كانت تعلم
عن الفتاة من خفتها وتذكر انها قد قاربت سن الزواج « ولكن
لن يطول بقاؤها عندك يا سيدتى ، وبيتك في معزل عن العالم
أشبه شئ بالحريم الشرقى ولا يغشى دارك من الرجال زائر ولا
ضيف اللهم الا ليفبر هذا الشيخ المعجوز ولن يمانع أحد من
المسلمين ولا الشيخ البكرى نفسه في زيارتي لبيتك والفتاة فيه »

ومضى يضحك وهو يضع يده على رأسه الأضلع اللين
المنتوف الشعر

وأما نفيسه ، وهى لا تعرف شيئاً ولا تدرك مسؤولية ،
طائشة اللب كما دتها ، فقد سرت من الضجة العامة التى رأت آثارها
حولها ورحمت بها كأنها نعمة أرسلها الله لى تتخلص من عيشها
السقيم ولون الحياة الراكدة التى تعيشها

وأغلق المعلم فرج حانوته فى سوق النحاسين ، وجمل يصرف
وقته فى تلقف الانباء آونة واخرى يشحذ حد بلطة كبيرة وهو
يتهدد المغير القادم لفتح بلاده ، وكانت نفيسة تضحك منه كلما
سقطت البلطة من يده على رحله فجأة نصرخ من شدة الألم .
وكلما بلغ اذنه خبر اقتراب الفرنسيين ترك شحذ البلطة
وفرغ الى الصلوات والادعية

ولم تحزن نفيسة لغياب عبد الله عن البيت واقامته عند الشيخ
فضل فيما مضى حزنها اذ ذاك وهى تسمع الضجيج فى الشوارع
وصيحات المارة والجموع المحتشدة فى الطرق ولكن خديجة زوجة
عمها كانت دقيقة حريصة فأغلقت باب البيت ولم تأذن لاحد
بالخروج ولا لآخر بالدخول

ولكن ذات صبح سمعت خديجة دقاً على الباب ففزعت
وتولاها الذعر ولكنها نظرت من المشربية فرأت عبد الله واقفاً
لدى الباب فى الشمس وقد أراح عمامته قليلا عن رأسه وقد علا

الغبار ققطانه ووجهه تبدو عليه امارات الاضطراب فصرخت
 نفيسة عليه «آه هو أنت. يا جالب الاخبار الشوم. هل حضرت
 لتخبرني بأن على فرج قد ذبحوه فأنى أرى ذلك فى وجهك»
 وجرت نفيسة تستبق زوجة عمها للقاء عبد الله وهمت تقول
 « ماذا جئت تفعل ، هل من خبر جديد ؟ »

وكانت الفتاة قد رأت آثار الحزن والالم فى وجه أخيها
 قال عبد الله « ان الافرنج قد وصلوا الآن «وردان» وقد
 عدى مراد الى امبابه ومعه الوف من الفرسان يريد انتظار
 العدو . ولكن يجب أن أعود حالا حتى لا تفوتنى رؤية القتال
 فقد أراد الله أن يفرق العدو فى البحر ثم لا أشهد هذا المنظر
 العجب ، أما على فرج فقد رأيتَه منذ ساعة جالسا تحت ظل شجرة
 يبكى وينوح على قلة ما لديه من الزاد فأمرنى أن آتى اليه من
 البيت بشئ من الطعام حتى لا يموت من الجوع »
 فصاحت خديجة « اذن ألم يموت ، انه لا يهتم بشئ غير ملاء
 بطنه ويتركنى هنا وحدى تحت رحمة الافرنج ، يا خيبتى السوده
 يا قلة بختى ، ما حد غيرى رماه ربنا بجوز زى ده »
 وحمل عبد الله الزوادة التى أعطتها خديجة له وقال «سعيده
 يا امى »

ثم نظر الى اخته فقال كذلك « سعيده يا نفيسه »
 وانصرف ، سرعاً لا يلوى على شئ

ولكنه ما كاد ينعطف في الحارة المجاورة حتى سمع وقع
أقدام شخص يجرى وراءه فالتفت وللحال اندهش اذ رأى نفيسة
وشعرها يخفق في الهواء وراءها وجلاليتها الصفراء تلمب بها
الريح ، وهي تجرى وراءه على آخر نفس
فوقف عبد الله عن السير وصاح بها غاضباً « ما هذا يا نفيسة
هلمى عودى الى البيت »

فقالت نفيسة « لا . . . لا . . . اننى آتية معك »
فوثب ليحملها بالقوة الى البيت ولكنها أفلتت من قبضة
يده وجرت راكضة في الحارة وهي تصرخ قائلة : « اننى ذاهبة
الى بولاق فاذا لم تأخذنى معك ذهبت وحدى »

فجعل يتوسل اليها أن تطرح هذه الفكرة من ذهنها ، ويعارضها
ويجادلها ، ويصب اللعنات على أجدادها وأسلافها ، ناسياً انهم
اجدادها ايضاً وأسلافه ولكن لم تفلح كل تلك في اقناعها ولم تحدث
شيئاً البتة ، بل لقد عازمت على أن تذهب الى بولاق سواء وحدها
أم مع أخيها

وأخيراً انتهى الجدل بينهما على ان ينطلقا معاً في صمت
فقالت نفيسة في الطريق « هل تعرف يا عبد الله أحداً في
بولاق غير عمنا ؟

فأجابها أخوها « لا أحد غير الشحاذ الذى تعرفينه فانه ينام
في مركب راس عند بولاق »

وأوقف عبد الله اخته في ناحية وسار وحده حتى أقبل على المكان الذي عنده عمه على فرج فاعطاه الزوادة وانقلت راجعاً الى اخته فأخذها وسارا يريدان مكان الشحاذ فلم يلبثا ان وصلا الى حيث كانت المراكب راسية على الشاطئ وبظرة واحدة عرف عبد الله مركب الشحاذ في وسط المراكب

فصرخ عاياه بالتحية وانطلق وهو ممسك بيد اخته الى المركب فقال الشحاذ «هلوا يا ابني ها أنت قد رجعت ومعك اختك أيضاً. ولكن ما للنساء وللحرب والقتال ؟»

فاجاب عبد الله « انها أصرت على الحضور ولم تشفع عندها معارضة ولا احتجاج فعقصت نفيسة شعرها وأصلحت ما اضطرب من نظامه وقالت تجيب على سؤال الشحاذ « وما لشيخ مثلك وطالب في الازهر مثل اخرى وللقنال ايضاً؟ اذا كانت مثلي لاشأن لها به »

ففرح الشحاذ بهذا الجواب وكان يسر من اجوبة نفيسة ولباقتها وقال « صحيح يا بنتي ، لقد قلت حقاً »
وعاودت نفيسة تقول « اننى أريد أن أرى الممالك ، هلم نقلع بالمركب من هذه التربة الصغيرة لندخل النيل فان الجسر حال ولا نرى من هذا المكان شيئاً »

فقال السائل « سنرى حالا يا بنتي فلا تتعجلي »
ومضى النهار بخير وجلس عبد الله يهوى في مكانه وقد غلب

النوم عليه . ونفيسة تمددت تحت ظل الشراع ، ولكن السائل
 جلس وتمدد متيقظا يراقب رجلين كانا واقفين عند الجسر
 وكان أحدهما ستيفن وكان عمله قد انتهى لان تقدم
 الفرنسيين من ناحية الشاطئ الايسر للنيل أفسد خطة الخنادق
 التي حفرها ، فلم تنفع ببصلة ، وكان الآخر مكسيم ليجران
 ووراءه طفل صغير في سبات عميق . وكان مكسيم ممتشقا سيفاً
 وكان الرجلان يتحدثان ، في صوت غير مرتفع ولكنه كان
 يبلغ سمع الشحاذ المتصنت للحديث

وكان مكسيم يقول لصاحبه « انهم قد غادروا » ام الدينار
 قبيل الفجر يا صاح نحن الان بعد الاصيل ولا بد انهم سيظهرون
 للانظار بعد برهة . ها . ها وفي انتظارهم عند امبابه لقاء حار ،
 اذ وضعت ثمت أربعين مدفعا فقاذفة واحدة ستفتح لمراد
 ومما ليكه ثغرة في صفوفهم »

فابتسم الشحاذ كما يبتسم الانسان اذ يتبين شيئا قديماً طال
 العهد به

وكان ستيفن يجيبه قائلاً « مرحى يا صاح . اتظن بونا برت هذا
 رجلا مغفلا مذهولا ، أظن الرجل الذئبي مزق النمساويين
 شر ممزق ، وغزا ايطاليا ودحر جيوشها ، سيغلب على أمره امام
 مدافعك هذه ، انه سيتحرك وابتعد عن مرماها ، ومدافعك ليست
 محملة على مركبات ولا عجلات يا صاح ، بلاش غرور ! »

فأجابه الآخر متهمكاً بدوره « ستكون لمدافعي عين الفائدة
التي كانت لخنادقك »

فضحك الرجل الانكليزي وقال « نعم . لقد كان ذلك عملاً
تعبننا فيه أباما ولم يفلح ولم يشعر ، ولكنى وددت لو اننى كنت
الآن مع مراد بك فى امبابه »

فرد عليه الآخر قائلاً « ولكنهم لا يدعونك تذهب »
فقال ستيفن « اجل ، لقد طلبت ذلك ولكن ابراهيم يشك
فيما نحن الافرنج ومع ذلك ترانى أشعر كأنى قد أصبحت جباناً
وغداً رعيداً اذ امكث هنا وصحابى العديدون تمت فى خطر
النار ولقد عاشرتهم الى اليوم سبعة من السنين وقد شعرت
بعاطفة عميقة من نحوهم »

وانطلق مكسيم يشرح اراءه فى سير الموقعة المنتظرة ،
ولكن ستيفن لم يكن يعير حديثه وثرثرته اهتماماً ، بل وقف
ينظر من خلال مجهر هناك كان قد نصبه على قطعة من الارض
يَفَاع .

ولم يلبث ستيفن ان صاح بأعلى صوته « يا لله ، هاهم قد أتوا .
اننى أُلح برىق أسلحتهم من بعيد »

فأيقظ الشحاذ عبد الله من نومه وهو يقول « أى بنى ،
لقد آن لنا ان نطلع من مكاننا هذا ، وأنت بابنتى بما انك قد
أتيت الى هذا المكان فلا سبيل الى عودتك الى البيت ، فهلما بنا

تنصرف من هذا المكان »

فردت عليه الصبية قائلة « وهل تظننى أخاف شيئاً يا أبى ،
اننى اريد أن أرى القتال معكما »

واعملا المجاذيف فى القارب حتى بلغا به الضفة الغربية ووقف
الجمع ثلاثتهم على الضفة يرقبون

ولاح لهم كل شئ جلياً على الضفة امبابه وهناك على مسافة
قليلة من القرية ومنازلها وعششها واكوأها سحابة كثيفة ممتدة
الى الصحراء ، هى جموع الفرسان الراصدين للقاء العدو بل زهرة
جيش مراد وصفوته ، عشرة آلاف من الرجال الاشداء كل منهم
على جواد كريم لا ينجل اكبر الملوك سلطاناً من أن يُرى على
صهوته .

وكانت اشعة شمس الاصيل تنعكس عن خوذهم وأسلحتهم
ودروعهم كما انعكست عنها فى الشام يوم صلاح الدين . ولعلها
كانت يومذاك فى القرن الثامن عشر تنعكس عن منظر آخر جيش
مسلح بتلك الاسلحة البسيطة فى تاريخ الامم .

نعم لقد كانت تلك مظاهر الحرب فى روعة أيام الفروسية
الغابرة وفى فخامة ذلك القتال القديم وفى مظهر عجزه كذلك .
وترجل جمع من المماليك عن جيادهم وبسطوا عباءاتهم على
الرمال وولوا وجوههم مرة اخرى شطر مكة يصلون ويدعون
الله أن ينصرهم على عدوهم

وكان بين المصلين أيوب بك ، ذلك الرجل الذي لم يحن رأسه يوماً لمخلوق من مخلوقات الله ، قد لصق رأسه اذ ذاك بالتراب .
ثم لم يلبث أن نهض من مكانه وهو في صمت وسكوت
فانبرى مراد يقول له « انهم قادمون يا أيوب بك ، وهانحن
الان نرى وجوههم وبعون الله وفضله سنرى عما قريب ظهورهم
واقفيتهم وهم مولون الفرار »

قال ذلك وعدا بجواده في سحابة من الغبار المتصاعد
فأجاب أيوب « لعلك ستري ذلك أنت اذا شاء الله ، ولكني
لن أرى ذلك مطلقاً »

فقال مراد « ألا تزال تتذكر الحلم والرؤيا »
فأجاب أيوب « كلا ، ولكني رأيت الساعة في الصلاة حورية
من حور الجنان فأهابت بي - أسلم الدنيا يا أيوب ، واحتفظ
بالروح ، اترك الدنيا لمراد وتعال إلينا لاتنا في حياة مقيمة
لا تنفى . . »

فأحدثت هذه الكلمات تأثيراً كبيراً في نفس مراد شيخ
البلد فقال « اذا صححت هذه النبوءة فأنى سأموت مثل هذه الميتة
كذلك ، أى أيوب ، لقد تباعدنا منذ سنين وتجايفنا ووقع بيننا
النفور ولست ابرىء نفسي من الذنب ، ولكني وددت والله لو
أن مصطفى بك كان اليوم بجانبى في هذه المعركة الرهيبة »
فقال أيوب الشيخ « اننى اعتقد انك قلت الحق ولا أدري

لماذا اعتقد ذلك اللهم الا ان في ذهني اليوم هو اجس متزاحمة
وافكاراً متضاربة ، اننى اشعر انه يطل الآن علينا»
فقال مراد « أتعنى من الجنة ؟ »

وتعانق الصديقان ملياً فلما فرغا من العناق نظر مراد الى
صاحبه أيوب وقال «تولّ أنت يا أيوب الميسرة وأما انا فسأواجه
العدو قبل أن يدرك امبابه ، اللهم انصرنا عليهم اليوم »
وامتشق السيف في يده واركض جواده عاديا
ووقف الآخر لحظة ثم قال « الله اكبر ، لا اكر الا هو ،
ومحمد رسوله » ثم وضع يداً فوق انسرج ، ووثب على صهوة
الجواد .

ولاحال لاحت غمامة من الغبار من ناحية الشمال وبدا الجيش
الفرنسى وقد تشكل فى هيئة خمس قلاع ووضعت المدفعية فى
زواياها .

فهمس عبد الله وهو فى أشد التحمس «أنهم وقفوا يا افندى،
يظهر اهتم خايفين »

فأجابه الشحاذ « كلا يا بنى انهم انما يعدّون الخطة للقتال ،
انظر هاهم قد عادوا ثانية ، ها قلعتان تتحركان الى اليمين نحو
الصحرء وقلعة تسير الى الامام وأما الاخيرتان فسائرتان بين
النيل وامبابه »

وكانما كان جيش الفرنسيين يلوح صغيراً ضئيلاً بجانب

روعة الفرسان المماليك ولأُمّات الجنود الشرقيين الذين كانوا في انتظارهم ولكن ذلك الجيش كان مسلحاً بالبندقيات والسوكيات وهى أقل ما اخترع الانسان لسلاح الحرب وعدة القتال ، ولم يكن رجال ذلك الجيش احدث عهد باستعمال تلك الاسلحة المميّنة ، فقد شهدوا بضعة عشرة معركة ، وحملوا انسرهم المظفر الى سهول ايطاليا وتسلموا بها جبال نهر الرين ولو انهم خرجوا رحلا رجلا ، فرجل لرجل من المماليك ، لما كان ثمت فرصة لهم لكي يفوزوا على عدوهم ولكنهم كانوا في تلك القلاع التى شكلوها فى منعة لا تهزم وقوة لا تدحر ، ثم من ورائهم رجل لم ير العالم مثيلا له فى قوة الاندفاع الى الامام ولم يضارعه قائد من القواد المحلدين فى التاريخ

ولئن كانت ارض مصر فى نظر الاسكندر وعين قيصر الرومان مقدسة فما كان مثل نابوليون ليرفع قبعته ذات الالوان الثلاثة لمثل هذين

وقال الشحاذ لعبد الله بصوت منخفض « ان هذا القائد ليس بالرجل الاحمق ولا بالابله وقد تبين له ان مدافعنا ليست مركبة على عجلات لتنقلها بسرعة من مكان الى مكان فهى لا تطلق النيران الا فى وجهة واحدة. ولذلك سيلف ويؤدى حركة التفاف حتى تقع امبابه فى يده كما تقع البندقية تحت المتكسرة ! »
وتقدمت الكتائب التى على الميمنة نحو جماعات الفرسان التى

كانت تحت امره ايوب أشبه شيء بالكلاب المسعورة خرجت
من الطوق

وصاح عبد الله اذ ذاك بأشد الحمية « انظر ! »

نعم ، هجم فرسان المماليك مستبسلين فالتفتها كتائب العدو
بقذائف البندقيات ، ثم اطلقت المدافع نيرانها

وكانت تلبأ القلاع الاخرى بما كان يجري من القتال المستميت
الخفيف في الميمنة اذ تقدمت لا تلوى على شيء

وأخذت جموع أيوب تتقهقر آونة وتصول اخرى ، وكان
يجمع شتات من بقي معه ويتقدم مستبسلا مستيئساً ، ولم يكن
ثم مدخر من الشجاعة يومذاك ولم تفقر حميته ولا وهنت
شجاعته ، نعم . لقد كان الرجل في صفوف المماليك يثب الى الامام
للقاء تلك السونكيات غير خائف ولا وجل فيتعدى الحواجز ،
ويتخطى الموانع بجواده ثم يرمى بقذائف من غدارته الى رأس
الجنود الفرنسيين ثم يرتد الى الصفوف كما خرج

ولم تظهر أية أمارات على ان تلك القلعة التي كانت تقاتل
أيوب ورجاله ستسلم او تتصدع اذ كان يدرك اولئك الجنود
المغاوير الذين اعتادوا الحروب انه ينبغي أن لا يدعوا المماليك
يفتحون في صفوف تلك القلعة ثغرة واحدة والا حلت الهزيمة بها
وترجع ايوب بك . وقد علت الدماء أثوابه وتصبب العرق
من جبينه فجمع آخر ما بقي من الحمية في نفوس جنوده ثم أقبل

هاجماً ، ووقف جنود الفرنسيين فى دهشة لانهم لم يدركوا هذا
الضرب من القتال ، نعم لقد التحم القرن الخامس عشر بالقرن
الثانى عشر ثم لم يزل مقاوماً لا يدري ما عاقبة هذه البسالة التى
تقتل نفسها ولا تحدث فى عددها شيئاً كبيراً

ولم يبق مع ايوب الباسل المقدام غير اربعين مملوكاً فراح
يصيح بهم وينادىهم الى الاستبدسال والشجاعة ، وانفلت بهم عادياً
وهو يصيح تلك الصيحة المعروفة فى القتال بصوت اجش عميق
« الله اكبر ! »

ولم تكد تمضى لحظات حتى كانت الملهمة واختلقت المشرفيات
بالسونكيات وعج العجيج ، وضجت الاصوات. وتقاتلت الرجال
يداً ليد ووجهاً لوجه ، يتدحرجون ويتواثبون ويتساقطون
فوق بعضهم البعض كالكلاب المتشاجرة المسعورة ، ولكن
الاسلحة البيضاء فعلت فعلها فى الممالك حتى انتهى الامر بأن
سقط ايوب وقد أصيب باثنى عشر جرحاً وبدى بفعال كبار فى
ذلك اليوم لا مثيل لها ، مضرجاً بدمائه فوق الرمال ، ولا
يزال سيفه فى يده وهو يقول بصوت مخنق متهدج محتضر
« الله اكبر » وكان أيوب آخر من بقى من جنود الميمنة

أما فى الميسرة فان الفرنسيين آخلوا الطريق ، ولم يكن
نصيب مراد من شجاعته فى ذلك اليوم اكثر من نصيب صاحبه
أيوب العظيم الباسل

ودخل الفرنسيون بلدة امبابه وأغار الجبال ديسكس
جنوده وهو يطارد آخر من بقى من الممالك
وانتهى القتال وانقلبت المعركة مجزرة وقد امتلأ السهل
شرازم متفرقة من الممالك وهم يعدون على جياهم متوحشين
ذعورين يطلبون نجاة بينا كانت البنادق ترسل قذائفها فى الفضاء
تصيد من تتصيد

وعدا الممالك الهاربون الى النهر مؤثرين الموت تحت اللج على
ن يقعوا فريسة فى أيدي أعدائهم
ووقف عبد الله والسائل ونفيسة وقد نسوا الخطر المحقق
هم من تأثير الروعة التى وقعت فى نفوسهم لهذه المشاهد الرهيبة
هم لا يحفلون بالقذائف تمر فوق رؤوسهم وبجنود العدو
تقرب منهم

واذ ذاك همس السائل بصوت متهدج مختنق وعيناه تبرقان
هتاجا وحماسة « هلم بنا ، لقد انتهى الامر ووقع الخطب ،
هيا بنا قلت لك »

ووضع يده على كتف الغلام
ولكن عبد الله لم يعره اهتماماً بل وقف ينظر الى مملوكين قد
رتفع عنهما الغبار وكان أحدهما طويل القامة على ظهر جواد اسود
وهو يسند الاخر وهذا يترنح على ظهر فرس كريمة
فكادت نفيسة تصيح على الرجلين « انظرا ، أليس هذا

من الاكبر ؟ »

ولما سمع الجواد صوت الفتاة تراجع متوانباً ثم صهل صهلة واحدة وسقط ميتاً لا حراك به ووقع راكمه معه وهو يحجر معه المملوك الذى كان يسنده

فوثب عبد الله من مكانه وولولت نفيسة ونادى السائل على الغلام يسترجعه ولكن الغلام كان قد عدا الى المكان وقفطانه يخفق فى الهواء وراءه وعمامته قد زالت عن رأسه

وكان المملوك الضخم يحاول بكل قواه ان يتخلص من الاعنة التى اشتبكت قدماه فيها وما كاد الغلام يصل اليه حتى رفع بصره ولم تلبث ان بدت على وجهه ابتسامة اذ تبين الغلام وعرفه وقال « آه ، ها انت ايها الاستاذ ، هلم اقطع هذه الشرائح »

وأشار الى قطع الجلد التى كان يريد قطعها والى سيفه وكان قد سقط على مسافة قليلة منه

فالتقط عبد الله السيف من مكانه بسرعة وخفّ الى قطع الاعنة والشرائح التى دله عليها وللحال شد المملوك ساقه وكانت تحت الجواد وقام مستويا على قدميه بصعوبة وألم

ودار بعينه حوله متلهفا على صديقه ولكن ستيفن كان قد وصل فى تلك اللحظة وحمل صاحبه مبتعداً وهو ينادى على الآخر قائلاً « هلم بنا يا حسن فان عثمان معى . وقد عرفت من محياه . لانه لا يمكن ان تكون فى مكان ما الا وهو بجانبك »

ولكن المملوك أجاب وقد وثب على الفرس « كلا ، سرأنت
سرأنت »

فصرخ به استيفن قائلاً « هلم ايها الاحمق ، هلم معي الى
القارب »

فأعمل المملوك المهماز في الفرس وهو يقول « كلا ما مثلي
يفر في قارب ، اننى ذاهب لكي أوافي مراد آفاعتن بعثمان واحرسه
فقد التقطته بين هرة الرماح والاسلحة البيضاء »

فمشى استيفن يحمل الفتى مسرعا نحو القارب ولكنه اذ
بلغه وجد « الرئيس » قد فك الحبال وانطلق به

فلما رآه الشحاذ وكان واقفا في القارب يشد حباله نادى عليه
فمشى استيفن وامامه عبد الله ، حتى وصلا الى المركب فوضع
جثة الفتى المملوك عن ذراعه ووثب الى داخل القارب
وكان الفرنسيون يركضون أشد ركض ، فأمسك السائل
بالمجاديف وانطلق القارب يشق العباب

وصاح به استيفن بعد قليل « اعطنى مجذافاً من هاتين »
فاحابه السائل « ارقد على ظهرك ، ارقد ، فان الافرنك
مسددون رصاصهم اليها »

وللحال دوت القذائف فوق رؤوسهم وحوطهم وعن يمينهم
وميسرتهم ، وأصاب بعضها الشراع والصارى
ولكن لم تلبث الريح أن اطلقت القارب بعيداً عن مرمى

الرصاص .

وكان استيفن في تلك اللحظة قد شق صدر الفتي وثوبه
الداخلي ، وللحال فرطت منه صيحة ألم وجزع اذ رأى جرحاً
عظيماً في صدر الفتي يقطر دماً صيباً

فنظر السائل الى الجروح نظرة الفاحص الخبير وقال
« طعنات السونكيات ليس غير ولا بد من أن الفتي قد اقتحم
صفوف الاعداء غير مكترث بالموت »

فقال استيفن « انه » « سلاحدار » مراد بك وأنا أعرفه
أتم المعرفة »

فقال السائل « آه ، اذن هذا هو السبب فان مراداً لا يدنى
منه الجبناء »

فصاح استيفن « اين نذهب به فانه والله اذا بقى على هذه
الحال فهو ولا شك ميت ، لان دمه قد استنزف »

فقالت نفيسة وكانت قد سكنت ملياً على غير عاداتها « هلموا
نأخذه الى بيت الشيخ فضل »

فابتدرها السائل بقوله « انك سريعة الخاطر يا ابنتي ولكن
الافرنك سيكونون في المدينة قبل ان يطلع الغد ولا شك في
ان منزل الشيخ سيفتش للبحث عمن يكون قد اختبأ من المماليك »
قال ذلك والتفت الى استيفن وعاد يقول « وأنت ، ألا

تعرف بيتاً أفضل وقاء له من منزل الشيخ ؟ »

فظل استيفن صامتاً برهة

وللحال خطرت له فكرة ولكنه لم يجسر على التفوه بها
على انه تمالك نفسه وقال برفق وخفوت صوت « نعم أعرف
مكاناً ، اجل ، أعرف بيت امرأة افرنكية وهى تعرفه ايضاً منذ
زمن بعيد ، ولست أشك فى انها ستقبل مكثه فى دارها »
فأجاب السائل بصوت رهيب « حسناً ما قلت »

وبلغت أسماعهم من ناحية الشاطيء عند بولاق أصوات
الصياح ، وصراخ النساء ، والجموع الهاربة من أهالى القاهرة
وعلى الشاطيء الاخر كانت ترى بقايا جيش المماليك وهم
يعدون من ناحية الجيزة صوب الصحراء

نعم ، لقد أطلت أربعون قرناً كما قال نابوليون فى سفح
الاهرام على اطلال ساطان ظل فى وادى النيل اربعمئة عام كاملة ...



❖ الفصل الرابع عشر ❖

« المملوك الجريح »

واقبل الليل على القاهرة فغشيها فى ثوب من الحداد
تلك ليلة الواحد والعشرين من شهر يولييه عام ١٧٩٨ لم
تكن مصر شهدت مثلها منذ عهد سليم الفاتح وذلك الجيش التركى
الذى دخلها منذ ثلثمائة عام قبل ذلك التاريخ

لقد جالس ملك الرعب والذعر على عرش النيل فى تلك الليلة
لقد كان الناس أغنياء وفقراء يعدون فى الطرق هارين وهم
لا يدرون الى أين الذهاب ، وأيانَ الخلاص

١ وقد بلغت الضوضاء والصيحات حى الافرنك حيث كان
الشيخ ليفبر على أتم اليقظة هو ومرغريت

وقد جلس ليفبر بجانب الباب خالماً عمامته ، وبقربه سيف
طويل لا يصلح لقتال ولا حرب ، وفى حجره غدارتان وفى
أقصى الحجرة كان فراش نامت فيه فتاة دعجاء العينين فى الربيع
الخامس عشر

وكان المرض قد أذبل وجنتها وجعل عينها نجلاوين اكثر
من عاداتها. فكانت تبدو فى جمال غريب رائع لا يكاد يكون طبيعياً
ولكن على الرغم من نحوها وأثر العلة فى بدنها كانت أظافر
أناملها متحنية « ولم يكن الكحل قد فارق بعد هديها ، وكانت
عند طرف الفراش مرآة صغيرة كانت تنظر اليها على فرط ما بها
من مرض بين حين وآخر وهى معجبة بجمالها

وكانت مرغريت محنية عليها تفحصها وتجيها وتتهدها
بالعناية على ضوء شمعة هناك

وكانت الفتاة ممسكة بذراع مرغريت وهى فى تشنج عصبى
وكانت مرغريت تقول لها بصوت رقيق « لا تخافى يا حبيبتي
فليس ثمت شىء يدعو الى الخوف ، انهم لن يؤذوك ولن يسوك

بسوء . ثم أليس عندنا مسيو ليفبر ليحميننا »

قالت ذلك وأشارت بأصبعها الى مسيو جول ليفبر وهو
جالس فى مكانه ذاك كأنه جندى مغوار مثال الشجاعة

فقالت الفتاة والهة « ولكن النصارى ألا يذبجوننا ذبحاً ؟ »
فقال العم جول بلهجة الوطنى الغيور على سمعة قومه على
الرغم من غيابه عن وطنه زهاء ثلاثين عاماً « ان الفرنسويين
يا عزيزتى لا يشهرون الحرب على النساء والهوانم ، ماتخافيش
يا حبيبتي فلا ينالك أى سوء من ناحيتهم »

وأقبل الليل

فأغقت الفتاة وتولاها النوم غراراً وهى لا تزال ممسكة بيد
مرغريت من شدة الرعب

ولكن الآخرين لم يغمض لهم جفن

وقال ليفبر بعد طول سكوت « ليتنى لم أسمح لك بالبقاء
هنا يا مدام . وكان ينبغى أن أصر على أن تذهبي الى بركة الفيل
حيث ذهب اليها جميع الافرنك بنسائهم واسراتهم لكى تكونى
تحت حماية امرأة شيخ البلد »

فقالت مرغريت مستبسلة « يا سيدى لست خائفة »

فأجاب ليفبر « ولكن حذارى أن ينفذ شعاع بسيط من
النور من الاستار والنافذة »

فقالت مرغريت « كلا . فقد احترست لذلك ولا يدرى أحد

من الحى ولا من خارجه اننا هنا الان . بل سيظن القوم أن
البيت مهجور »

فقال ليفبر « الخوف فقط أن يعمد بعض الاشرار من أهالى
البلد الى الهجوم على حى الافرنك . فهنا الطامة الكبرى . ولن
تنجو من شرهم اذا حدث ذلك »

فأجابت المرأة بصوت رهيب « تلك مشيئة الله ! »
فنظر اليها رفيقها بدهشة ، اذ خطر له انها قد تذكرت الكلمة
عينها التى كانت تمنتقد زوجها على تلفظه دائماً بها منذ كانت تعيش
معه ، ولكنها كانت تقول تلك الكلمة فى ذلك العهد كثيراً ، كأنما
قد تغير نظرها فى الحياة اذ ذاك

وكانت مرغريت مشغولة باعداد شىء من الطعام للعليلة وبدا
رأس جول يهتز من غلبة النعاس عليه ولكنه كان يفيق من غفوته
بين حين وآخر بحالة انزعاج مخيفة كلما طرق اذنه صوت حوافر
أو مواقع أقدام فى الحارة »

ولم تلبث مرغريت أن وقفت عما كانت تعدده وجعات تنصت
مرتعبة . وأما الشيخ جول فأجفل مذعورا

وتبادل الرجل والمرأة النظرات ولم يفه أحد منهما ببنت شفة
وذلك انهما سمعا وقع اقدام تحت النافذة

ولم تمض برهة حتى سمعا الباب يدق فنهض الشيخ واقفا
ممسكا بغدارة فى يد والسيف فى الاخرى وكادت الفتاة وقد صحت

من نومها تولول من شدة الجزع . وغطت وجهها تحت اللحاف .
 فهمست المرأة تقول « لا بدّ من أن يكون أولاء قوماً من
 الأفرنك تأخروا عن المنازل فجاءوا يطلبون ان نحميمهم ، والا
 لما دقوا الباب بهذا الحذر »

وكمصداق لما قالت ، سمع اذاذاك أنين مؤلم ، واختلفت
 الاصوات

وللحال اصفر وجه مرغريت وقالت « انه هو يا مسيوليفبر
 لقد سمعت صوته »

وقبل أن تتلقى منه الجواب عدت مهرولة تنزل السلم
 وفتحت الباب بسرعة متناهية

ورأت امامها جمعا من الناس وقوفا وعلى « عنجريب » من
 الجريد رقد شبح انسان قد تلطخ ثوبه بالوحل والدم . وبجانب
 الراقد وقف صبي في قفطان وهو ممسك بيد الجريح . وعلى مقربة
 سائل في أسمال وثوب خلق وبخانبه فتاة قد استرسل شعرها
 على نهديها

وهناك وقف رحل عن كشب فلما رآها تقدم وانحنى بالتحية
 وهو يقول « المعذرة يامدام ، الف معذرة لارعاك »
 ووقف عن الكلام اذ تحشرجت الالماظ في صدره ولم يستطع
 أن يخرجها

ولكنها لم تكثر ، بل ألقت نظرة متعجلة على الجريح ،

وأطلت لترى الشارع . ولكنه كان قفراً الا من هذا الجمع
 ولم تابت أن تتممت لنفسها « يالى من حمقاء . لقد ظننته هوا »
 ولم يكن الرجل ستيفن بل كان مكسيم ليجران
 وأزاحت الغطاء عن وجه الجريح فعرفته
 ولذلك صاحت « يا لله . هذا عثمان . مملوكى الصغير . تقدم
 يا مسيو ليفبر فامسك العنجرىب من احدى أرجله . وأنت
 يا سيدى تفضل باسناده من المقدمة »

وقد قص ليجران على ستيفن بعد ذلك تفصيل ما جرى
 ووصف السيدة وما فعلت . ومما قاله « لقد كانت تأمرنا يومذاك
 كأنها « ماريشال » من ماريشالات فرنسا العظام ! »
 فقال ليفبر محتجاً « ولكن هل نسيت بنت الشيخ البكرى ؟ »
 فأسكتته بإشارة قائلة « كفى يا مسيو ليفبر فليس الآن وقت
 التردد . اننى لاحمل الصبى الى حريم مراد بك نفسه اذا كان
 لا بد من ذلك لانقاذ حياته »

وحمل الجريح الى المنزل ووضع فى مخدع مرغريت وحمل
 الى فراشها

وقالت للجمع « ومن أى مكان حملتموه »
 فأجاب مكسيم « من بولاق يا مدام »
 فقالت « ولكن لم يكن فى استطاعتكم أن تحملوه كل هذا
 الطريق وحدكم »

فأجاب الرجل الفرنسي « لقد استعنا على حمله باخرين »
 فعادت تسأله « ولكن من ذا الذى ألهمكم فكرة احضاره
 الى بيتى »

فتنحج ليجران واضطرب وقال « لقد سمعت يا سيدتى
 انك . . »

فأعادت عليه سؤالها فآثله « من الذى كلفكم باحضاره . هل
 هو مسيو ستيفن ؟ »

فلم يسع ليجران غير الاعتراف

قال « نعم هو يا سيدتى »

فأشرق للجال وجهها وقالت : « وأين هو الآن ؟ »

فقال مكسيم « لا اعرف يا سيدتى ، ولكنه أوصلنا الى

المنزل وانطلق منصرفا »

فانبرت نفيسة تقول « لئد كان محتبئا فى ناحية من الحارة »

واذ ذاك قال الشحاذ « ينبغي أن تعودى الى البيت يا بنتى »

فنظرت اليه مرغربت وقالت « ليست شوارع مصر بالمكان

الذى تمشى فيه الليلة صبية كهذه ، فكيف حضرت الفتاة ؟ »

فبادرت نفيسة الى الجواب فقالت : « لقد كنت ذهبت مع

أخى عبد الله فنحن صديقان لثمان المملوك وقد أنقذه عبد الله

من الموت عندما سقط حسن الاكبر عن جواده »

فالتفتت مرغربت الى عبد الله وقالت « يجب أن تبقى هنا

الليلة على الاقل ، فهل تقبل ان تدع أختك في ذمتي ؟ »
فقال الفتى بلهجة الجذ والثقة « اننى أتعلم ان اسلمك حياتى
نفسها يا ست . . . »

فعادت مرغريت تقول « بل ابق أنت الاخر أيضاً ان احببت »
فأجاب عبد الله « كلا وشكراً ، واذا أذنت لى فانى ذاهب
الى دار الشيخ فضل فلعلمه الان بحاجة الى الرعاية فقد تركته منذ
مدة طويلة ولا بد من الرجوع اليه »

وكانت مرغريت قد انتهت من تمزيق قميص الفتى الجريح ،
وكما مزقت منه شيئاً لاح لها حرح جديد فنظرت حولها فى الجمع
وقالت « من الذى سيبقى منكم بجانبى الليلة ؟ »

فقال مكسيم بشهامة واثاء « بعد اذنك يا سيدتى ، سأبقى
أنا وان كنت لا أدري من فن التعريض الا النزر اليسير »
فنظر اليه الشحاذا وقال « بل حير لك يا افندى ان تحمى
حياتك الليلة من أى أذى فانه اذا دخل الفرنسيون المدينة الليلة
» فمىحصلش لك طيب !

فاهتزت أعصاب ليجران من كلمات الرجل الشيخ وارعده
كأنما قد أنارت فى ذهنه ذكرى قديمة ، ومضى يريد أن يجيب
الرجل على كلمته ولكن الشحاذا كان قد أشاح بوجهه عنه ، فلم
يكن منه الا أن تتم قائل « يا لله ، ان فى هذه الكلمات بعض الحق ،
لقد نسيت الخطر المحقق لى أمام هذا الجمال وسلطانه »

واذ ذاك تقدم الشحاذ نحو مرغريت وقال بصوت اجش رهيب «ياست ، لقد رأيت في طول عمرى جراحا كثيرة وعلمت كيف ينبغى لها من التضميد والعناية ، فهلا أذنت لى بالبقاء فى دارك الليلة لمساعدتك »

قالت المرأة « حسنا ، فلتبق »

ولما أدرك مكسيم ليجران انه لم يعد له من حاجة الى الانتظار راح يقول « اذا صح أن لا فائدة منى لا نقاذ هذا الشاب فخير لى كما قلت يا افندى ان أمضى لا آمن على حياتى من الخطر ، اوريفوار يامدام ، انى أحسد هذا المملوك الفقى على جروحه ، قال ذلك وانحنى انحناء شديدة للسيدة وانطلق مسرعا . ولما لم يجد الشيخ ليفر من حاجة الى بقاءه فى الحجرة ، وكان اكروه شىء لديه منظر الدماء ، أخذ عبد الله وتقيسة وانصرف تاركا مرغريت الى عملها مع الشيخ السائل

فلما اختليا الى عملهما ، مضى الشيخ ينزع عن الفتى ثيابه ، ويتفحص جراحه العديدة ، ثم شرعا فى ضمدها بما أوتيا من الوسائل المسعفة

وقال السائل وقد أشار الى جرح فى صدر الفتى كان ينفث منه الدم صيبا :

«لقد اصيب الفتى ياست بجراح كثيرة ولكن هذا الجرح هو الوحيد الذى منه أخشى ، فذلك جرح قنبلة أو رصاصة مزقت

الرئة ، ألا انظري كيف يخرج الهواء منه ، أما الجروح الاخرى فانما هي جروح في اللحم خفيفة غير خطيرة لا تقتل ، حمداً لله لا يزال هناك أمل في انقاذ حياته ان قلبى يحزن له ويتلهف على نجاته ولا أدري لذلك سبباً »

ومكثنا عدة ساعات وهما دائبان على العمل ، فلما انتهيا منه وقفنا ينظران الى الجريح ، واذا ذاك تولى مرغريت الألم وفاضت في فؤادها العاطفة فسالت من عينها العبرات متحدرة فقال الشحاذ يسألها بعد أن كفكفت دموعها « أتعرفين هذا الفتى من قبل يا ست ؟ »

فأجابت مرغريت « نعم ، لقد عرفته منذ سنين وأحبته كانما كان ولدى وفائدة كبدى فقد احتل دهرًا فراغا في نوادى ظل مدة طويلة من الزمن خاليا »

واذ ذاك تولاهما الخجل من نفسها اذ كشفت عن ذات صدرها لرجل غريب ، فضت مبتعدة .

وقال الشحاذ اذ ذاك « آه يا ست ، لقد عرفت تلك العاطفة أنا ايضا ، واننى أسأل الله أن يرد الى هذا الفتى حياته الداوية حتى يظل لديك كما كان من قبل لانك الليلة قد أعدت اليه الدماء الباقي من روحه »

وكاد الشيخ الشحاذ ينصرف ، ولكن الفتى المملوك تحرك اذ ذاك قلقا وفتح عينيه المغمضتين الزجاجتى البريق وتحركت

شفتاه دون أن تخرج منهما الالفاظ ، اذ لم يستطع نطقا
فانحنيا لبستمعا الى كلماته

فتمتم الجريح بصوت خافت يقول « أبى ! »
وللحال تحامل ونهض قلبلا وهو يصيح مرتكزا على مرفقه
« الله اكبر ! طعانا يا حسن ، طعنة اخرى فى سبيل الوطن ، هلم
الى الامام لاجل الشرف ! »

وكانت تلك منه أشبه بنوبة المتشنج، وتفت الدم من ضمادات
جراحه ، وسقط رأسه فوق الوسادة وعاد الى صمته
وقالت مرغبت « انه يسمى مرادا اباه وهو ليس الا مملوكا
من ممالكه »

فقال الشجاع - « انى لأعجب لهذا الرجل كيف يكسب من
الناس كل هذا الحب حتى اولئك الذين اشتراهم بماله يدعوناه أباهم
ولكن كم من هؤلاء سيظاون ينادونه بهذا الاسم اليوم وقد
أصبح مطار دأهاربا افاقا مشردا ، لقد كان ألفان منهم يطعمون
فى الجزيرة فكم بقى اليوم من اولئك يلتمسون حفنة من القمح
ليأكلوا ، ان من يوطأ للناس كتفه يؤكل ويلتهم »

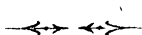
وافلتت من السائل ضحكة مرعبة فى تلك اللحظة ووقف
اذ ذاك كالشيطان أو مارد من الجان فى الظلام ، ولكن قبل ان
تلاحظ مرغريت ذلك عليه ، لم يلبث ان عاد الى حالته الطبيعية
وقال بصوته المتوسل المعتاد : لقد انتهت الان مهمتى ، وأنا

عائد غداً . سلام عليك يا ست »

ومشى يطلع منصرفاً ومرغريت ترمقه بنظراتها وهي في دهشة منه وعجب

وأنا ليفبر السلم له وانطلق السائل ومعه عبد الله وكان منتظراً حتى يذهب معه

وبعد أن ودعت نفيسة أخاها وذودته بالنصائح والعناق والتوصيات عادت الى مكانها ، ولم يلبث ليفبر من شدة غناؤه وكلاله أن هبط في وادي النوم العميق . فجلست نفيسة بجانب فراش الفتاة المريضة وكانت اذ ذاك يقظي فجلست تحدثها عما رأت من القتال سحابة اليوم في امبابه .



﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

« الجراح الفرنسي »

ومضت أيام عديدة على عثمان الجريح منذ بعث به ستيفن الى دار مرغريت في الحى الافرنكى وهو طريح الفراش لا يعي ماذا يجري حوله ولا يدري ماذا يحوطه وفي اى مكان هو مقيم . وجعل الشحاذ يغشى الدار كل يوم حاملاً عدة أشافي غريبة لضمد جراح المريض . وجعل ليفبر يدخل على الفتى عشرات

المرات في كل يوم ليستفسر عن صحته . مؤملا أن يرى تحسينا فلا يشهد شيئا من آثاره . وكان يتردد هكذا لا لشيء غير ارضاء مرغريت واستمر عبد الله على المجيء أحيانا ليطمئن على اخته ويسأل عن المريض وكان من عادته أن يقف لدى الباب يحيل البصر في أهل المنزل . دون أن تمدنه نفسه بالدخول . لانه كان يعلم ان هؤلاء اكثرهم لم يكونوا من أهل ملته . ويعتقد أن « جهنم » مثواهم .

وفي ذات مرة ألحت نفيسة عليه في الدخول فدخل ولكنه لم يلبث ان شعر بالقلق والاضطراب من نظرات مرغريت اليه . اذ كانت تلك المرأة قد دخل على فؤادها منه شيء أشد من الفتنة فكانت تتبعه بنظراتها كلما تحرك أو مشى . كأنما لا تستطيع أن تولى وجهها عنه . وكانت تحديق البصر في وجهه كأنما تحس ان فيه سرا يتصل بفؤادها . وهي لا تدري ما هو . ويعجزها أن تدرك كنهه .

وفي مرة اخرى وقد أصرت نفيسة على ان تسمع من عبد الله أخيها وقد جاء لزيارتها على عادته أبناء ما كان يحدث في القاهرة . لم تلبث مرغريت وقد سمعت الصبي يتكلم وأنصتت الى نبرات صوته وهو يشرح ويصف ما رأى . ان نهضت واقفة على حين غرة من مكانها . ووضعت يدها فوق فؤادها . كأنما قد ثارت الذكرى قليلا في أعماق صدرها

فارتعب ليفبر وقال بلهجة الجازع « ماذا بك يا مدام .
أمريضة أنت ؟ »

فأجابت بالفرنسية حتى لا يفهم الباكون « كلا . بل لقد
كانت حماقة منى وجنوناً . ولكن لا بد من اننى متعبة الذهن .
ان صوت هذا الصبى ينزل الى اعماق نفسى فيهز اوتار قلبى هزاً »
قالت ذلك ورفعت وجهها الى عين الشيخ ليفبر وهى تنظر
اليه نظرة الحزين المتوسل المتلهف

فأجاب مسيو ليفبر « لا بد من انك متعبة الذهن يا مدام كما
قلت . فقد كثر عليك الشغل فى هذه الايام واجهدت نفسك
فوق طاقتها ولا بد لنا من ان نتمعن باناس آخرين »

ولكنها صاحت قائلة « كلا . كلا . فلو نما الى الناس ان لدينا
مملوكاً جريحاً فلا يعلم الا الله ماذا يحدث لنا . ألم تسمع بأنهم
يبحثون عن الممالك المحتبئين فى كل مكان وقد احرق الشعب
قصور مراد و ابراهيم ونهبوها وسرقوا جميع ما كان فيها قبل ان
تندلع فيها السنة النيران . ثم ألم تعلم أن الفرنسيين كذلك لا يزالون
يطاردون الممالك . وسيقبضون عليه اذا علموا بمكانه هنا ولا
ريب اذ يعلمون انه كان من أشد المقربين عند مراد بك »

فأجابها ليفبر « ان فيما قلت يا سيدتى بعض الصواب . ولكنى
ساخرج غدا لاتبين ماذا يفعل قائدهم فى هذه الامور »
فانبرى عبد الله يقول « يا شيخ سيدك ده ابن كلب » فقد

رأيته بعينى . نعم رأيت يوم دخل جيشه البلد . انه لا يزال فى
 فى ريعان الشباب . ولم تنبت بعد له لحية . وهو أسمر
 اللون . وحاجبه يطل على عينيه أشبه بال دراويش . واذا أردتم
 الحق انه يشبه « الشوام » وثيابه لا تفرق فى كثير عن ثياب
 « السقا » فلا ذهب ولا حرائر ولا زركشة ولا تطريز . حتى
 جواده فلا أثر للزينة على اعنته وسرجه وحيشه أيضا وصل على
 الاقدام . ويلوح لى ان الله لا بد قد أراد بالممالك سوءا والا
 لما هزمهم جيش كهذا من الصعاليك . ولكن الحق أقول انهم
 « لازم يكونوا شجعان » فانى رأيتهم فى هذا الصباح فقط
 يعيشون فى الشوارع غير مساحين ازواجا يتزهون ويدخنون
 ويطلون بأنظارهم فى الحوارى والازقة ويضحكون من كل
 ما يقع تحت أنظارهم . واسمع العجيبة الادهى . لقد رأيت
 أحدهم يشتري شيئا من أحد الباعة ورأيت بعينى هاتين والله
 العظيم يخرج نقودا ويدفعها للبائع
 فاستضحك المعجوز ليفبر وقال :

« والقائد الفرنسوى يا عبد الله . هذا الرجل الذى يشبه

الشوام . اين يقيم الان . أفى القلعة يسكن ؟ »

فاجاب الصبى « كلامش هو الذى يسكن فيها . بل لقد

استحوذ على سراى الالانى بك فى الازبكية . تلك السراى الجديدة

التى كان البناؤون قد نزلوا عن الثقاله منها منذ ايام فلائل وكل

فى جيشه اتخذا المنزل الذى اختاره لنفسه وعلى الرغم من كل ذلك ترى الشعب ساكنًا هادئًا كالغنم تحت سكين الجزار ، وأنا لأفهم لكل هذا سببًا . بل لقد ذهب المشايخ والعلماء حفظهم الله الى سراى الازبكية ليساعدوا الافرنك على حفظ النظام ، وفى طريقى الى المنزل فى هذه المرة رأيت العساكر يلصقون اعلانات ومنشورات على الجدران . فزقت اعلانًا منها . انظر هاهو »

وأخرج الصبى من ثنايا القفطان صفحة عريضة من الورق فقال ليفبر بصوت رهيب تتبين منه علامم الجد « لم يكن يصح أن تفعل ذلك يا بنى . اذ لو كانوا رأوك لدفعت حياتك ثمنًا لهذا الاعلان »

فأحابه عبد الله : « يا شيخ بلاش كلام . كل مافى الاعلان اكاذيب . ألم يقولوا فى هذا الاعلان ان الافرنك مسلمون حقيقيون صادقون فى العقيدة . مع انى لم أر رجلا منهم دخل الجامع أو عمل عملا صالحا »

فهز جول ليفبر كتفيه وأشعل لفافة تبغ ولم يجب واذا ذاك انبرى الشحاذ يقول « قل لى يا عبد الله ، ألم تسمع شيئًا عن على فرج وزوجته خديجه »

فضحك الصبى ملء فيه وقال « لقد ذهبت الى المنزل اذ حدثتنى النفس انهما قد يكونان فى قلق على وعلى تقيسة ، فلما دقت الباب لم يجب أحد ، فبقيت أدقه مدة طويلة وفى آخر مرة

سمعت صوت خديجة في خفوت يقول « امش من هنا ،
ما فيش حد »

« فصحت بها قائلاً : أنا عبد الله يأمى ! ولكنها أجابت بأن
هذا قول كاذب لان عبد الله مات في امبابه وان القائد الفرنسي
أخذ نفيسة في حريمه ولم أستطع أن اقنعها مطلقاً فذهبت في
اليوم التالي ولكنني وجدت البيت خاوياً على عروشه وعلمت
انهما قد هربا الى بلاد الارياف »

وفي الحقيقة عمت المصريين الدهشة اذ رأوا نشاط الفاتحين
الغزاة ، فلم يكذب يعضى أسبوع على واقعة امبابه حتى عاد الحال
الى نصابه ، وتبدلت القوضى والقلقل سكونا ودعة ، وتشكل
الديوان الجديد من الاعيان والعلماء ، وبدأ أعماله واجتماعاته ،
وفتحت أبواب المساجد بعد أن كانت موصدة وغصت رحابها
بالمصلين وانطلق الموظفون الاقباط يجوبون العوايد والضرائب ،
ومضى الناس يدفعونها كالعادة بلا مقاومة ولا ممانعة

وكل ما في الأمر أن حكومة ذهبت وحكومة جديدة أتت ،
والحال هي الحال لا تغيير ولا تبديل

وفي عدة أيام لا تزيد عن نصف شهر كانت البقية الباقية من
جيش ابراهيم بك قد تبددت ، وطردت الى الشام وكان نابوليون
نفسه هو الذي يتعقبها . أما الجنرال ديسكس فسار الى الصعيد
لمطاردة جيش مراد

وكانت صنائع الفرنسيين وجواسيسهم متنقلين في كل مكان
مندسين في الجماهير ولكن ظل سر الفتى المملوك الجريح مكتوما
لا يتعدى حجرته

وأصبحت مرغريت شاحبة ذاوية غائرة العينين ، وظل ليفبر
متمللا متضايقا كما رآها كذلك ، ولكنها لم تكن تتقبل مساعدة
من أحد ، اذ أصرت على أن تقوم وحدها بتمريض عثمان
وبدأ المريض يفيق قليلا ويثوب الى نفسه رويداً ، ويفتح
عينيه كالطفل فيحومان حوله ويتبعانها في ذهول وعجب ، حتى
جاء اليوم الذي استطاع أن يشكرها بعينه ، ثم تمكن أخيراً من
تمتمة كلمات الشكر لها على ما أدت نحوه

ولم يكن بيت في المنزل غيرها ونفيسة والفتاة العليمة والخدام
السودانية ، وكانت مرغريت من وجود الفتاة المريضة أبدأ في
قلق وحزع لأنها شعرت بالمسؤولية وكانت تخشى أن يلوم عليها
الشيخ البكرى بعدئذ لما يعلم انها أذنت لفتى جريح أن يقيم تحت
سقف واحد في بيت تقيم فيه فتاته ، والحريم عنده مقدس
لا تطأه قدم رجل

ولم تكن تخشى على نفيسة ما تخشاه على الفتاة الاخرى ، اذ
كانت هذه قد بلغت سن الزواج ، عذبة الخلق بلا ريب ، ولكنها
كانت متخلمة لعوبا ، تعجب بالحسان من الفتيتان . متقلبة الرأي
مندفعة مع العاطفة

وكانت تقضى الساعات الطوال فى زينتها وصبغ يديها بين وقت وآخر بالحناء . وتكحيل عينيها . والوقوف عشرين مرة او تزيد فى اليوم امام المرأة واسنانها اللؤلؤية تبين من بين شففتيها وهى تقول « ألسـت جميلة يـاست ؟ »

وكانت مرغريت تنظر الى هذا الوجه الاسمر « المسمم » والعينين البراقـتين الفاتـنتين والشفـفتين الورديتين . واخذ الناعم الاثـيل . ولا تستطيع ان تنكر عليها جمالها

نعم . ذلك هو الجمال الشرقى . جمال فتاة فى الربيع الخامس عشر بكل روعته وفتنته وسحره وغريزته التى لا سلطان عليها من العلم والخلق والتهذيب . اذ تجتمع اليها عقلية طفلة وارادة صبية

وكانت مرغريت تشعر بخوف خفى لا تدرك سببه كلما نظرت الى الفتاة وأجالت العين فى هذا الجمال الرائع . ولذلك عانقت الفتاة وقالت وهى ضاحكة ضحكة لا تخلو نبراتها من شهقة المنتحب « يا ليتك يا حبيبتي كنت أقل جمالا من هذا ! »

وكانت مخاوفها على نفيسة أقل من ذلك كثيراً . ولئن كانت نفيسة قد أدركت السن التى لا بد للفتاة فيها من وضع البرقع على وجهها . فلم تنشأ فى حريم – ولا تربت فى خدر . ولا حاط حياتها مايحوط نساء الحريم من المساوىء – فخرجت أكثر حرية . وأمتن ارادة . وأصح بدنا . وأقوى جثمانا . وكانت أفضل من أخيها

وأرجع عقلا . اذ كان ذهنها خاليا من العصبية والعناد والتشبث
بالرأى

ولئن كان لسانها سليطا ينبىء عن امرأة وقاح مأكرة عارفة
بأساليب اخضاع الزوج لسلطانها . فقد كانت مطوعا لمرغريت .
نازلة على أوامرها أكثر انصياعا لها منها يوم كانت تسكن مع
زوجة عمها خديجة

وكانت تعينها على اعمال البيت وتحمل عنها الشيء الكثير من
المتاعب لا تكل ولا تمل . وتجلس الساعات الطوال بجانب فراش
المريض . تطرد الذباب عن وجهه وتمضى تقصص على عثمان نبذا من
الاخبار التى كان يحبىء بها عبد الله اخوها فاذا انصرفت من
الحجرة اتبعها عثمان بنظراته ، وهو فى لهفة وألم
ولكن لم تأخذ نقاهته فى الاستمرار . فلئن كانت جراحه
قد بدأت تندمل فقد كان يسعل سعالا مؤلما ، ويصاب فى الليل
بضيق التنفس

فكان جول ليفبر يهز رأسه فى قلق ويقول « اننى أخشى
يامدام انه على الرغم من مجهوداتك كلها لا تزال أيام الفتى معدودة »
وكانت مرغريت تجزع أشد الجزع وتقول « يا آلهى ألا
يستطاع عمل شىء لنجاته . أيموت بعد كل هذه الاسابيع التى
نجت فيها حياته من الخطر »

فوقف العجوز ليفبر موقف الحائر المرتبك ولم يجد حيلة

غير هز كتفيه

وقال بعد برهة « ألم يره الشحاذ منذ زمن ؟ »

فأجابته مرغريت « نعم . منذ أيام لم يحضر »

فقال ليفبر « سأبحث اذن عن عبد الله وأطلب اليه المبحث
عن ذلك السائل »

فقالت مرغريت مستهزئة بالفكرة « وماذا تظن هذا السائل
مستطيعاً أن يفعل »

فأجاب جول ليفبر « لا أدري ولكن فى نفسى ايماناً به مع
كل ذلك »

وجاء الشحاذ على منبثق الفجر

قال وهو يعتذر ويتحلى من غيابه : « اسأل الله المغفرة
يا ست عن غيابى الطويل فقد كانت عندى مشاغل أدبتها واحمد
ربنا الذى قيض لعبد الله ان يقابلنى الآن وقد كنت ذاهباً الى
جامع السلطان حسن لتأدية صلاة الصبح فى ميقاتها »

ولما فحص الجريح اشئى يقول « كل هذا يا ست من جرح
الرصاصة ولا أعرف ماذا حصل له ثانية بعد أن كان آخذاً فى
التحسين ولست طبيباً ولكن لا بد من أن نستنجد بأى انسان
يعرف الطب ولو من معسكر العدو »

فانبرى ليفبر يقول « وماذا تقصد بهذا يا افندى ؟ »

قال السائل « لست أقصد الا اننى سأذهب الى الجيش الفرنسى

واطلب (حكيمًا) لاننى سمعت ان لديهم حكماء كثيرين وان منهم
مهرة حاذقين »

فصاح ليفبر « يالى من احمق . لم تخطر لى انا هذه الفكرة .
اننى سأذهب الى « الصول » وأكله فى الموضوع لان لى به معرفة »
فقال السائل « كلا . ان محسوبك هو الذى سيذهب فان
الصول ربما يتكلم وينم عن الخبر . ولكن الله هدانى الى معرفة
شخص آخر لا يفتح فمه قط وسيأتى معى عبد الله »
وكانت بجانب مركز القيادة العليا فى الازبكية قهوة اعتاد
الضباط أن يجلسوا فيها يدخنون ويتحدثون ويجرعون كؤوس
« المستكة »

وكان من بين الجالسين ضابط يلبس ثوب هيئة اركان الحرب
وهو أحمر الوجه ذو عينين سوداوين تبين فيها مخائل الذكاء .
مفراح متهلل المعارف

وكان يضحك حتى يكاد يستلقى من شدة الضحك . ولا يستطيع
أن يمسك عليه ضحكاته . وكان يقول « يا آله العالمين ! ليتكم
رأيتم وجهه عندما ضرب الشيخ « بصوابه » فى اللحم وراح
مطلعها وقد النقطت قطعة من الكلاوى وقبل ما نستطيع أن
ننفخ نحن فيما بأيدينا منه حتى يبرد . كان صاحنا قد قذف بها
فى حلقه . وطوحها فهوت الى بطنه وكنت أحسبه سيلتقطها ثانية
من شدة الحرارة ... ولكن ماذا تريد » قال ذلك ورفع بصره لاحد

« المراسلات » وكان قد حضر لينبئه بأن زائراً قد جاء لزيارته
ثم وجه الخطاب الى الجندي قائلاً « أقول انه يريد مقابلتي قل
له أن يذهب الى . . . آه تقول انه « شحاذ . آه . هذا موضوع
آخر . باردون ياسادة . هذا صديق قديم طالما بحثنا عنه . باردون
يا جماعة »

ومضى منصرفاً في عجلة ولهفة

وصاح بفرح وسرور صادق اذ دخل الحارة ورأى الشحاذ
في انتظاره وعبد الله معه « آه . لقد وجدتك أخيراً . اننى مسرور
جداً للقياك . فأين كنت يا صاح . ولماذا لم تحضر للمطالبة بالجائزة »
فقال الشحاذ « ها أنا قد حضرت للمطالبة بها »

فأجاب الضابط الفرنسى « عال خالص » وستجد الجنرال
كريماً معطاء وقد اخبرنى بذلك ، ولو كان أتيح له الاهتمام اليك
لجعلك رئيس قلم المخابرات ، كم كيساً من الذهب تريد »

فقال الشحاذ « لست اسأل مالا « يابك » بل ان لى صديقاً
هو اليوم فى حالة المرض ويخشى على حياته . وكل ما أطلبه اليك
أن تبعث اليه بأحسن حكيم عندكم على شرط أن يكون رجلاً
صموتاً لا يتكلم ولا يفشى السر »

فأجاب الآخر مندهشاً « آه . اذن الامر سر . هل الموضوع
يختص بامرأة »

فقال الشحاذ « كلا . بل بملوك من أهل المسكاة »

فأجاب الضابط وقد أشرق وجهه اذ خطرت له الفكرة
« ليس مراد . هيه ؟ أليس كذلك ؟ »

فقال الشحاذ دكلا . لا هو مراد ولا ابراهيم ولا الالنى . بل
فتى صغير ليس الا . . . وكان من بين الذين حملوا جرحى فى
واقعة امبابه »

فعاد الضابط يقول « اذن لست تطلب طبيباً ، بل الامر يتعلق
بجراح انى مسرور الآن لان لدينا الجراح (لارى) فهو أبدع
جراح مشى مع جيش . ورافق حملة . وعالج جروح الجند ، وهو من
اصدقائى ولا يرفض الذهاب اذا طلبت اليه ذلك ، ثم لا حاجة الى
التكتم فانه لا هم له الا رؤية الجراح واجراء العمليات ولا يسأل
عن الجريح ولا يطلب معلومات ولا يحفل ولا يكثرث . وسواء
كان الجريح ضابطاً او عسكرياً ولا يقيس الناس « بالازبلايط »
الذى على اكتافهم والنجوم والاشرطة التى على كواهلهم وأذرعهم ،
وانما يزنهم بجروحهم وعللهم واصافاتهم . له الله ان هذا لمقياس
غريب تقاس الانسانية به . ولقد رأيت يعطى من وقته قائداً من القواد
الكبار دقيقتين وجندى صغير نصف ليلة . ولكن له منهما
الجزء ، فبينما يتلقى من ذلك القائد كلمة شكر او منحة او هدية
يمجد ذلك الجندى الصغير الرتبة متأهباً ليفديه بالروح اذا طلب
الفدى »

« والان هيامى اليه فانى اعتقد انه الان فى « الاسبتاليه »

وسأقول له ان هناك حالة اصابة خطيرة ، وليس لها ضرب . فانه اذا لم تبعثه هذه الكلمات على الذهاب ، فان ينفع فيه شئ آخر ولا كلمات بونا برت نفسه »

ومضى بهما الى بناء هناك أعد للمستشفى وطلب اليهما ان ينتظراه ريثما يعود

ولم يلبث ان رجع اليهما ومعه رجل يناهز الثلاثين مرتدياً معطفاً ابيض فوق بذلته العسكرية

وقال الضابط « هاهو مسيو لارى . قل له ماذا تريد ؟ »

فراح الشحاذ يقص الحكاية . وجعل الجراح يستمع اليه ثم سأله بضعة أسئلة دون أن يهتم بالسؤال عن رتبة الجريح أو مكانته الاجتماعية

ولم يكذب يقتنع حتى قال « طيب ، لقد فهمت ، وما على الا أن اذهب وأحضر أدواتي الجراحية »

وعندما كان الجراح على وشك أن ينصرف مع الشحاذ والفتى الاستاذ أقبل ضابط فى ثوب فرقة المهندسين وهو يقول « آه . يا سيدى الجراح . الى أين . آه الرؤية اصابة فى المدينة ، وأين حرسك اذن ؟ »

فقال الجراح « وعلام الحرس يا صاح ؟ »
فبرز الآخر كتنفيه وكان يلوح عليه انه من أصدقاء الجراح

وصفوة صحابه « انك أبدأ هازيء بالاخطار ولا تعرف الحذر
قط . ولكن اذا سمحت بأن ارافقك فعلت »

فنظر الشحاذا الى الكبتن ديبو اذ رآه قد تقدم الى الايام .
فعاجله الجراح قائلاً « باردون يا سيدي الميجور . هذه
مسألة دقيقة خطيرة ، وقد وعدت هذا الافندى أن لا أبوح
بكلمة واحدة عنها . ولهذا يجب على أن أربوعدى »

فقال الضابط « هذا كلام طيب ، ولكن خذ انت ميثاقى عنى
اننى لن أفوه بكلمة واحدة . ولك ان تثق بحكمتى وسدادى .
وأما وقد أثرت فضولى ، فسأذهب سأذهب بلا شك . اذ
لعل الامر يتعلق باوائك الحوريات اللاتى كنا نسمع عنها قبل
المجىء ، آه . لازم إنك ذاهب الى دار امرأة مسالمة حميلة لمعالجتها .
نعم . لقد تذكرت . انك سبقتنا الى مصر ومكنت فيها رديحاً من
الزمن قبل وصولنا »

ولم تكن هناك من حيلة غير الاذعان الى الطلب ، فhez الجراح
شفتيه أسفأ وقال « طيب تعال معنا اذا كنت مصرأ على أن
تأتى ، ولكن تذكر اننى اعتمد على حكمتك فلن تقول شيئاً قط
عما ترى »

ومشى عبد الله فى المقدمة وتبعه الجراح والمهندس

ثم الشحاذا والكبتن ديبو على قيد خطوات

فقال الشحاذا فى الطريق يسأل صاحبه « هل سمعتم ماذا

كان من امر مراد بك ؟ »

فأجابه الكمّتن ديبو « نعم . لقد هزمه الجنرال ديسكس
فالتجأ الى اسوان ولكنه لم يلق القبض عليه بعد »

فأجاب السائل بلهجة اليأس « اننى فى ريب من مقدرة
قائدكم على تحقيق ذلك ، ولكن يسرنى ان أسمع ان مراداً قد
أصبح طريداً شريداً ، هذا نبأ بديع »

فقال الضابط ببرود « والله لا أدفع فى حياته ولا قرشاً
واحداً اذا جئتنى به ممسكاً من خناقه »

فقال السائل « اللهم حقق هذه ايضاً »

وفحص الجراح المريض متمجلاً ولكنه كان مع ذلك دقيقاً
ولم يلبث ان نظرا الى مرغريت وكانت واقفة بجانبه وقال « سيدتى .
لقد قت بعمل حسن خير القيام ولست فى دهشة من انك لم توفقى
من هذه الوجهة ، وأشار الى صدر الجريح ، فان ذلك عمل لا يدركه
غير الجراح . اننى مضطر الى عمل عملية جراحية . فهلا شرحت
ذلك اللقى . أخائف هو ؟ »

وشرحت مرغريت لللقى المملوك ما قال الجراح وللحال بدت
على طلعتة النخيلة المهزولة ابتسامة حلوة وقال بصوت خافت :
خائف ! أمثل يخاف . أنا المملوك اظهر خوفاً امام رجل من الافرنك
قولى له ان يقطع بدنى ، ويفعل فى جثمانى ما يشاء . والله يهبني
القوة على احتمال الألم »

فلما فهم الجراح ما قال الفتي وضع يده على كتفه ملاطفاً وقال
 « انك فتى شجاع شهم ، معذرة أيها الصديق عما قلت »
 ولم يكذب يري جول ليفبر الآلات الجراحية حتى افلت هارباً
 الى الحجرة الاخرى

واذ ذاك قال الجراح « سيدتي ، ليس هذا مكانك ، ألا
 تفضل على بطشت ومناشف ، وأنت يا سيدي الميجور هلا
 تفضلت بمساعدتي »

وكان الميجور والكبتن ديبو وافقين عند باب الحجرة ، فلما
 سمع الاول ما قال الجراح تقدم قائلاً « بكل سرور يا سيدي »
 وقالت مرغريت وان كان وجهها قد شحب وامتعق « وأنا
 أيضاً سأمكنك فقد يتشجع لرؤياي معكما »

وللحال تقدم الشحاذ وهو يقول « أظن انني أستطيع ذلك
 أكثر من غيري ، فاني قد اعتدت تحريكه واسناده »

قال ذلك ووضع ذراعيه تحت المريض ورفع به بكل رفق
 وتؤدة ووضع ثانياً على المرتبة التي بسطت على اديم الحجرة .
 فصاح الميجور من عجب ودهشة « ياسلام ، انك عضلات
 من الحديد أيها الشيخ »

فأجابه هذا قائلاً « ان الله قد أوهن ساقى وعوضنى عنهما
 قوة اخرى والله الحمد »

وانصرف الوقوف من الحجرة ولم يبق فيها غير الجراح

ومرغريت والفتى الجريح والضابط المهندس
 وجاءت مرغريت فجلست راکعة بجانب فراش عثمان وامسكت
 بيديه وأخرج الجراح مشارطه وأدواته الاخرى
 وهمست مرغريت فى اذن الفتى « تشجع يا عثمان »
 فأطرق برأسه علامة الایجاب وابتسم واذا ذاك أشاحت
 مرغريت عن المنظر الالیم وجهها

وشعرت بقبضة يده تشد على يدها ولكمه لم يصدر أنه ولم
 يتوجع ، ولم يزفر مطلقاً عند ما سمع صوت المنشار يقطع عظامه .
 وكانت هى ترتعد متألماً والدماء تفيض من فؤادها ألماً وحزناً
 ورعباً عليه

وخيل اليها انه قد مضت اجيال طوال قبل أن تسمع صوت
 الجراح وقد بدأ يتكلم

قال « سيدتى ، لقد انتهت العملية . وقد ثبت ما كنت أعتقد
 لقد اتيت فى الوقت المناسب ، واننى مسرور لاننى رأيت هذه
 الحالة المرضية الخطيرة ، وأنا أكثر الان سرورا لاننى استطعت
 ان اسعف فتى شجاعا باسلا كهذا الشاب »

فتمتم عثمان بكلمات الشكر ولكن عبد الله ونفيسة دخلا بعد
 ذلك فقبلا يد الجراح بحرارة المقدر للصنيع الشاكر للید البيضاء
 فجمع الجراح مشارطه وأدواته وهو يقول « سأحضر غدا
 يا سيدتى ، لعمل الضمادة الاولى »

ودخل اذ ذاك العم جول فألح على الضيوف ان يمشوا قليلاً لشرب « القهوة والشربات »

ولما انصرفوا وقفوا قليلاً عند السلم وفي تلك اللحظة ازيج ستر وبدأ وجهه عند بابه ، وكانت تلك « نظلة » وقد أجالت جفניה في الفرنسيين الثلاثة ، ولكن نظراتها استقرت أخيراً على وجه الضابط المهندس برتبة « الميجور » وكان وسيم الطلعة ناضراً المحيياً ، فلما لحظ وجه الفتاة روع قليلاً وتراجع خطوتين امام وجه فتاة جميلة

وللحال تلاقت نظراتها ونظراته لحظة من الزمن ثم لم يلبث ان اسدل الستار وفي الطريقت التفت الكبتين ديمو الى الضابط المهندس وقال « ماذا ترى يا صاح ، انه لمنزل غريب . أليس كذلك . وأهله أغرب منه ، وان لم تر فيه للحجريات أثراً ! »

فنظر الميجور لافون الى صاحبه متفحصاً خشية أن يكون قد لحظ شيئاً مما جرى

ولكنه ابتسم واعتصم بالصمت فلم يقل لرفيقه شيئاً



الفصل السادس عشر

الغلاقل فى القاهرة

دالت دولة المماليك وزال سلطانهم بعد معركة امبابه فهرب ابراهيم الى الشام ، واعتصم مراد بالصعيد ومضى متنقلا من بلد الى بلد والقائد الفرنسى ديسكس يطارده ولا يلاحقه . وما نظن ان شعبا رضى بالفزاة وصبر للفتح رضى أهل مصر يومذاك بما وقع فى بلادهم

واستتب بالفرنسيين الفاتحين المقام ، واخذوا الى السكنى والاطمئنان على ملكهم الجديد ، وقد أدى جيشهم واجبه . فلم يبق على اهل السلم منهم الا ان يؤدوا هم فرائضهم . فلم يبق فى مصر شىء عن اديانها وعقائدها وتاريخها القديم . ومدنيتها الغابرة لم يعالجوه بالدرس والفحص

ومضى علماءهم يجوبون الوادى وكان من مجهوداتهم الاثر الصالح الخالد . بل ابدع اثر وابقى على الزمن . من تلك الحملة الفرنسية على مصر

وليس اكليل الغار الذى وضعه اولئك العلماء على رأس الفاتح الاكبر بونارت أقل من الاكليل التى زانت جيوشه بها جبينه واختلطت الجنود بالشعب وامتزجوا بعامه الاهلين . وغشو

القهاوى واختلّفوا الى المجامع . ودخلوا اضيق الحوارى . واهدأ
الدروب دون ان يمسه احد بأذاة

وجعل ديوان العلماء يجتمع بين حين وآخر ليكون اداة
اتصال بين الفاتح وبين الشعب . وجعلت المناشير والبلاغات تترى
وهى طافحة بالمدّر والتهديدات والوعود والاغراءات. والعواطف
والتحجب . فى اشكال مختلفة وأساليب متباينة

ولكن الأتواب الكبرى التى كانت فى احياء المدينة هدمت.
فحمل ذلك السكان على الرعب ، وذهبوا فى تأويل ذلك مذاهب
شتى ، فمن قائل ان ذلك انما كان من المحتلين لانهم يدبرون مكيدة
لمذبحة كبرى ، ومن قائل انهم يفكرون فى الغارة على الدور ليلا
وضربت الضرائب الفادحة على المشايخ والعلماء وقبض على محمد
الكريم حاكم الاسكندرية بتهمة التواطؤ ومراداً ضد الفرنسيين
وشنق على آعين الناس وطافوا برأسه فى الشوارع عبرة لغيره .
ثم عمدوا الى المساجد التى كانت تقم فى طريق اصلاح الشوارع
فهدموها دون ان يراعوا حرمة الدين الذى يعبد فيها ، وعواطف
القائتين الذين يؤمنونها الى الاراضى التى كانت مخصصة بالجبابات
والمفابر فسادوا فوقها الأبنية .

واذ ذاك بدأ الشعب يتعلمل . ويشور نائره .

وبدأت المؤامرات بين العامة فى القهاوى وانطلق العلماء
والمشايخ يتأهبون للنهوض

وكان الفقى عبد الله من أشد المتحمسين فى ذات يوم وقد
أغنى شيخه النسل الفقى من البيت الى الشارع الساكن
ولم يكن هو وحده الذى افلت من الدار يومذاك ، بل كان
فرداً من مئات الناس وقد خرجوا من ديارهم مهطعين ناحية الازهر
ولما بلغ عبد الله المسجد كانت باحته غاصة بالجماهير والجميع
وقوف يستمعون لخطبة كان يخطبها الشيخ الطنطاوى يدعوهم
فيها الى النهوض ويستفز حميتهم ، ويهيب بهم أن يخرجوا من
سكوتهم ذاك الى القتال دفاعاً عن أرض آبائهم
وكانت كلماته الحارة الجياشة المستمرة ترسل لهيب النار فى
نفوس السامعين ، وقد وجدت آذاناً واعية ، وأرواحاً متأهبة
لسماع تلك النعمة المخيفة .

وما كاد الخطيب ينتهى من مقالته حتى خرج الجميع صائحين
صارخين من أبواب متفرقة وهم على أثر الالهة للعراك والنضال
ووضعوا فى الشوارع المتاريس والحواجز ، وانضم اليهم
جموع آخرون كانوا من قبل متأهبين لتلبية النداء وانطلقوا ألوفاً
كانما حسبوا أن صفوفهم تلك كفيلة بأن تطأ العدو بأقدامها .
وكان عبد الله عندما خرج القوم واقفاً باحد الابواب
الخارجية ، فاندفع مع التيار . وهاج تحت تأثير الزحام والعجيج
والضجيج هائج . فانطلق يصرخ « الموت للفاتح . الموت
للمصرانى ! »

ولم يلبث الفرنسيون ان أحسوا النبأ . وكانوا في غفلة لاهين .
 وكان بونابرت اذ ذاك في الروضة . فما كان من ديبوى حاكم
 المدينة الا انه ركب في سرية ضئيلة من فرسانه . ومضى ليلتي
 تلك الجموع لقمع الفتنة . اذ ظن ان الحادث ليس الا تجمهراً
 لا شرمه . ولا هو بالخطر الهيب

وكم من جندي أو فرنسي مسالم كان يومذاك يتنزه في
 العاصمة في غفلة وهو . فصادفوه في طريقه . وقتلوه

واندفع هذا الجمع الكبير الى حيث كان الجنرال كافريللي .
 وكان المصريون يطلقون عليه لقب « ابو خشبة » وذلك لانه كان
 ذا رجل خشبية . ولحسن حظ الرجل . كان غائباً عن بيته . فهجمت
 الجماهير على الدار فانهبوها وذبحوا من كان فيها

ولم تكذ تنطلق تلك الجماهير مندفعة كالامواج حتى لقيها
 القائد ديبوى في كتيبة من الفرسان

فلما شهد القوم الكتيبة قد دنت منهم . صاحوا صيحة ملأت
 الفضاء . ولكن تلك الكتيبة لم تفرق ولم تفرع

وتلفت عبد الله حوله ليجد له سبيلاً للهروب ولكنه كان
 محشوراً في شدة الزحام . ولم ينتبه الى رجل طويل القامة كان
 واقفاً اذ ذاك تحت سقيفة باب من أبواب المنازل التي في الشارع
 ولم يسمع صوت الأغا وهو يناديه

ولم تلبث تلك الصيحات المتعالية من حناجر خمسة آلاف

رجل . فى أشد حالات الاهتياج . أن قوت قلبه . وأثبتته فى مكانه . فأمسك بالهراوة التى كانت فى يده وقبضها قبضاً محكمًا . اذ خيل اليه انه لا بد أن يثبت ويترك فكرة الفرار . لانه اذا مات . تفتحت أبواب الجنة للقائه

وأخذ الفرسان يقتربون رويداً . وكانت الجماهير قد ملأت الشارع بمجموعها صائحة صارخة مهددة لاعنة وشهر الفرسان سيوفهم من أغمدها وبشارة من القائد تقدم الفرسان صوب المجموع

فرفمت اذ ذاك المدى والخناجر والعصى والنؤوس والمعاول فى الايدى والاذرع المتطاولة للقائم . ولكن الفرسان هجموا ولم يبالوا . وسمع صليل السيوف اذ تسقط فتقطع اللحم وتهيض العظام

فنتقدم عبد الله وضرب بهراوته الفارس الاول فى طليعة الكتيبة . فوقف الرجل مستوياً على سرجه . ليتفادى من الضربة وهجم ليعلو الفتى بسيفه . ولو سقطت تلك الضربة فوق رأسه . لنمى الى الشيخ فضل خير تلميذ كان لديه . وأذكى فتى تلقى العلم عنه .

ولكن عبد الله تراجع بسرعة ليخلو من الطعنة . فسقط على ظهره واقفاً فوق جثة رجل آخر . ولكن قبل ان تطأ سنايك الجواد المتقدم نحوه تناولت ذراع قوية والتقطته من مكانه

ذاك فأدخلته في زاوية في جدار هناك .

وكانت تلك الذراع ذراع الخصى وقال يسأل الفتى حانقاً
« ماذا تفعل هنا ؟ »

فقال عبد الله وهو لا يكاد يمسك انفاسه ولا يزال سلاحه
في يده « جئت لأدافع عن ديني وأرض آبائي ! »
فكان جواب الاغا « انك مجنون ! »

وعلى الرغم من الطمان الحار ، والخسارة في الانفس ، ظلت
الجماهير ثابتة في وجه تلك الكتيبة ، وتدافعت الى الامام وأخافت
الخييل ، وجعلت تمسك بالفرسان لتجتذرها الى الارض ، وسقط
من المشريبات وابل من الاحجار فوق رؤوس الفرسان ، وصيب
من القلل وقطم من الاخشاب
فأصدر القائد أوامره بالجوع ، وكانت الكتيبة على قلة
عددها ، ثابتة الجأش .

ومن نافذة هناك انطلق سكين حاد مربوط بحبل . فأصاب
القائد في رقبته . فرفع يديه وسقط على عنق جواده
فخرجت اذ ذاك من الجماهير صيحة تشق السماء . وتقدموا
بوحشية شديدة ولكن الفرسان عادوا الى الهجوم فالتقوا بقائدهم
الجريح . ومشى به الجمع وهم ممسكوه حتى لا يسقط عن السرج .
واذ ذاك صاح الاغا « رباه . ستسيل الدماء أنهاراً ، من أجل
فعلتهم تلك ، اذ اعتدوا على القائد »

وفي هذه اللحظة صاح منهم صائح « هيا بنا الى الحى
الافرنكى ! »

فلم تلبث كلمته ان صارت « مَرَدًّا » فصرخ الجمع بها كلهم
وانطلقوا منصرفين فبلغت الصبيحة اذن عبد الله وكان لا يزال
مذهولا من أثر السقطة ، والاغلا لا يزال ممسكا به فقال للاغا
« ماذا يقولون يا افندى ؟ »

فأجابه الخصى « انهم ذاهبون الى الحى الافرنكى »
فحاول الفتى التخلص من قبضة الخصى وصاح به « دعنى
أذهب . دعنى أذهب ان اختى تسكن هناك فى بيت امرأة افرنكية »
فقال الخصى « انهم لن ينالوها بسوء »
فأجاب عبد الله « نعم ، ولكن المرأة الافرنكية . انهم قاتلوها
بلا شك »

فقال الخصى بسكون « لن تكون هى المرأة الوحيدة
التي ستقتل »

فصاح به مغضبا « ولكن عثمان المملوك هناك نختبىء عندها »
فاشدت قبضة الخصى وقال « أتقول ان عثمان فى بيت
امرأة افرنكية . هل أنت فى حلم ؟ »

فظل الفتى على صياحه يقول « نعم . هذا صحيح ، لقد حمل
الى ذلك البيت بعد واقعة امبابه »

فقال الاغا وهو فى أشد الدهشة « يا سلام . أ يكون فى ذلك

المخبأ عثمان وأنا قلبت عليه المدينة كلها للبحث عنه ، يالى من احق
 مغفل اذ لم يخطر لى هذا الخاطر ، هلم بنا اذن ، هلم بنا
 وتولى عنه هدوءه السابق . وأمسك عبد الله من ذراعه ،
 وانطلق به فى عجلة لا يلوى على شىء . وهو يزاحم ويشيق فى
 الجموع طريقاً له ، لكى يستبق الحشد الى الحى ، واكنهما لم يكادا
 يبلغان أبواب الحى . حتى وجدا عندها خلقاً كثيراً قد ازدحموا
 ومنعوا الطريق على المارة . وكانت تسمع من داخل الشارع
 صيحات وعويل نساء قد اختلط بصوت أبواب تكسرونوا واذ تحطم
 ولكنهما مع ذلك تزاحما وجاهدا ليدخلا الحى . وكانت
 قوة الخصى تدفع الناس امامها . وعبد الله ممسك بالخصى من
 وسطه . ولم تكد لحظة واحدة تمضى . حتى شقا طريقا الى
 داخل الحارة

وكانت اكثر البيوت قد هوجمت وأعير عليها وانتهبت .
 وقتل أصحابها . ولكن كان ثمت بيت لا يزال هناك جمع كبير
 وقوفاً يبابه يقاتلون أهله . وهؤلاء لا يزالون يقاومون ويناضلون
 فهرعوا اليه . ولم ينتبها الى قعقة الاسلحة هناك
 وعلى الرغم من طول قامة الخصى لم يستطع أن يرى شيئاً
 لكثرة صفوف العمام التي امامه . فرفع عبد الله فوق رأسه قليلاً .
 وطلب اليه أن ينظر ويخبره ما الخطب .
 فحلق عبد الله بصره وللحال صاح « ان عثمان واقف

بالأب يدافع عنه الناس والشحاذ واقف بجانبه . ومن ورأهما
 التاجر الضخم البدن وهو يحمل في يده سيفاً
 فأسقطه الخصى إلى الأرض وهمس له في أذنه « اذهب عادياً
 مسرداً إلى ثكنة الأفرنجك واطلب اليهم أن يحضروا على عجل . والله
 سيهب رجائك خفة الأجنحة »

فاسل الفتي في الحال من وسط الجموع وهو يتقبض وينفلت
 من بين الأقدام بينما شق الأغا طريقه غير آبه بمعارضة الناس .
 ولا مكترث بكلماتهم وتهديداتهم . وفي مدخل البيت وقفت
 مرغريت سافرة ثابتة غير مروعة . وأمامها وقف ليفبر ممسكا
 بسيفه الغريب ذاك . وكان الشحاذ فوق « المصطبة » بجانبه
 مستنداً إلى الجدار ووقف الفتي المملوك . والاربطة تهفوم مفكوكة
 من فوق رأسه . وهو منحول مهزول . ولكن السيف يلمع في
 يده . ويهتز في يمينه . وكانما هو في مكانه ذاك كالدب الجريم .
 يطالب الكلاب بالهجوم عليه

ومن خلف هؤلاء جميعاً كانت نفيسة تطل صامتة رابطة
 الجأش . تشهد ما يجري أمامها بروح الفضول أكثر من الخوف
 بينما من المشربية كانت تطل فتاة أخرى وعيناها النجلوان
 تبرقان رعباً وخوفاً وهي تصرخ بين آونة وأخرى وتولول وهي
 في حالة تشنج مخيف

فتبين الأغا الموقف كله بنظرة واحدة ثم عادت عينه فاستقرت

على الفتى النحيل المهزول . ولكنه تولى عنه الى وجهه الشحاذ .
وقد بدا في عين الخصى أمارات العجب اذ رأى السائل هناك
ودلائل الدهشة والحيرة

وسقطت « طوبة » رميت من مسافة بعيدة فاصابت وجه
عثمان ، وسقط السيف من يده ، اذ تراجع من قوة الصدمة ،
واذ ذك صاح رجل من الجمع ضيخم البدن صيحة الحمية
فوثب والسكين في يده يريد قتل المملوك ، ولكن الشحاذ بسرعة
البرق التقط السيف فعدا به على الرجل قبل ان يصل الى الفتى ،
فأهوى به على رأسه فسقط الرجل صريعاً لا حراك به . واذ ذاك
قال الخصى لنفسه وهو في أشد حالة الدهشة « عيّن الله لم اكن
أظن ان في مصر كلها رجلاً يستطيع ان يضرب هذه الضربة
اللهم الا رجلاً أعرفه »

وتراجعت الجموع مذعورة أمام النصل وهو يبرق ازاء
أعينهم ، فوثب الاغا من موقعه وقفز فوق المصطبة

فرفع السيف ، ولكن عثمان صاح بالشحاذ وهو في أشد
حالات العياء « قف . قف . لا تضرب . هذا رضوان اغا ! »
وبقى السيف معلقاً لحظة واحدة ، كأنما لم يكن عن دافع من
الشحاذ ، وانما كان في نية على الضرب . ولاح في عين الشحاذ
ريق الوحشية والحقد ، اذ لمح شبح ذلك الخصى . ولكنه ولى
وجهه عنه ، وأنزل سيفه على غير ارادته ، ووجه النصل ناحية الجموع

واضطرب الخصى كذلك اذ التقت عيناه فى تلك اللحظة
بمعنى ذلك السائل ، ولاح على وجهه ظل الالم ، وطائف الشك ،
ونسى الموقف الذى هو فيه . فوقف ينظر الى صاحبه ذاك .

ولكنه انتبه ثانية على صيحة مخيفة من الجموع وهم يقولون
« اوعوا السكة . اوعوا السكة لاخواننا الجزارين فانهم قادمون »
فأفسحت الجماهير طريقاً ، وأخذوا يهتفون ويرحبون
بالجزارين وهم قادمون . بعد ان عجز أولئك الجموع على كثرة
عددهم على أن يقتحموا الباب ويغلبوا رجلين اثنين .

وكان هؤلاء مسلحين بكل انواع الاسلحة الحادة .
من مدى « وسواطير » وخناجر ومناشير وكانت تلك الطائفة
قد أحدثت فى ذلك اليوم أشنع ما حصل فيه من القتل والطعن
والاغتيال والسرقات

فالتفت الخصى ناحية الجموع وهى قادمة تشق طريقها فى
اوسط الزحام . ككلاب الصيد

ولم يصد على وجه الخصى أى أثر للخوف ولئن كان هذا
الخصى نصف رجل فقد تجلت عليه رجولة رائعة اذ نظر الى
الجمهور المزدحم والى وجوههم الموعدة المبرقة وهم يصبون عليه
وعلى الوقوف بجانبه جام غضبهم ولعناتهم

وللحال رفع صوته الضعيف الرفيع بالكلام فمضى يقول
مخاطباً الجماهير « أيها المجانين . أيها المجانين . انصرفوا قبل أن

يحمل بكم العقاب . انصرفوا قبل أن يصيبكم القصاص ، هل تولاكم الجنون حتى لا تعوا ما تفعلون »

فصرخ القوم في وجهه قائلين « يا ابن الكاب . يا ولى النصارى . يا اغا يا طواشى ، يا ملعون الشبه يا خنزير ، اذهب من هنا والا مزقت اربا ، انتظر انتظر فان الجزارين قادمون »
فتلفت حوله ورد عليهم قائلا « أليس فيكم قوم من ممالك مراد بك ، لان هنا عثمان السلحدار ، وهاهو هذا الفتى . من منكم يغيث مراداً وقومه ؟ »

وكانت تلك الكلمة الاخيرة الجملة التى كان المماليك يدعون فيها الناس الى النجدة والاحتشاد الى القتال فلما سمع الجمع بها انفجرت منهم الاصوات صائحة « ليسقط المماليك الملاعين »

ولكن الخصى سمع من بين الجموع المزدحمة صوتاً يردد وراءه النداء « مراد ، مراد ، مراد » وتلقته أصوات مثلها من أماكن متفرقة من الجمع . وقبل ان يخطو الذين هزتهم صرخة الخصى ويبلغوا مكانه ، تقدم الجزارون فأطبقوا عليهم ولملت المدى والآلات الحادة الاخرى فى أيديهم فاصطدمت المدى بالسيوف وأما الجموع الاخرى فراحت ترشق الخصى وأنصاره بالحجارة وغيرها من القذائف

ومرقت بجانب الخصى قطعة من الخشب فأصابها الشيخ

ليفبر في صدره فسقط سيفه من يده من أثر الصدمة وتراجع
هو فوق فوق الحجارة

وهرعت مرغريت لترفعه عن الارض وتحمله الى الردهة
لتحمله من الخطر

واذ ذاك تبادت اليها الايدي وأمسكت بثوبها تجرها منه
وتجتذبا ولو استطاعوا أن يسقطوها الى الارض لما كان ثمت مفر
لها من أذاهم

ومن المائدة جعلت الفتاة المصرية تصرخ وتولول ومن
الردهة مضت نهيسة تمسك بثوب مرغريت من خلف وتشدها
اليها بكل قواها

وأمسك الخصى سيف جول اذ سقط من راحته بكلتا يديه
وجعل يضرب به يمنة ويسرة بوحشية وحنق مخيف ولكن كان
سيف الشجاع وهو أقصر من ذلك السيف قد أعمل القتل في
الجموع ، وحمل يخطف الارواح كخطف البرق ، وكان يهترو ويتنقل
من اليمين الى اليسار بسرعة مدهشة وخفة عجيبة وكما ضرب
وأسأ لم يحتج الى ضربه مرة أخرى ، وأما عثمان فكان يقاتل
وهو واقف يلعن ويسب ويتسخط لانه لم يكن يحمل في يده
غير سكين قصير

ولم يبق بعد لحظات من اولئك الممالك الذين اقبلوا لغياث
الفتى المملوك من محرجة أمره الا اثنان فقط ، وأما الباقون فقد

سقطوا صرعى وقتلى تحت السكاكين والمدى التى علت رؤوسهم
وكانت الجثث المكدسة قد كفلت للباقيين متاريس تحميهم من
شرة الجمع الغاضب المهاجم ، ولومضت دقيقتان لاخذت الجماهير
أنفاس البقية الضئيلة من الواقفين ، ولكن لم يلبث ان سمع القوم
أصوات لمنات وسباب فى أقصى الحارة وصليل السيوف والحديد
فتزاحمت الجماهير وحدث هرج ومرج ، واشتد الفزع وعلت
الاصوات .

وباغ الانين والصياح فى أول الشارع كبدا السماء ، اذ كانت
فرسان الفرنسيين قد هجموا على الجموع ، والسيوف تعالو وتهبط
فى أيديهم ، وشق الفرسان طريقهم الى الحارة

وكان فى الطليعة الميجور لافون فألقى نظرة سريعة على
الوقوف بالباب ثم رفع بصره الى النافذة فلمح الفتاة وكانت قد
مدت وهى فاقدة شعورها ذراعيها نحوه مستغيثة به فرفع يده
اليها كى تنقذ شهم ، مجيباً على غياثها بأنه مغيثها

وجاء عبد الله وهو راكب خلف أحد الجنود الفرسان فلما
رأى الخصى صاح به « لقد جئت بهم - يا افندى فحمد الله اننا
جئنا قبل فوات الوقت »

فأجابه الخصى « لولا وجود هذا الشحاذ لكان مجيئك فى
هذه اللحظة بعد الاوان »

فصاح عبد الله من عجب ودهشة «أتقول الشحاذ، عجبا،
وأين هو؟»

فتلفتا ليشهدا أين الرجل ولكن الشحاذ كان قد انصرف
غير تارك وراءه شيئا الا سيفاً تقطر منه الدماء وحوله حلقة من
القتلى والجثث الهامدة.



الفصل السابع عشر

المرتدان

بجانب ضفة النهر على مقربة من المعادى كان ثمت دير للاقباط،
وعند هذه النقطة يتعرض النيل ويستقيم منصبا الى الشمال
وفي هذه البقعة كانت تلوح في عرض النهر مركب تحدث
من جريانها خريراً شديداً اذ كان الوقت وقت الفيضان
وفي المركب كانت امرأتان من الاهالى جالستين متألمتين
حزينتين، تنتحبان بين آونة واخرى انتحاباً خافتاً وتبكيان
بكاء مرأ

وكان هناك رجل من الاهالى طويل القامة ممسكا بالحبال
وكان مشغولاً بعمله في السفينة اذ كان النهر في أشد فيضه،
ولكنه كان يلتقي بين لحظة وأخرى نظرة رحيمة مستفسرة على

رجل كان جالساً القرفصاء في قاع السفينة
ولم يكن أيوب في بلواه بأروع منظراً ولا أبعث على الشفقة
والرثاء له من منظر ذلك الرجل في مكانه ذاك

وكان الرجل قصير القامة ضخمة الجثة وكان منظره يدل على
انه كان في أيام نعمته وعهد عزه رجلاً مفراحاً مبطناً يعطى النفس
جميع شهواتها ومناعمها وكانت رقبته لا تزال متوردة ولكن
وجهه كان شاحباً مكفهراً وعيناه تنظران الى شيء ملفف في
قطعة من القماش ملقى عن كشب منه في السفينة ، وهو في صمت
أليم ، وحزن لا يوصف

ولم تكد تسير السفينة قليلا حتى ابتدأ الرجل الذي كان عند
الشراع يخاطب صاحبه بلهجة المعتذر المستغفر
قال مترفقا في صوته « أظن يا مكسيم انه ينبغي لنا ان
نقصر الشراع . فهل لك أن تعينني على ذلك »
فتلفت الرجل القصير حوله قلقاً متألماً

فاضطر صاحبه الى اعادة كلمته ثانية واذ ذاك قام الرجل
متثاقلاً وفعل كما أمر صاحبه . بينا التقط الرجل الطويل الشراع
وأمسك به

وكان الرجل الآخر يود أن يعود الى مجلسه في قاع السفينة
لولا انه لمح القلعة من بعيد فتغيرت في الحال ملامحه
ولم يلبث ان صاح قائلاً « ها هي المدينة الملعونة قبجها الله.

هل يقدر الله لى أن أراها قبل مماتى أطلاقا دارسة ، هلا أرسلت
 جهنم عليها نيرانها حتى تلتهم أهل وطنى جميعاً »
 ثم ولى اذ ذاك وجهه شطر القلعة ولوح بقبضة يده مهدداً ،
 فقال صاحبه ينبهه « حذار يا صاح »

فلما سمع الرجل ذلك من رفيقه انفجر قائلاً « ممّ أحذر ،
 لقد والله وددت لو انى مت منذ شهر قبل مجيئنا هذا »
 فقال رفيقه « مشيئة الله ! »

فصرخ الآخر محتتماً « مشيئة الله ، أنت جالس فى مكانك
 ذاك تصب علينا فلسفتك الماردة العقيمة اللعينة . ولكن « انت
 مالك » هل فقدت شيئاً . هل فقدت ولدأ لك مثلى ؟ »
 فأجابه الآخر برنة حزن صامت « نعم . فقدت ولدأ »

فقال الاول . نعم ولكنك ولا ريب لم تشعر اذ ذاك بما
 أشعر أنا به الآن . انك رجل لا تحزن ولا يصل الى فؤادك
 الألم . ولكن قسما بالله العظيم سأنتقم من اولئك الذين كانت لهم
 يد فى موته . نعم . اننى لا يمكنى ان أتحول عن رأى واعتقادى
 وهى أنهم قتلوه . نعم . رموه بالرصاص . يالهم من وحوش .
 فقال رفيقه « وليكنى سمعت ان موته كان قضاء وقدرأ »
 فصاح ذاك متغيظاً « قضاء وقدرأ . كلا انها كانت قتلا .
 يالهم من وحوش . طفل لم يأذهم ولم يحدث فى الدنيا شراً ولا
 ضراً . أنت تعرفه . وأنت رأيته . فماذا كان ذلك العزيز . طفل

صغير ناعم لطيف كان لا يجب أحداً غيرى وكنت لا أحفل من الدنيا بشيء إلا به .

ولم يكذب يبلغ من قوله الى هذه الكلمة حتى خفقت العبرات وتحدرت الدموع متساقطة من عينيه

فقال صاحبه وكان قد ارتاح لدموع صديقه ، وخروجه من الصمت الاليم الذى كان فيه . لما فى الدموع من تنفيس الكربة والترويح عن شجون النفس « وكيف كان ذلك يا مكسيم . انك لم تقل لى الا عن الحادث مختصراً بلا شرح ولا تفصيل فهلا نبأتنى بحملة الامر »

فظل الآخر صامتاً هنيهة طويلة كأنما كره ان يثير دقائن حزنه ولكنه تشجع أخيراً ومضى يقص قصته

قال « انك تتذكر كيف دخل اولئك الحمقى المدينة صارخين موعدين مهددين اذ ظنوا انهم ما داموا قد قتلوا حاكم المدينة فقد اكتسبوا الموقعة ، وتتذكر انك تركتنى قائلاً ان لديك مهمة لا بد من قضائها . وقد عرفت اذ ذاك من كلمتك تلك - والمعذرة فيما أقول - انك كنت تريد ان تذهب الى الحى الا فرنكى لانك خشيت على السيدة التى هناك ، زوجتك »

فأكمل الآخر عبارته قائلاً « وقد حضرت متأخراً يومذاك فصاح رفيقه « ماذا أسمع ، هل قتلت هى أيضاً ؟ »

فأجاب « كلا ، ولكن لو لم تصل اليهم نجدة لكان ذلك واقماً حتماً »

فعاد الرجل القصير يسأل صاحبه « وهل رأيته ؟ »
 فأجاب هذا قائلاً « كلا ، بل رأيت شرذمة من الفرسان وقوفاً
 بالباب يزحون جثث القتلى ويلوح لى ان الغوغاء هاجموا البيت
 فردوا على أعقابهم خاسرين »
 فعقب الآخر على كلماته بقوله « نعم ، لقد كان عثمان المملوك
 هناك وحمداً لله اننا فكرنا فى الذهاب به الى ذلك البيت ولكنه
 وحده لم يكن قديراً على أن يرد تلك الجموع المجنونة كلها ، ولو
 انهم رطديد جبناء »

فرد عليه ستيفن قائلاً « لقد رأيت رضوان افندى هناك
 اذ ليس أسهل على الانسان من ان يتبين ذلك الخصى من الوف
 الناس بطول قامته وغبابة وجهه الاملس ويلوح لى انه استنجد
 فانجذ ، ولكن ماذا حدث لك اذ ذاك فى غيابة ؟ »

فعاد مكسيم الى قصته واستطرد يقول « بعد ذهابك انطلقت
 الى بولاق وأقسم اننى لم اكن أقصد مأرباً سيئاً ، ولكنى أردت
 أن أرى طفلى الصغير لاننى لم اكن رأيته كما تعلم منذ واقعة امبابه
 فلما وصلت بولاق كانت المدينة فى هرج ومرج والقتال ناشب
 فى الشوارع وأقسم لك ثانية اننى لم تكن لى غاية ولا مأرب فى
 الاشتراك فيه وانى لعل مقربة من بيتى اذ لحت جندياً يطوف
 به فأدركت انه لا بد قد ضل طريقه والجماعة التى هو منها وقد
 اودى من الغوغاء وأهل البلد وذلك لاننى رأيته الدم يقطر منه

وهو ينظر نظرات شاردة مؤلمة . فنظر الى وأشار الى « سنجته »
ثم امسك بتلايبي . له الله من أحق ، وفي تلك اللحظة لاح لى
ذلك الجندى فى اثوابه تلك كانه رمز شقائى الماضى وما لقيت من
الالم والمذاب على ايدي اهل وطنى ، ولذلك وثبت عليه فألقيته
أرضاً ورفسته برجلي فجعل يصرخ ويستغيث فضربتة بمؤخرة
البندقية على ام ناصيته لاسكاته وكدت أقتله لولا اننى سمعت
أصواتاً تقترب ناحيتنا . فجعلت أجره حتى القيته خلف شجرة
من اشجار « البخ » ثم عدوت أطلب حديقة بيتى من ثغرة فى
الجدار »

« ودخلت البيت من بابه السرى وكان الخدم قد هربوا ولكنى
وجدت زوجتى هناك فلما رأتنى كان فرحها عظيماً اذ ظنت اننى
قد قتلت فى الشوارع ، ثم مضت تعتب على تركى اياها وحدها فى
مثل هذه الساعة وأما الطفل فألقى بنفسه فى احضانى ضائعاً من
فرح ، صارخاً فى تهلل وسرور ، وتشبث بساقى كأنما خشى ان انصرف
من البيت ثانية ، ومكثت فى الدار الى الغروب وسمعت أصوات
الرصاص والصياح فى الخارج فوددت أن أخرج ثانية ولكنى
رأيت فى الحديقة بعض الجنود يراقبون البيت ومن بينهم لمحت
الجندى الذى ضربته فوددت اذ ذاك لو اننى كنت ذبحت ذبحاً .
« فتمسكت خلف شجرة كبيرة هناك لارقبهم من مكنتى ذاك
ولكن أحدم لهنى فصاح على الباقيين فوليت ظهري لأجرى

ولكن الطفل وكان قد تبعنى وأنا لا أشعر به تشبث بشوئى ينعنى
 الجرى فلم استطم ان اتركه فبوحى لا أعلم كيف الهمة حملته
 بين ذراعى وانطلقت ركضاً ولم يستطيعوا ملاحقتى لانى كنت
 اعرف كل ركن ومكن فى الحديقة ولكن بينا انا ائب الى ثغرة
 هناك فى الجدار تفضى ناحية النهر اذ رآنى أحدهم وكان مختبئاً
 هناك فوضع بندقيته فى كتفه واطلق على النار . فسمعت شهقة ،
 لى الله . لى الله اننى لاسمعها الآن تردد فى اذنى . ولم أنتظر
 ولم أتمهل . بل جريته وفى الظلام اخطأنى حتى وصلت الى القارب
 ونزلت الى قاعه مع الطفل . ولم يكن الصغير يصرخ أو يرفع
 بالانين صوته ، بل أمسك بيدي وظلّ كذلك قابضاً كفى حتى
 جاد بأنفاسه الاخيرة بعد هزيع من الليل

« ومكثت فى مكانى ذاك فى الغداة الى ان جئت انت وزوجتك
 ثم احضرتا فاطمة زوجتى بعد ذلك وانطاق القارب بنا كما تعرف
 فى فجر هذا اليوم »
 فأطرق الآخر برأسه وقال « ان مهمتنا قد خابت كذلك
 يا مكسيم »

فقال صاحبه « لقد كنت اعرف ذلك ، أليس من الحق أن
 يعتقد الانسان ان أهل القاهرة يشورون ويتمردون ويطردون
 الفرنسيين . أمثلهم يفعل ذلك : والله لقد كنت مجنوناً اذ كنت
 اتخيل ذلك »

فأجاب ستيفن « انهم يدفعون اليوم ثمن ذلك ، فقد حطم الفرنسيون المتاريس التي كان المصريون قد وضعوها في الشوارع وقد أعد كافر بللى حلقة من المدافع حول المدينة وعندما ترك القاهرة كان خمسون من المشايخ في غيابات السجون وقد دخل الفرنسيون نخيلهم الى الازهر والقوافيه الاقدار وردوه مرابط لخيولهم ! » فقال مكسيم « دعهم يتألمون ويتعذبون . فاني اكره الغالب والمغلوب معا »

وفي تلك اللحظة كانت المرأة قد كفتا عن العويل وأخذتا تنشغلان بالحديث وعاد مكسيم الى صمته الاول ولكن لم يكذب المساء يقبل والظلام يحيم على الكون حتى ألقى ستيفن نظرة الى شبح صاحبه وود أن يتكلم ولكنه أمسك عنه الكلام وظل كذلك مدة ثم تتم يقول « مكسيم لقد انتهى يومان الان »

ولكن صاحبه لم يسمع فاضطر الى تكرارها واذ ذاك صاح به مكسيم « كلا . كلا . لم يحن الوقت بعد » فأجابه الآخر بسكون « بل لقد آن يا صديقي » فأخذت مكسيم رعدة وقال « اعرف ذلك . اعرف ذلك . لكن دعنا ننتظر ايضا »

فاجابه ستيفن « ولكن لا يلبث الظلام ان يشتد » فلم يجب الآخر ، فظن ستيفن ذلك السكوت من صاحبه

رضى ، فحول دفة السفينة الى الشاطئ ، حيث كانت هناك نخلات فارعة .

وانتبه مكسيم على هزة القارب اذ رسى بالشاطئ وتمم محتجا ممانا .

وكادتِ المرأتان تعاودان البكاء والعويل ولكن ستيفن أوقفهما عن الصياح بإشارة أمرة ، ورفع ثوبه قليلا ونزل في الماء وألقى في الارض وتداً وربط فيه قاربه

ومد الى صاحبه ذراعيه قائلاً « اعطنى الطفل يا مكسيم » فانهجر الاخر وكان كالوحش المفترس وهو يقول « كلا . كلا . انه طفلى انه طفلى قلت لك ، ولن يمسه مخلوق في العالم غيرى » وتلفت حوله تلفت المجنون المذعور الى الجثة المدمجة في الثوب ، الى السماء والى الماء والى الكون أجمع ثم نهض ببطء من مكانه فأنحنى والتقط الجثة وضماها بين ذراعيه وأطال احتضانها كأنما يحمل الى صدره طفلا هاجما يخشى ان يوقظه ، ووثب من القارب غير مكترث بثوبه اذ تلتطخ بالوحل وتبلل بماء النهر ومشى يحمله الى الشاطئ فأخذتِ المرأتان فى العويل وتناولتا الوحل من قاع القارب فصبغتا به رأسيهما والحدود

والتقط ستيفن من المركب فأسأول للحال وثبت احدى المرأتين وهى تصرخ قائلة « ولدى . . ولدى . . وكادت تترك القارب ولكن ستيفن ردها اليه ومنعها التقدم الى الشاطئ فهجمت على

ستيفن كالوحش المفترس ، بأظافرها واسنناتها ولكن الاخرى
لقت ذراعيها حولها واجتذبتها الى الوراء وهى لا تزال تصرخ
وتولول

ومشى ستيفن والفرنسى فى اثره صامتا واجما وهو يحمل
ابنه على ذراعيه حتى بلغ نخلات هناك متقاربة فاختر أرضا لينت
وبدأ يحفر للميت قبره

وتطايرت قطع التراب تحت ضربات فأسه القوية ولم يلبث
غير لحظات حتى امتهد للجثة لحداً عميقاً رحيباً

ووقف يمسح ما نضح من العرق عن جبينه وهو متكئ
على فأسه

وأخيراً قال « ها هو اللحد قد تهيأ يا مكسيم »
وكأنما قد رأى صاحبه فى كلمته تلك فرصة ليصب عليه شقاءه
ولعناته وينفس عن نفسه بالشتائم والويل والثبور فراح يقول
« تهيأ . طالما سمعت منك هذه الكلمة فى كل عمل تعمله . انك
مسرور اذ سترى البقية الباقية من ولدى للمرة الاخيرة ، ألم
أشهدك تنظر اليه خمسين مرة نظرة الكراهية والسآمة منه .
نعم . يحق لك ذلك . لانه ليس لديك شيئاً . ولا صلة لك به .
اذ كل عواطفك انانية . انك لا تحب الا نفسك . انك قفر من
اية عاطفة انسانية ولهذا تضحك منى ومن عاطفتى شاخراً هازئاً .
وان تلقانى اريد ان امشى الى انياب الجحيم لاجله . ولكن

ماذا فعلت انت زوجتك تلك لا هذه المسكينة التى هنا الان فى القارب . تلك المرأة التى تسكن فى الحى الافرنكى تلك المرأة التى تفضلك ألف مرة . انك لتقول لى انك فقدت طفلا لك منذ دهر بعيد ولكن لك الله يا صاح ، انك لتتكلم عنه كما لو انك فقدت جواداً أو كلباً ، اتقول للحدثهياً . رباه . رباه ! »

فامتقع وجهه ستيفن وعلاه غضب ، ولكن غضبه لم يلبث ان زال وتبدد فلم يفه بالكلمات التى كانت متحيرة على شفقيه وظل واقفا يرتقب ماذا يفعل صاحبه ولكن الاخر جعل يلهث من شدة الالم ويقول « انه لجحر كلب لا طفل من ابناء الانسانية . والله ما انت دافنه كما يدفن الكلب أو المسلم فى التراب عاريا »

قال ذلك ثم ألقى حملاه عن ذراعيه ونزع عنه قفطانه الحريرى فبسطه فى الجحر ومهد ثنياه ، واصاح من اضعافه ، كما الطفل الميت سيحس خشونة تلك الثنايا تحت ظهره ، فلما فرغ من ذلك وضع الجثة فوق القفطان فى صمت وسكون وجلال رهيب . ولسى عقيدته الجديدة فرفع العمامة عن رأسه منحنيا انحناءة الرهبة وتتم بالفاظ غير مسموعة والدموع تتساقط صيبة على خديه والمرأتان عن كئيب تبكيان وتعولان بينما كان ستيفن يهيل التراب على الجثة

ولم تكد نصف ساعة تمضى حتى كان القارب فى طريقه الى

الصعيد يحمل الجمع الى معسكر المهاييك ومراد . وكانت اصوات المدافع تضج حول القوم وهم في قاربهم صعداً في النهر اللجى



الفصل الثامن عشر

عثمان السلحدار

« ووقوعه في الحب »

في ذات أصيل وكان عثمان قد أبلّ من جراحه ، وان كان لا يزال يظلم في متبته ، خرج مع الاغا للنزهة من بركة الفيل . فلما انطلقا في النزهة غير بعيد بدأ الفتى الحديث فقال « اذن أنت ترى يا صاح ان هؤلاء الفرنجة لا يلبثون أن يعودوا الى بلادهم . ولكننى سمعت انهم قد أحضروا من مواطنهم وفرنسا جموعاً من الناس ليستوطنوا هذه الارض ويزرعوا ويقلموا فيها . فابتسم الخصى واجاب « كلا . بل ينبغي ان يولوا الادبار عائدين الى بلادهم ، ألم تسمع بأن سفن الانكليز اليوم على الساحل وقد انصرم عام الآن ولم تر نجدات جاءت من فرنسا لتمد بقوتها الجيش المرابط في مصر »

فعاد عثمان يقول « نعم ولكن البلد لا يزال في قبضة يدهم .

وابى فى النوبا يطلب مكنّا . و ابراهيم فى الشام معتصم . فمن ذا
الذى سيتولى طردهم اذن ؟ »

فأجاب الخصى « صبراً يا بنى صبراً . فان الطاعون وسيئات
أفعالهم وطغيانهم قد تفعل ما لم تفعل فيهم سيوف مراد وأصحابه »
فقال عثمان « ولكن ألا تظن انهم سينطلقون الى الشام
ومنها يعودون الى بلادهم »

فاستضحك الخصى وقال « انك يا عثمان لم تصرف حياتك
الا فى السيف والرمح والهراوة وركوب الجياد وان ذلك الشيخ
الصغير عبد الله ليضحك منك لجهلك فان هناك بلاداً وآفاقاً كثيرة
لا بد لهم من مرورها قبل وصولهم الى بلادهم ، والامور ليست
على ما يرام فى عكا . ولا يزال الجزار واقفاً على أسوارها بالمرصاد .
انه ليس بالرجل الذى أحبه ولكنه شجاع باسل وقد عرفته منذ
زمن بعيد يوم كان مملوكاً عند محمد بك . ولا أخفى عنك ان القائد
الفرنسى رجل شجاع بهمة وقد عرفت ما فعل فى ايطاليا . وقد
حدثنى الضابط الذى لقيناه فى بيت المرأة التى تسكن الحى الافرنكى
بأشياء كثيرة عنه ولكنه اذا انهزم دون الاستيلاء على عكا
فويل له من نتائج ما يكون بعدها »

فقال عثمان « اننى أحب هؤلاء الفرنجة فأنى أرى فى خلقهم
ما يفتنى ويجتذب فؤادى نحوهم . فتلك والله بطرلة منهم أن يغيروا
على ارض بعيدة عن بلادهم فيفتحوها ثم يعاملوا اهلها كما يعاملونا

الآن . ألا تعلم انهم يعرفون اننى حاربهم وامتشقت السيف فى وجوههم ومع ذلك ترائى أمشى فى الشوارع لا يتعرض لى أحد منهم بسوء . طليقاً لا أذاة تصلنى منهم وفى أيام مرضى ألم يعالجنى ذلك الطبيب الا فرنجى ويهتم بأمرى كأننى كنت أخاله او رفيقا ولياً ثم ألم تشهد اولئك الذين رأونى من الفرنجة وكيف انه لم يجرؤ رجل منهم على ان يكشف سرى او يعلن عن مكنتى مع ان الجميع يعلمون انهم وضعوا مكافأة لمن يجىء برأسى »

فقال الآخر مفكراً شارد اللب « نعم ، ما غرب اولئك القوم ، ولو اننى كنت أولد مرة اخرى وخيرت من أى معشر اكون لما اخترت غير ان اكون فرنسيا »

فصاح الآخر به عجباً « ماذا تقول يا رضوان افندى . اتؤثر ذلك على ان تكون مملوكا ؟ »

فابتسم صاحبه واجاب « نعم ولا مملوكا ايضا . لقد دالت دولة المماليك وزالت أيامهم . لقد ماتوا منذ مائتى عام وغفأثرهم . لا كما تظن أنت اذ يذهب بك الرأى الى انهم انما هزموا وانقرضوا فى واقعة امبابه فقط ، لم تكن تلك المعركة لعمر الله الا الفأس استأصل البقية الباقية من الجذور الميتة المتأودة »

فعاد الفتى يسأل « ولكن أتريد ان تكون نصرانيا » فرد عليه الآخر قائلاً « انها مع ذلك ديانة لا عيب فيها ، وقد علمها عيسى للناس وبشر بها . وان كان اهلها غير مستمسكين

بها اليوم . ان العيب ليس على الدين نفسه بل على اهله الطغام
الذين لا يستطيعون الاستمساك بتلك المبادئ العالية التي تسمو
عن مداركهم »

فأردف الفتى على قول صاحبه « نعم . انه دين يحض على
السلام ثم ها انت تراهم لا يفتأون يعاودون الحرب ويشيرون
القتال ، ثم هو يحرم السرقة ثم هم يغيرون على بلاد قوم غير قومهم
وهو ينهاهم عن قتل النفس التي حرم الله الا بالحق . ولكن
الرفات والعظام المخزات التي تضطجع الآن هامة تحت الثرى
في امبابه شهداء عليهم وأدلة ساطعة على معصيتهم لدينهم . وهو
يأمرهم الا يغتصبوا الزواج غيرهم ثم انت تعلم اية عيشة شهوانية
يعيشونها اليوم في القاهرة . الا انظر ! »

قال ذلك وأشار الى منشور كان معلقا فوق الحائط في الشارع
« ألا ترى هذا المنشور ، انه يقول ان الانسان لا ينبغي ان
ينكر عيسى والسيد المسيح ، ثم ألم تسمع بأن قائدهم نابوليون
ادعى انه مسلم موحد بالله ، ياله من كاذب منافق ! »

فأجابه الخصى قائلا « كلا يا عثمان . لا بد من أن في الناس
من هم خير من اولئك في نصرانيتهم ، والا لا تقرض هذا الدين
من زمن بعيد ثم لاتنس ان هذه الديانة المسيحية كانت قد مضى
عليها سبعمائة عام يوم جاء نبينا بالحق والنور والفرقان »

فصمت الفتى ولم يحرجوا بالانه اعتاد أن يسمع من صاحبه

افكاراً كذلك ومبادئ غريبة صريحة فلما تكرن لمسلم مثله
ولكنه لم يلبث أن عاد يسأل الخصى قائلاً « ولكن ماذا
سيحدث في رأيك عندما يتولى الفرنجة عن هذه البلاد ؟ »
فكان جواب الخصى « لا يعلم ذلك إلا الله ولكن الذى
لا ريب فيه هو انه ستحدث يومذاك احداث وتقع فتن وتأتى
أيام اضطراب وقلق ، اذ ويل للذين ساعدوهم ، وويل للذين
انتصروا لهم وضلة وعقابا شديداً لامثال هؤلاء النسوة
الشهوانيات »

قال ذلك وأشار الى عسكريين من الجيش الفرنسى كانا قد
خرجا اذ ذاك من زقاق وهما يحتضنان امرأتين من المصريات كانتا
سافرتين غير مكترثتين بنظرات السخط التى استقرت عليهما من
وجوه السابلة

فقال الخصى « انهما يضحكان الان ضحكات عالية ولكنهما
سيضحكان أعلا من ذلك ولولة وعويلا »
فأجاب عثمان قائلاً « لو كنا نعلم بذلك منذ عامين لكانا
ضحكنا للنبوءة كما يضحك الأخيذ بأنفاس الحشيش »
فقال الخصى « كلا . لقد كان كل ذلك منتظراً مرتقبا . ألا
تذكر يا عثمان تلك التقاوى والبذور التى احضرتها الى من الرحمانية
وكان ذلك فى أول مرة حضر فيها الشيخ الصغير عبد الله
الى الجيزة »

فأطرق الآخر برأسه علامة الایجاب فاستطرد الخصى فی حديثه
يقول « أجل ، لقد كانت تلك التقاوى تحوى أنباء عن بضعة
مهندسين من الفرنسيين كانوا اذ ذاك یسحون البلد وقد کاشفت
مراراً بذلك فی وقتها ولكنه لم یفعل شیئاً بل استضحك هازئاً
من النبأ ساخرآ »

فقال عثمان مندهشاً « یا الله ، أذلك ما كانت تلك البذور تحوى
یومذاك . انی لا ذکر الان انك قلت لی انی سأذوق من ثمار
تلك البذور ، والله ما كنت أحسب یومذاك ان ثمارها ستكون
كما ترى الیوم . ولقد ضحكت منی یومذاك لصداقتی لعبد الله
الصغير - قال ذلك وتحسس ساقه الصغيرة التى كان یظلم بها -
ولكن تلك الصداقة قد ظهر الیوم فضلها فلولاها لما جئنا الى
ذلك البيت ولما قدرت لی الحیاة »

فقال الخصى بلهجة رهيبة « ان حکمة الله لا تدركها الافهام .
اتنا نعجز عن فهم عجائب قدرته »

فعاد الفتی یقول « لقد انتقد ذلك الغلام حیاتی مرتین . مرة
فی امبابه والاخرى یوم هجم الغوزاء علی الحی الافرنکی »

فأجابه الخصى « نعم ولكن العون الذى استصرخ به یومذاك
كان متأخراً لولا فضل ذلك الشعاذ الشیخ - فمن یکون ذلك الرجل
یا عثمان ، انی فی عجب من أمره »

فأجاب عثمان « لم یکن الا شعاذاً متكففا . ولا أعلم من

أمره أكثر من أنه قام على تمرىضى دهرآ ، ولئن كان الله قد أصابه بالمرج فى ساقه . فقد انعم عليه بنعمة المهارة فى التمرىض والتضحية »

فعماد الخصى يقول بلهجة المتحير الدهش « نعم ولكنه كان ممتشقا السيف يفعل به كما يفعل أكبر الفرسان خبرة بالمجادة وأمر الشجعان فى فنى الطعان والضراب . وإن مرادآ نفسه ما كان ليطعن بتلك السرعة التى كان يهز بها ذلك السائل صمصامه . وكان حد سيفه يهتز فى يمينه وينفذ فى جثث القتلى كخطف البرق . نعم . لقد رأيتـه وهو يفعل ذلك ووقفت من أثر ذلك صمعا مذهولا . لقد كانت طعناته أشبه شىء بطعان الممالك ، نعم لم يكن ثمت رجل بعد مراد مستطيعا ذلك اللهم إلا باسل فرد كنت اعرفه . فقال عثمان « آه . اتعنى ذلك المملوك الذى كان من أصل فرنسى ؟ »

فقطب الخصى جبينه وقد طودته ذكرى أليمة

فعماد عثمان يقول « ألا حدثنى حديثه فأنى استروح بقصته وأشعر منها بفتنة تأخذ بفؤادى »

فقال الأفا « لا عجب إن كنت تحس ذلك منها . فقد كنت مملوكا لدى مراد وكان مصطفى بك ذاك يوما أعز صحبه عليه وأكرم خلانه . وكان هو الرجل الذى تنبأ يوما بأن الفرنسيين سيغيرون على هذه البلاد وكان ذلك خديته الذى ماقتـه بماودة

ويكرره ، وماأظن مراداً اليوم في الصعيد الا ذاكرآ تلك النوءة .
 من عجب ودهشة وقد حقت اليوم وصحت . واننى أعلم أن
 أيوب طالما كان يكررها من بعده فقد كان الرجلان يشبهان
 بعضهما بعضاً ذهناً ورجاحة واصالة رأى وشهامة وبسالة ولطالما
 رأيتهما ينصحان لمراد أن يتصافح ويتهادن و ابراهيم لكى يكونا
 حليفين فى ساعة الخطر »

فقال عثمان « أفْتَظُن ان ذلك كان السبب الذى من أجله كنا
 قلما نرى أيوب فى الجيزة ؟ »

فأطرق الخصى برأسه مؤمناً وقال « لقد كنا أصدقاء
 واخوة ولكن منذ وقع ذلك الحادث الاسيف لمصطفى وقع
 النفور بين مراد وأيوب لى الله . ان فؤادى ليحترق حزناً اذ
 اذكر ذلك الآن . فلو اننى كنت حاضر أمرهم يومذاك لاصلحت
 ذات بينهما ولكنى كنت غائباً فى الاسكندرية اذ سافرت مع
 السيدة نفيسة لترويح النفس لانها كانت مريضة ، فلما عدت الى
 القاهرة كان قد سبق السيف العذل »

وساد السكون بين الصديقين لحظة ولكن لم يلبث عثمان ان
 عاد الى الحديث فقال « لا تمنى بضعة أيام حتى الحق بأبى فى
 الصعيد . ولكن ليتنى كنت سافرت منذ شهرين »

فقال الخصى فى لهجة الدهشة « ولماذا لم تتألم فى هذه المدة
 يا عثمان ولم يصبك ما يحزنك »

فأجاب عثمان د كلا والله ، وأنت تعلم ان القتال ديدنى وما
أنا بالذى تنهأ له الحياة وهو راكد مريح فى دعتة ، ناسيا اخوة لى
يعانون بالتشريد والالام والعذاب ألوانا ، والله يا رضوان لطالما
وددت لو اننى تركت فى سهول امبابة مضرجا بدى قتيلا »

فبدا فى عين الخصى ظل الاضطراب والحيرة وقال « أعرف
ذلك . يا عثمان . اعرف ذلك . ولوانى غريب من عواطف الحب
واعراضه ، الا اننى لا أزال أرى من عينيك ريق الحب فى عين العاشق »
فأجاب عثمان : لك الله . أذن هل ادركت من حبى طرفاً .
لقد كنت أحسب ، أنه لم يلحظ ذلك مخلوق البتة . . »

فقال الخصى « ولكن هون عليك يا عثمان فقد تتحسن
الحال اذ تمضى هذه الايام المملوءة بالقلق والاضطرابات »
فبدت على وجه الفتى علامٌ الدهشة واجاب : ماذا تعنى
بذلك يا رضوان . أتظننى ارضى ان اتخذ لى زوجة امرأة طالما
أخذها رجل من الفرنجة فى احضانه »

فلم يكد الخصى يسمع ذلك من صاحبه حتى صعق وبهت
وقال : ماذا أسمع . أذن البنت هى الفتاة التى كانت تساعد فى
تمريضك . لى الله من أحق مأفون رأى . لقد كنت أحسبك قد
وقعت فى حب تلك الفتاة اخت الشيخ الصغير صديقك . وانك
لهذا كنت أبداً تغشى ذلك البيت الصغير فى الحى الافرنكى
أذن أنتحب نظلى ابنة الشيخ البكرى وانت بها صب مدله ؟ . »

فقال الفتى : نعم نظلى هى التى أحب . والتى أغتصبها ذلك
الضابط الفرنسى لعنة الله عليه . . «
فلم يحرجه سوى جوابا ولكن بدأ فى عينه ظل الالم والاسف
والحيرة .

وتابع الفتى حديث حبه يقول : نعم لقد احببتها يارضوان .
ولقد كنت طريحا على فراشى بين الحياة والموت . وكانت المرأة
الافرنكيه تتركنى لحظة فاذا بالفتاة تحتلئس الخطى الى حجرتى وهى
فى اشد الحيرة والقلق فتطل الى عيني بنظرات الطفل الطاهر النقى
ثم لا تسكاد تسمع وقع خطوات فى خارج الحجرة حتى تنفلت
هاربة مجفلة جازعة . ولكنها لم تكن تهرب من ذا كرتى ولم تكن
تتولى عن فؤادى . بل ما برح شبحها ماثلا امام عيني . ولقد
كنت اراها فى احلامها . وكانت تترأى امام ناظرى فى سباتى
الهادى . وقد كنت اتسخط واتالم اذا فتحت عيني فلا اراها .
نعم . ما امر الحلم وما اعذبه . ولطالما كنت اتخيلنى وانا اتنى
ان يعود مراد ثانية الى سابن مجده فيكون شيخ البلد واروح
أضب فى مسمعه نيتى فى الزواج فاراه يضحك ضحكته العالية
ويقرنى على عزمى وينطلق الى دار الشيخ البكرى فيسأله يد ابنته لى .
فلما ابليت من وعكيتى قليلا جعلت اتنى نظرة منها فاذا اصبتها
نعمت وهدأت نائرة حبي ، على الرغم من أن الست الافرنكيه
كانت حذرة مترصدة لان الفتاة كانت وديمة لديها . ولكن ذلك

الوغد الفرنسى وضع عينه عليها . وكيف لا يفعل وهم سادة هذا البلد ومالكو أمره . فلما كان يوم الفتنة انتهز تلك الفرصة السانحة مدعيا ان تلك الدار لم تعد فى مأمن من الغوغاء بعد ذلك ، ثم اذهدأت الحال وتركت الجماهير ، لم اشعر الا والفتاة قد فرت . . ولا نعلم اين ذهبت ولكننا قد ادركنا اليوم ان ذلك اللعين اتخذ لها بيتا كما فعل الكثيرون من ضباط الجيش وهى اليوم تتبدى لاضياء ذلك الوغد سافرة برزة جمل الله جهنم مقر ذلك الوغد المقيت . . »

فقال الخصى : نعم تلك حادثة محزنة وقد بلغنى ان الشيخ اباها كاد يموت من عاره وفضيحة ما وقع لعرضه . »

وعاد عثمان يقول « ولا ادرى هل الشيخ اشد حزنا من المرأة الافرنكية التى كانت الفتاة فى بيتها ، أم هى اعظم أسى من أساه . فقد وجه الشيخ البكرى وخرس فلا يقول كلمة ولا يفوه بشكاة . بل راح يفرق احزانه فى صلوات متواليات ولكن المرأة الافرنكية ذهبت الى دار ذلك الضابط الوغد وقد سمعت انه وعدها ان سيتزوج بها بعد قليل على سنة المسيح ولكن نظلى جعلت تضحك وتقول للمرأة الافرنكية ان العيش الذى تنعم به اليوم اشبه شئ بعيشة الفردوس »

فقال الخصى « نعم ، الى حين ، ثم لا تلبث ان تعقب النعمة بالحسرات ، ولا تلبث ان تدفع ثمن ذلك غاليا .

فعاد الفتى يقول « كلا ، ولكنه هو الذى سيدفع الثمن
لأنها لا تزال طفلة غرا »
فقال الخصى « نعم . ان الطفلة تأثم ولكن المرأة تنلقى
قصاص ما تجترح الطفلة »

وكانت الشمس قد توات . وبدأ الظلام يعد رواقه رويداً
رويداً ، كما هى العادة فى ليالى مصر . وقد بدأ الاهالى يضعون
فوانيسهم المصنوعة من الورق على مقدمة منازلهم ، كما أمرهم بذلك
القانون الجديد الذى سنه المحتلون

فقال الخصى « لقد آآن لنا يا عثمان ان نعود الى البيت »
فقال عثمان وكان قد ولى وجهه ناحية الحى الافرنكى : كلا
لم يحن الوقت بعد »

فراح الخصى يسأله « اذن هل تريد أن تزورالست الافرنكية؟
فأجابه الفتى « هذه آخر ليلة لى فى مصر وانى لا أعظنى
خسيساً زينما اذ انا سافرت ولم أقل لها كلمة التوديع بعدما صنعتها
من جميل لى »

فاطرق الخصى رأسه مستحسناً ذلك الرأى
واتعظفا فى زقاق ضيق وكانت الحارة قد أصبحت « سداح »
اذ كانت تلك الابواب القديمة قد تهدمت ، وأمر الفاتحون بها
فانزعرت من اماكنها فى المدينة كلها

وانطلقا امام بيت الشيخ ليفبر وتقدما الى بيت مرغريت . ولم

قال ذلك واثنتى الى نفسيه يخاطبها قائلاً « وانت يا نفسيه
لقد كان والله يا نفسيه عارا وخزياً ان تخفي مفاتيح هذا الوجه
الوسيم وراء برقع من المسلمين كهذا »

فضحك عبد الله وأجاب « اتقول فعال فائدكم فى الشام نعم
يا لها من فعال جسام . هاهم راجعون يا صاح ولا يزال المؤمنون
باسوار عكا راصدين ثابتين »

فلهث الشيخ جول وقال مذعوراً :

« ماذا تعنى بذلك . هل انهزم بونابرت ؟ »

فأجابه الغلام قائلاً : لا أعرف ذلك وإنما الذى اعرفه هو انه
اليوم فى طريقه راجعا من الشام وان عكا لم تسقط »

فسأله عثمان قائلاً « ومن الذى أنبأك ذلك ؟ »

فأجاب عثمان « تأكد أننى لم اسمع ذلك النبأ من الشيخ فانه
لا يكاد يدرى ان الفرنجة هنا فى بلادنا . لانه منكمش الى كتبه
غارق فى الجزء الرابع الان »

فأنبرى الخصى يسأله ايضاً قائلاً « متى سمعت بالنبأ . هل
سمعته فى هذا المساء ؟ »

فأردف عثمان يقول « تلك اشاعات سمعها من الاسواق بلا
شك »

فأحتج الغلام قائلاً « كلا ، ليس كما تقول . لقد سمعت ذلك
من الشحاذ وهو لا يكذب قط فيما يقول »

فتمتم عثمان وهو لا يزال في ريب مما سمع « أتقول من فم الشحاذ ؟ وكيف عرف ذلك الخبر ؟ »

فأجاب عبد الله « في العالم شحاذون بالالوف ، ولكن ليس فيهم لشحاذي هذا ضريب ولا مثيل فهو في العلم لا يكاد يقع دون الشيخ فضل وكم من مرة أخفم علماء الازهر بأحاديثه واسكتهم بقوة عارضته وزهم بحواره ومناقشته في امور الفقه والحديث الشريف »

فأبتدره الخصى يسأله وهو في أشد الحيرة « الا قل لي ما تعرفه عنه بالتفصيل »

فأطاع الغلام وقص كل مايعلم عن ذلك السائل . وان لم يكن مايعرفه عنه بالشئ الكثير .

وكان الاغا يستمع الى الغلام وهو في اشد الدهشة فلما اتم عبد الله حديثه انبرى الخصى يسأله متحيرا « الا تعلم يا عبد الله اين يسكن ذلك السائل ؟ »

فهز الغلام كتفيه وقال : « ومن الذي يعلم ؟ انه لم يقل لي كلمة واحدة عن ذلك وانا لم اساله مطلقا وقد تمضى في بعض الاحيان عدة اسابيع لا القاه فيها ولا اعرف مقره ثم لا يابث ان ينسل في الظلام فاذا هو امام عيني واكر ظني ان به جنة وفي عقله دخلا . فانني اراه في بعض الاحيان ينتحب ويبكي وهو يظن اني لا احد مطلع عليه »

يلحظ أحد منهما شبح رجل كان قد تقدم كأنما يريد ان يخاطب
عثمان ولكنه لم يلبث ان تراجع مذعوراً اذ لحظ شبح الخصى
امام عينه بجانب الفتى ، وأختبا في ركن هناك في الحارة وجعل
يراقب الرجلين حتى غابا عن بصره

وفي البيت كان جمع صغير جلوساً يتحدثون ، وقد جلست
مرغربت الى ابرتها وثوب تحيكة . وقد بدت اكبر سنأ منها
قبل ذلك اليوم . وبدت مطالع الشيب تقاريق في شعرها . ولكن
لم يفارق وجهها تلك المذوبة الفاتنة

أما الشيخ جول ليفير ، فكان يقرأ لها صحيفة يومية كان
الجيش الفرنسى ينشرها مرتين فى الاسبوع وكانت تسمى «الديكاد
اجبسيان» وكان عبدالله وهو «مزحلق» العمدة الى الوراى يلاعب
نقيصة الشطرنج ، وكانت نفيسة تتكلم وتثرثر وتسال الاسئلة
المتوالية وتصرخ متسخطة غاضبة نافرة كلما انذرها أخوها
عبدالله بأن «تكش الملك»

وكان عبدالله قد فارقه حياؤه القديم وكان يختلف الى البيت
لرؤية اخته وكانت هذه قد الفت الدار ولم تكن تخشى شر أمر
من الأمور خشيتها الرجوع الى منزل المعلم على فرج وزوجته
ولكن عبدالله لم يكن ليفارق وجهه وحياهه فى حضرة
مرغريت اذ كان لقاؤها به وترحابها الحار وكرم معاملتها له تزيد
فى اضطرابه وتهيج نفسه من سكوتها على انه اخذ رويدا ينسى

انه كان يكلم امرأة «كافرة» على غير دينه وراح يصب في مسمعيها آماله وعلائل نفسه وما يصبو اليه في مستقبله ويشرح لها ما يفعله في الأزهر ، والكتاب الذي يضعه استاذة ، وكان ليفبر يسمع ذلك منه فيبتسم ابتسامة رقيقة ، ولكنه نقيسة كانت تتشاءب وتتمطى في مجلسها ملولا من الحديث متضجرة ، ولم يكن أحد يصغى الى حديثه بكليته اصغاء مرغيت اليه .

فلما دخل الصديقان على الجمع ، وضع ليفبر الصحيفة من يده بجانبه وقد نفس عن صدره قدومهما ، اذ ظن ان لا بد من وراء قدومهما اخبار جديدة . وضرب عبد الله رقعة الشطرنج وجنودها وحجارتها بظهر كفه مسرورا الرؤيتهما وتلفتت نفيسة برقعها قليلا وحيا عثمان الجمع بابتسامته الساحرة وأما الخصى فسلم تسليمة الرجل الوقور الساكن الرزين

وانبرى القتي المملوك الى جول يقول « آه يا فندى ، الا تزال تقرأ فعال القائد الفرنسى العظيم فى الشام وتتلوقصائد الشعر الغزلة فى فرنسا وجماها ، وانى لأعجب كيف تكون بلادكم آية الجمال كما تتراعى فى اشعار شعرائكم ثم كيف سولت لكم نفوسكم ان تغادروها وتحلوا بأرض كمصر »

والتفت الى عبد الله وقال دآه وانت يا عبد الله كيف حال استاذك الشيخ البحر العلامة الفهامة وكيف حال مؤلفه العظيم الذى يريد اخراجه لرواد العلم

ثم لم يلبث أن ولاه ظهره ولم يلتفت اليه .
 فالتفت المملوك ونظر ناحية ذلك الشيخ نظرة الشاكر المعترف .
 بالصنيع وكان ليفبر مطرق الرأس مهووماً على وشك النعاس .
 وقال عثمان بعد ان رد بصره عن الشيخ « له الله . افعل ذلك .
 حقاً ، ياله من شيخ كريم »
 وفي تلك اللحظة نهض الخصى عن مجلسه وقال « لقد آن لنا
 يا عثمان ان ننصرف »

فقال عثمان « اذن هلم بنا »
 فاستيقظ ليفبر على هذا الصوت ومشى يصلح عمامته
 واما عبد الله فقطع حديثه مع نفيسة قائلاً لها « وانا ايضا
 منصرف فقد تأخرت على الشيخ »
 وانارت مرغريت للذهابين السلم وتناقل عثمان ووقف مستبظاً
 عند رأس السلالم وتتم يقول « امن رسالة تذوديني يا ست ؟ »
 فحذرت مرغريت ماذا كان يقصد وهزت رأسها
 واسترسل عثمان يقول « سأبلغه انه لم يحدث لك أقل خطر
 من المظاهرات والقلال التي كانت في العاصمة »

فأجابت مرغريت برنة أسي « لن يهتم بقولك هذا . »
 فقال عثمان بلهفة وتأكيد « لاتقولي هذا يا ست ، فقد
 اخبرني رضوان افندي اليوم فقط بأن رجلاً طويلاً من الفرنكة
 كان مرتدياً باللباس البلدي جاء يوم احتشدت جموع الغوغاء امام

بيتك هذا يتخطى الصفوف ويشق طريقه في وسط الزحام كالذى
أخذه مس ولكنه لما رأى جنود الفرنكة قد جاءت لغيائنا
مضى منصرفا وهو يحمد الله اونة ويلعن ويتسخط اخرى والان
وداعا ياست . ربنا يحسن الاحوال لنا جميعاً »

وظلت مرغريت وافقة تراقبه بنظرها وهو منصرف فلما
احتجب عن عينها رجعت الى غرفتها

وقد اشرق وجهها وتهلل لما سمعته من الفقى وكانت الفتاة
نقيسة لم تشهد من قبل محياها متمللا كما رآته اذذاك فلما راعتها تلك
الطلعة النضرة الراحلة وثبت اليها وهى تقول من عجب ودهشة
« ما هذا ياست . والله لم أرك يوما اجل منك اليوم ! »

الفصل التاسع عشر

﴿ الخصى يتعمق ﴾

ازدحمت الشوارع المفضية من الازبكية الى اسوار المدينة
الشمالية بمجموع الالهالى جاؤوا يشاهدون رجوع بونا برب وجيشه
من عكا نخيبين طائشى السهام .

وكان نابليون قد أرسل الى الديوان نبأ عن قرب عودته
وقال فى رسالته الى مشايخ مصر وعلمائها واكابرها « لقد هدمت
اسوار عكا فلم يبق حجر منها على حجر وقد جرح الجزار جرحا مميتا
والظنه سينجو منه حيا »

وكذلك استمر الحديث على غير هدى ولكن الخصى جالس
 فى ركن صامتا مفكرا سابحا فى اودية الفكر والذهول
 واقترب عثمان اذ رأى الجمع مشتغلا بما هم فيه من مرغريت
 وهمس اليها قائلاً « يا ست اننى مسافر الى الصعيد غداً »

فأطرقت مرغريت رأسها وقالت « لقد حذرت ذلك ولكن
 أقدر - انت على ما اعترمت أتعلم اى اسلوب من العيش سترى هناك
 الا يحسن بك ان تبقى فى القاهرة قليلاً ؟ »

فاجاب عثمان : لا استطيع وليس لى على البقاء يدان ووالله
 لو ددت انى لم أشهد هذا البيت فى حياتى . ولكنك يا ست
 تعرفين انى لست جاحدا الصنيع الذى اسديته الى فيما مضى .
 جزاك الله عنه الخير كله . ولكنى لطالما حدثت نفسى متمنيا
 لو انك طردتنى من البيت ولم تفتحى باب دارك للقائى فى تلك
 الليلة التى جىء بى جريحاً محمولاً . . »

فأطرقت مرغريت برأسها وفى عينها بريق العطف والرثاء
 له وقالت « اعرف ذلك . اعرف ذلك . الهمك الله الصبر واحتمال
 هذا العذاب . »

فقال عثمان متألماً محتداً « بل ادعى الله لاجلى يا ست ان يهبنى
 القوة على الانتقام منه »

فجعلت مرغريت تواسيه قائلة « بل دعه يا عثمان الى ضميره
 فان وخزه ليدهمى العواد بأشد من طعنات سيفك »

فضحك الآخر وأجاب « ضميره ! ضمير رجل افرنكى ! انه ليحمله كما يتقلد الانسان سيفاً اخذه من رجل آخر ، فهو معجب به فرح مزهو »

فأجابته مرغريت بلمحة الجذ والتأكيد « كلا . كلا لا تقل ذلك يا عثمان . اننى متألمة من ذلك الاثم الذى اجترحه . ألم يدخل بيتى ويخدعنى ويفتصب وديعتى ولكن سيأتى يوم يندم ويدرف دموع الحسرات على ما فعل ويدرك أنه كان خيراً له لو انه سدد رصاصته الى صدره من تلك الفعلة النكراء التى فعل »

فقال عثمان « انه اذا فعل ذلك فوالله انه الافرنكى ليس على مثال الفرنجية أهله . ولكنهم والرحمن سواسية ، اذ لا أكاد اعرف افرنكيا منهم لم يتخذ لنفسه من نسوة هذا البلد خليفة اولم يفتح لعشيقة بيتا »

فأجابته مرغريت قائلة « كلا ، انك على خطأ ، فان الجراح « لارى » الذى تدىن انت له بحياتك رفض قبل سفره الى عكا ان يصاحب ذلك الضابط المهندس أو يضع يده فى يده وكانا من قبل صديقين حميمين ظلا على اخلاص الود الدهر الطويل ، ثم هذا هو الكبتن « ديبون » لا يكاد يرد تحيته فى الطريق اذا سلم . وهذا الشيخ ليفر الجالس أمامك ، وهو كذلك من أهل فرنسا ابتدر ذلك الرجل فى الطريق وقد جاء ليكلمه بقوله له فى وجهه ان صداقتها قد انتهت وانه لم يعد يعرفه أو يتصل منه بسبب

يسألني عن بيتك وموقعه من المدينة «
 فشحب وجه الشحاذ ولكنه لم يلبث ان تمالك حاشه وذهب
 عنه الروح

وفى تلك اللحظة سمعت اصوات الموسيقى ودقات الطبول
 فاشتد الزحام وعلا الصياح ، وفى لحظة أخرى ظهرت طلائع
 الجيش

فصاح عبد الله رفيقه «الانتظر انهم قادمون فى مظهر المنتصر ،
 الاترى الاعلام والمدافع التى غنموها من الموقعة»
 فأجاب السائل . نعم ، ولكنهم ذهبوا فى اثواب قشبية
 وهام عائدون فى اطمار وأسما ، لقد ذهبوا سمانا غلاظا كالثيران ،
 لانهم «تربعوا» فى أرض البرسيم والخضر ، وهام راجعون عجافا
 مهزليل ، كأنما كانوا فى الصحراء «

فقال عبد الله «ولكن الا تسمعهم يصرخون وتعلوا اصواتهم
 من فرح وطرب ونشوة»

فكان جواب السائل «لم لا ، يا فتى . الاتدرى ان الجياع هم
 اشد الناس صياحا وصراخا عند رؤية الطعام... يالله . الست تراهم
 كأنهم قد خرجوا من القبور ، والآن ، هاهى مدفعتهم فاين
 جندهم الخطير ذوالساق الواحدة ذلك الذى نسميه «أبو خشبه»
 الاتذكر ذلك ، لقد مضى الى ربه ، ما كان اعجبه رجلا اذ كان
 يمشي على ساق واحدة مسرعا خفيف الحركة لا يستطيع ذوالساقين

ان يماشيه . لقد رأيت الكفاية وقد حقت نبوءتى وتأكدت انبائى . ان هذه المنشورات أكاذيب واضاليل . وعكالاتزال على حالها لم تسقط وسيكون مراد بهذا النبأ أقل جزءاً وسيفتح فى وجهه مغاليق الامل الضائع »

وانشغل الفتى بالنظر عن تلمس صاحبه السائل ، فلما انتهت ثانية خلفه ليفتقده لم يره ، اذ كان الشحاذ قد انسل من بين الجموع مفلتاً

فلما خرج من الجموع انطلق مسرعاً على الرغم من عرجه فقد كان منزعاً عجباً قلقاً مشغول البال ، وقد اشتد اضطرابه فجعل يكلم نفسه وهو يمشى وكان يقول « احمد الله انى قابلت هذا الصبي ، نعم ، لقد اخطأت وضللت اذ جعلتنى خمسة عشرة عاماً قضيتها أعالج النسيان قليل الاكتراث غير حذر ولا محترس . لقد بدأت الهواجس تستولى على رضوان الخصى ، الا لعنة الله على حمقى . ومن يدرى لعله كان يتعقبنى منذ ايام وانا لا أدرى »

عند هذه الفكرة وقف عن السير وتلفت حوله موجساً خيفة ، ولكنه عاد الى المشى يدخل مضيقاً وينفذ من مضيق ، ويمشى فى حوار قدرة ، واخيراً وقف يلهث من شدة التعب وقد اقترب من المنزل الذى كان يسكنه ، ولكنه لم يلبث أن طرق سمعه أصوات حوافر خيل ، فأنسل الى ركن هناك وجلس القرفصاء كامناً عن الانظار ، وقد اشتد به الجزع ، واصطكت ركبتاه من

ولذلك خرج المصريون من ديارهم لاستقبال هذا القوي البطاش الجبار والترحاب به كعادة الشرقيين في الخشية من الاقوياء ومن بين أولئك الجموع كان الشيخ فضل وتلميذه عبد الله راكبين حمارين ولم يكونا قد خرجا للفرجة مع الخارجين ولكنهما كانا عائدتين الى البيت من طريق معوج كثير الازقة اختاره عبد الله عن مكر وعمد فلم يلبثا ان وجدا نهسيهما في وسط الزحام ولم يستطيعا من الرحمة افلاتا

فتملأ الشيخ فضل وضاق ذرعا وتأوه قائلا « انظر يا عبد الله اننا الآن كمن اشتبك بمعضلة فلسفية ولم يجد له منها خلاصا ولا حلا »

واخذ الزحام يشتد وينكاث والجوي يختنق ويتلبد ، فأطرق الشيخ برأسه متعبا متمللا وتناءب عبد الله ولما يصل موكب الجنود القادمة من عكا لعنة الله عليهم

ولم يلبث عبد الله ان انتبه على صوت مألوف لديه يصيح به « سلام عليكم يا عبد الله سلام عليكم يا أستاذ »

فالتفت ورائه واذا به يرى الشحاذا امام عينيه

فاجابه عبد الله « اهلا وسهلا يا افندي اجئت لمشاهدة القرنجة الملاعين . لقد كذبت الحوادث نبأك الذي نبأتنى به اذ قلت ان عكا لم تسقط في ايدي القرنجة ، الم تقرأ الاعلانات التي لصقت على الحيطان ، لقد اصيب الجزار باشا بجرح مميت واصبحت عكا

اطلالا عافيات »

فقال الشيخ السائل « أظن اللسان هو الذى يكذب فقط ، الا
تدرى ان القلم كذلك قد يكذب »

فقال الفقى مجيبا على هذا السؤال المدهش « بل انى اعلم
ان قائد هؤلاء الفرنكة هو ابو الاكاذيب كلها ولكن الا تعلم ان
جنوده عائدون بالاسلاب والغنائم والاسرى ؟ »

فاجاب الشحاذا بهدوء « سنرى قريبا ، سنرى ولكن كيف
اتفق لشيخك ان يكون فى هذا المكان الساعة لقد كنت احسبه
لا يهتم بهذه المناظر »

فابتسم الفقى وقول « نحن مررنا بهذا المكان صدفة »
فاجاب السائل بابتسامة ذات معنى « سعيد الاعمى الذى
لدليله عينان تبصران ، ولكن اين صاحبك عثمان المملوك فانى
لم اره منذ زمن طويل ؟ »

فتلفت الفقى حوله من حذر وأجاب « لقد سافر الى الصعيد »
فعاد السائل يسأله « وهل ذهب وحده أم مع الخصى ؟ »
فقال عبد الله « كلا . فان رضوان افندى هنا فى القاهرة
وقد كان يسألنى عنك وعن احوالك منذ ايام قلائل »

فصاح الشحاذا بلهجة قلق واضطراب « اتقول سألك عنى انا؟
وما يريد ان يعلم عن شحاذا مثلى »

فعاد الفقى يجيبه « اظن انه يريد ان يؤدى لك خدمة لانه كان

الخوف والرعب

ولم يلبث أن اقبل على حمار رجل طويل تكاد رجلاه تلامسان الأرض وكانت امرأة راكبة حمارا آخر بجانبه وهي مبرقة .
ومرتدية حبرة مصرية وتتم السائل يقول وقد تضرب جبينه بقطرات العرق « نال الله ، لابد من ان تكون هذه نفيسة ومعها رضوان الخصى . ولكن اين كانا وماذا يفعلان في هذه الناحية »

ورأى الشارع قد أفقر ثانية فخرج من مكانه ومضى على وجهه بسرعة شديدة

ولما باغ أخيراً منزله وقف قليلا ببابه وكان الظلام قد بدأ يخيم على السكون فجعل يتفحص نوافذ البيوت المقابلة ثم استقر بصره أخيراً على البيت المقابل لداره

ولكن ذلك البيت كان ساكنا قفراً لا أثر للحياة فيه وكانت مشربته مهدامة اذ كان المنزل مهجوراً منذ أعوام

ولكن الشحاذ لم يكن يدري ان هناك كانت امرأة ورجل معها ظلاما من الفجر يراقبان من ثغور في المشربية ، وأن امرأة أخرى في بيته كانت قد فتحت النافذة فأرت الشخصين اللذين كانا يراقبان في البيت المقابل وجهها وكان شاحباً وشعرها وقد علاه المشيب

ووقف الرجل والمرأة يرقبان وهما في أشد الدهشة والذهول الى أن اقبلت المرأة الأخرى النافذة وعادت الى حجرتها

فألنفت الرجل اذ ذاك الى المرأة وقال « ماذا ترين الآن ؟ »
 فلم تزد المرأة على أن اجابت « لقد عاد الميت الى الحياة ؟ »
 فعاد الرجل يقول « نعم ، لقد أعاد الله الموتى الى الحياة
 وسيصاح ما أفسد الدهر ، فالحمد لله الرحمن الرحيم الذى جعلنى
 وسيلة لذلك »

ولم يكن السائل يدرى ما كان يحدث فى ذلك البيت ولكن
 الغريزة الهمتة أن يتفحص باب البيت فتخطى الناحية الأخرى
 وجعل يفحص قفل الباب وجدرانه ولم يلبث أن قال لنفسه مذعوراً
 « والله لقد فتح هذا الباب »

ثم اتى نظرة شاردة حوله ومشى الى باب بيته ففتحه وانسل
 مسرعاً فى صمت ورفق

وما كاد الظلام يعم المدينة حتى ظهر السائل ثانية ومن خلفه
 امرأة سودانية تحمل بعض الأمتعة وتقود سيدة فى حبرة كبيرة
 فضفاضة

وكادت المرأة تراجع ولا تواصل المسير والخدمة تشجعها
 ولكنها ظلت مترددة .

وقلت لخادمتها فى همس « أحقا ما يقول الأفندى ، اننى
 خائفة ، اننى خائفة »

فجمعت الخادمة تجيبها قائلة « نعم ، لقد قال ذلك ، لقد قال ذلك »
 فلم تكثرث المرأة بقول الجارية وانما تقدمت الى الشّحاذ

فأمسكت بذراعه وهى تسأله « أحق هذا الذى قلت لى ،
أصحيح انك ستأخذنى الى زوجى واطفالى ، أم تلك اكاذيب ،
الهى . يا الهى ! هل أنت تضحك منى وتكذب على »

فبدأ وجه الشحاذ فى الظلام أصفر شاحباً مقطباً واجاب
« لانتخافى ، لانتخافى ، لقد جئت من قبل زوجك وقد أمرنى أن
أوصلك اليه »

فأجابت المرأة اذذاك بسرعة « اذن هلم بى اليه ، هلم بى اليه
فقد طال انتظارى له ، هيا ، فقد نقد منى الصبر ! »

الفصل العشرون

فلاح البدرشين

ليس فى مصر بلد يتجلى فيه البون الشاسع بين عظمة مصر
القديمة وبين الهوة السحيقة التى سقطت فيها مصر على مختم القرن الثامن
عشر بأروع مما يتجلى فى البلدة المسماة البدرشين ، تلك القرية التى
تحوى ركاما من الطين واكواخاً من الوحل والروث اقيمت على
أرض كانت فوقها يوماً تلك المدينة العظيمة منهيس .

والنيل يجرى هناك وبينه وبين القرية ذلك الحسر الطويل
الممتد بين القاهرة والدلتا طريقاً يفضى الى الوجه القبلى
وهناك على مقربة من النهر كوخ وبرج حمام والسهاد ملقى
بجانبه وحوش للدجاج تجرى فيه افراخ صفار

وفي حقل صغير من البرسيم عن كئيب من الكوخ بقرة ترعى
وهناك فوق الجسر جالس رجل يلوح عليه أنه كان يسرح بصره
في النهر متمتعاً بالنساء التي كانت تهب من ناحية النيل ويراقب
المراكب التي تسير فيه

ولم يلبث أن نهض الرجل من مجلسه ليربط المقررة في مكان
آخر من الحقل أنضر مرعى ، فإذا هو أعرج يظلم في مشيته
وكأنما ظلمه قد آهاج كامن غضبه فجعل يقول لنفسه « اليوم
هو الثاني عشر من شهر شوال ، أي اليوم الذي تركت فيه داري
مسافراً تلك السفرة الملعونة ، يالها من ذكرى البعة ، لقد سلمني
الله معطى كل شيء شيئاً كثيراً وليته إذ استرد أخذ دأكرني
كذلك ، نعم ما أسوأ الذاكرة . نعم لقد كنت يومذاك فتياً ممتلئاً
صحة وقوة وسعادة وهناء ولكني الآن »

وتنهل قليلاً ونظر الى ثوبه القذر الماطخ بالأوحال الممزق
وكانت ساقه العرجاء تطل من تحته

وعاد يسترسل في نحيواه « لقد كانت لي اطفال يومذاك وانا
الآن بلا طفل ولا ولد ، وكانت «عليّة» و احضاني وهي في روعة
جمالها وأنضر مظهر حسنهما وكان لي منها الحب ، وكنت انعم عندها
بالذكاء والاخلاص والوفاء ، ولكني الآن »

ثم امسك قليلاً ونظر الى الكوخ نظارة متألم معذب النفس
وانطق يناجي نفسه قائلاً « ولكن ذلك الحب قد قام في مكانه

البغض ، وذلك الهناء الذى كنت اشعر به لم يبق منه شيء ولم يذهب الا ليحل فى مكانه الرغب فى الانتقام وأخذ الثأر ، نعم ، والله انها مصدر سعادتى الآن ولدتى »

« لمد انتظرت ربي وتمكنت ودست و خلقت المكائد ووضعت الحبائل لتعذيبه والثأر منه وائلامه كما عذبني وآلمني ، ولكن لم يرزقه الله بولد ولا طفل ولو انه رزقه مائة منهم لما كان افرحني اذ اسلبه اياهم طفلا طفلا »

« ولكن واحسرتاه ، لا يزال قويا ممتعا بالحياة ، لقد كنت أظن يوم جاء الفرنسيس ان ساعته قد آذنت بزوال . وان دولته قد كربت ان تدول ، ولكن طاش سهمي وخاب ظني ، لقد كسر في امبابه جناحيه ولكنه لم يلبث ان طار مع ذلك ملتصقا بالصحراء عاصما ، واهالي ، لقد كنت احسب ان تأري قد وقع وان ترقى قد شفيت ولكن ما اعجب وما اغرب ان قد انقذ الشيطان أهله وانصاره ، الا ضلة لى ، لقد تبددت أمال ستة عشر عاما طوالا مؤلمة مضنية »

وتحسست يده عن غير ارادته جيب ثوبه فأخرجت علبة تحوى قليلا من المسحوق فتناول شيئا منه وجعل يمزج التبغ به وهو يقول « ولكن لم يبق لى من وسائل النسيان غير هذه الوسيلة ، فلا أكاد اشرب هذا الحشيش » حتى اعود ثانية مصطفى بك فى وسط زوجته الحسنة وأولاده وامامه عالم جميل

مزدھر حافل بأطایب الحیاة وطرائفها، لقد كنت من قبل اسخر
 من هذه الوسيلة وازدریها واهزأ بها اذ كنت أعدها لذة الحمقى
 وملتعة الصعاليك وأهل النفوس الدنيا ولكن يومذاك كنت
 مكفولا السعادة مستمتعا بالهناء من غيرها وكنت غنيا عن التماس
 لذتها ولكن الآن لا اكاد أحس الحیاة تجرى فی زهى التبدل و فی
 جثماني المریض اذا لم أعد الى هذا الضرب من التبغ المزيج بالمادة
 السامة . والله انه لشئ عجاب »

واذ ذاك سكت عن النجوى قليلا وراح يتأمل ذلك المسحوق
 وهو فی راحة يده . ثم لم يلبث ان مضى يتمم قائلًا « ولكن
 من یدرى . فلعل هذه اللذة هی التي كان يتمتع بها أهل القرون
 الغابرة فنبتت من سماد عظامهم هذه البتة الجديدة ثم عادت
 تسرى فی جثمان الاحياء عندما تحرق وتصیر دخانا »
 قال ذلك وعركها فی كفہ بعناية تامة وراح ينظر اليها ملتفها ظامًا
 ثم عاد يقول « نعم من هذه وحدها استمد سكون نفسی الثائرة ! »
 ووضعها لحظة بجانبه وصفق ببديه فجاء على التصفيق عبد
 أسود من العشة التي كانت لصق الكوخ

فصاح الرجل به قائلًا « احضر الرجيلة »

فوقف العبد ينظر الى الرجل مترددا ولكنه لم يلبث ان
 عاد الى عشته فی صمت وفي هذه اللحظة تراءى للرجل وهو فی
 مجلسه ذاك غبار علا من مسافة بعيدة من ناحية الشمال فلم يلبث

أن أجفل فجأة وجعل يراقب الغبار في دهشة واضطراب
وللحال نهض فمشى يعرج حتى بلغ باب كوخه فاغلقه واحكم
اغلاقه

وعاد الزنجي يسأل سيده « تريد شيئاً آخر ياسيدي ،فانى
أعد الان لك الزجيلة »

فأجابه الرجل « كلا ، ابق داخل العشة ولا تخرج فاننى أرى
بعض المماليك قادمين ناحيتنا ان لم يخطئ » بصرى . . .
واخذ الغبار يقترب شيئاً فشيئاً

ولم يلبث ان تمكن الرجل من مشاهدة رجلين من المماليك
ينهبان الارض نهباً على جوادين دون ان يكثرنا بوعورة تلك
الأرض

فتمتم الرجل فائلاً « هذان والله رسولان الى الصعيد ،
الا تبأ لهما انهما يعدوان بجواديهما فى هذه الارض الوعرة الحزنة
كأنما يحسبانها قطعة من الصحراء ناعمة الأديم »

ولم يكد الفارس الاول يصبح على بضعة امتار من الرجل ،
حتى نهض فجأة من مكانه كأنما يريد فراراً ، وخفقت جلايته مع
الريح . فأجفل الجواد وتواثب وتراجع وانطلق يريد اعتلاء الجسر
فسقط الى الارض هو وراكبه »

ولكن المملوك نهض فى خطف البرق ولم تقم للجواد قائمة
فصاح به رفيقه مذغورا « هل جرحت »

فأحتدم الأول وتسخط وصاح بجواده يحاول انهاضه فلم
يفلح

ولم يكن من ذلك الفلاح الا ان ازاح عمامته من خلف
حتى لاصقت عينيه ، بينما تقدم الفارس الآخر نحوه وطلب اليه
أن يمسك بعنان جواده ، حتى يرى ماخطب صاحبه
فقال عدا وهو يكاد يبكي من شدة الحنق « لافائدة يا أحمد
لقد كسرت ساقه »

فأن الفلاح واستبكى وجعل يصيح قائلاً « لعنة الله على .
لقد كنت انا السبب »

فانفجر غضب المملوك وصرخ به « كفى كفى اذهب واحضر
لى جوادا آخر وعلى ان ادفع لك فى مقابله ثمننا طيبا »
فأجاب الفلاح مستعبراً « يالى من شقى لا استطيع ذلك
ياسيدى ، فانه منذ قدم الافرنك لم يبقوا فى البدرشين كلها على
جواد واحد »

فسخط المملوك وسب وشتم ولم يكن من صاحبه الا ان
قال بلمهجة الاحترام والخضوع « خذ جوادى يا عثمان وواصل انت
المسير »

فأجاب عثمان قائلاً « كلا ، ما كنت لأرضى بذلك ، ان النحس
نحسى والآن خذ انت هذا « الطرد » وسلمه الى شيخ البلد وادعوا
الله ان يجزيك عنى احسن الجزاء »

قال ذلك وحل من عنقه رباطاً كانت صندوقة صغيرة مربوطة به ودفعها الى المملوك الآخر وعاد يقول له « وأجتهد الا تتأخر او يعميقك عائق ولا تحفل بى فأنى سأعود الى مصر بطريق النهر » فأخذ المملوك منه الطرد وربطه حول عنقه ونظر الى صاحبه نظرة المتأسف النادم على تركه واعمل مهمازه فى جواده فرق به كالسهم .

واذ ذاك التففت عثمان الى الفلاح وقال : استحضر لى قارباً لأصل به الى مصر »

فأجاب الفلاح متأسفاً « اننا الان بامولاي على وشك الغروب وقد ربط اصحاب القوارب قواربهم للمبيت فلا يتيسر الليلة لك السفر »

فتمتم المملوك متسخطاً « اما حكاية » ولكن ما العمل ، هذه مشيئة الله »

ثم هز كتفيه يائساً وقال ليس لى من حيلة الا المبيت هنا الليلة الى مطلع الفجر ثم انطلق ، الديك منامة لى »

فقال الفلاح « بيتى كله تحت أمرك بامولاي اذا شئت » فأجاب الفتى « حسنا ما قلت ، ولكن لنبدأ أولاً بانقاذ هذا الحيوان المسكين من آلامه »

وأخرج غدارة من منطقة وسددها الى رأس الجواد وأطلق النار

وأصاب من الحيوان مقتلاً فلم يكن من المسكين إلا رعدة
فرعدة وسكنت في الحال نأتمته .

فتمتم الرجل يقول « ان الموت حقاً خيراً من العذاب والألم »
ووقف المملوك قليلاً ينظر الى جواده المحتضر نظرة المتألم
الحزين له كاتم ممد اليه فنزع عن ظهره السرج وتناول الشكيمة
والأعنة فالتقاها جميعاً فوق كتفه ومشى في أثر الرجل صوب الكوخ
ونظر الفتى ناحية العشة المجاورة نظرة المستفسر

فقال الرجل « هذا مسكن حريمى يابك » فلم يحرم المملوك
جواباً اذ فهم ما يريد الاخر واحضر الزنجى بأشارة من سيده
سجادة فبسطها فوق الأرض

وراح الرجل يقول « لا مؤاخذه يا مولاي في هذا البيت فانه
حقير بالنسبة لكم ولكنى رجل فقير يا مولاي ، أمن حاجة اخرى
أقضيها لكم : »

فأجاب المملوك « كلا . . وانما اتركى الان وأيقظنى في
مطالع الصبح »

وتلفت المملوك حوله وقد تولاه شئ من الاشمئزاز لقلادة
ما حوله ولم يلبث ان قال يناجى نفسه « ما أغرب تصاريف القدر
أيقدر لى أن ابيت الليلة في مكان كهذا وما اعجب منظرى غداً
اذ أعود الى مصر ، الا لعنة الله على هذا الفلاح وعلى اذ اطلقت
العنان لجوادى »

وحلس فوق السرج قليلا حتى خيم الظلام فحمله ثانية واطلاق
فدخل الكوخ

ومد البساط قليلا ناحية باب الكوخ ليستنشق الهواء النقي
والتي سيفه بجانبه وغدارته عن جانبه الاخر واتخذ من السرج
وسادة لرأسه ، ولم يلبث أن تولاه سمات

واشدت الظلمة وساد السكون وكان الفلاح جالسا أمام
الكوخ يدخل ويرسل من نرجيلته ذوائب من الحشيش تحملها
ريح الليل الى النهر

ومضى كذلك في مجلسه يرتضع أفاويق تلك النرجيلة وينظر
بين آونة واخرى صوب الكوخ حيث كان المملوك متخذا مرقده
ولم يلبث ان راح يقول لنفسه « لقد دفعه الله أحيرا الى
يدى . نعم ، هذه يد القدر ونعمته ولكن كار ، كلا ، لا أستطيع
الان أن أقوم بما نويت ، دعنى اشرب كمية اخرى من الحشيش
حتى لا ألبث ان أنام والنسى »

ثم نهض يترنح في مشيته وسقط في داخل الكوخ وهو
لا يزال ممسكا بنرجيلته رقد فعملت تلك المادة السامة فعلها في أعصابه
وتناول من ركن في الحجرة خنجرا كان يلمع نصله في يده
وكان ذهنه مشغولا بفكرة مخيفة تهيج نائره

ومشى بزحف على قدميه وهو يقول لنفسه « لاريب في
أن الله دفعه الى ، نعم اننى اعرفه ، هذا عثمان السلحدار الذى

يحببه مراد كابنه ، لقد حاولت مرة انقاذ حياته يوم كان جريحاً
ماحمته وابلهنى ، ولكنى الان سأذبحه . نعم بهذا الخنجر
سأقطع نياط قلبه »

وكان الرجل اذذاك فى جنة مخيفة ولكنه كان مع ذلك حذراً
متيقظاً لاية حركة وكان يمشى حول الكوخ ساكن الخطفى
كاللص وجعل ينظر الى النائم وهو يصنى بأذنه وكان الزنجى
يغط فى نومه

ولم يلبث الرجل ان أطرق برأسه مطمئناً وعاد اذ راحه مقرباً
من المكان الذى اضطجع فيه المملوك ، ثم شعر عن ساعده وتناول
خنجره ومشى الى الامام والى يمينه .

وللحال فغرى فاد ووقف كالمصعوق اذ طلع القمر اذذاك فألقى
شعاعاً من نوره على الكوخ وانعكس الضياء على وجه النائم واذ
بالرجل يرى وهو كالمبهوت المروع المفلوج امرأة . وخط المشيب
رأسها مزهولة قد ركعت بجانب الفتى النائم تتأمل وجهه وقد اشع
فى محياها نور الامومة وحنان ابوالدة

وكان الفتى كبيراً قد ادرك سن الرجولة . وقد بدت على
طاعته آثار حياة مجهدة وأمارات التعب والآلام وقد نبئت له
لحية لاتزال شعرات لم تجتمع بعد ولم تكثف

ولكنها ظلت راحة بجانبه تنظر الى وجهه وتستمع الى انفاسه
كما تفعل الأم الؤوم مع طفلها الرضيع

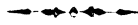
ووقف الرجل في خارج الكوخ محملاً بالبصر مبهوتا وقد تبين أنها لا بد قد انسلت الى مكانها بجانب النائم اذ خرج هو من الكوخ ليتأكد ان الزنجى قد أوى الى مضجعه واخذ النوم عينه نعم ادرك الرجل ذلك ولم يكن دهشته لذلك وانما راعه مارأى من سكون تلك المرأة وهى فى مكانها ذاك فقد مضت عليها ستة عشر عاماً لم يشهدا فى خلالها على هذه الحال من السكون وهدوء النفس ولم ير بريق الحب يسطم فى عينيها كما رآه اذ ذاك نعم لقد عادت السكينة فاستقرت ثانية فى ذلك الذهن المهدم المريض الشارد المذهول

فلم يكذب يشهد الرجل ذلك المنظر الجليل الرائع الرهيب حتى أسقط الخنجر من يده وسقط جاثيا على الارض وقد فارقتة قواه فتطلعت المرأة بنظرها وابتمت ثم وضعت اناملها فوق شفقتها وأشارت اليه

فأقبل وهو مذهول اللب لا يعى ما يفعل وظلت هى واضعة اناملها على شفقتها تأمره بالسكوت وباصبع أخرى أشارت اليه ان ينظر الى الفتى النائم وهى تبتمس وقامت من مكانها والرجل فى اثرها وهى تقول « انه نائم يامصطفى انه متعب منهوك القوى فقد لعب طول النهار وجرى وركض . هذا طفلنا المحبوب ! »

فانطلقت من بين شفقي الرجل الصريع تحته نشوة الحشيش

انتحابة مؤلمة وألقى ذراعاه حول خصرها ومشى بها وهى لا تقاوم
ولا تمنع ، ولا تزال الابتسامة على شفثتها
وقادها الى العشة فأدخلها وأقفل الباب
وفى الكوخ كان الفنى عثمان المملوك قد تحرك فى مضجعه
وفتح عينيه قليلا وهو فى حلم ثم اضطجع على جنبه الاخرى
وولى وجهه صوب القمر وهوى فى سباته كما كان



الفصل الواحد والعشرون

المفاوضات السرية

مضى على ستيفن ومكسيم منذ اعتصامهما بالصعيد طامان
كاملان وهما يعيشان عيشة سقيمة مملة فى معسكر مراد
وكان مراد بعد أن طارده « ديسكس » بجنوده . وشق عليه
ايجاد الميرة لرجاله ، من كراهية الفلاحين له واجتوائهم لسابقة
طفيانه . قد انطلق مشرداً قبلى اصوان هو وجنوده كالطيور
الجارحة متنقلين من مكان الى مكان
ولم تكن تفوت مراد انباء ما كان يحدث فى مصر فقد كان
الخصى رضوان يرسل اليه برداً وبموثاً بين الحين والحين يحملهم
أناء القاهرة

ولئن كان مراد قد علم بذبأ انكسار أسطول الفرنسيين على أيدي الانكليز وطرب له وتولاه السرور ، كما فرح بذبأ اندحار الجيش الفرنسي على أسوار عكا ، فقد كان اليأس قد تملكه من الوقوع في حرب معهم ، ولذلك لم يجد بداً من عقد محالفة معهم ، وفي مقابل الصلح اقطعوه مديرية جرجا يفعل فيها كما يشاء السيد الحاكم

فلما انتهى اليه بعد ذلك ان الاتراك والانكليز قد تحالفا على الاغارة على مصر أدرك ما هنالك ، فأعدّ للأمر عدته ، وبدأ يمد السبيل للتحالف مع القوة الناهضة

ولم يكن يحفل بشيء من وراء ذلك غير أن يستعيد لقب شيخ البلد ، ولقد حارب وقاتل من قبل في سبيله ، ولكنه عمد بعد ذلك الى دس الدسائس لبلوغه فدار بعينيه حوله عسى أن يجد من يستعين به على أمره ، فلم يجد غير « ستيفن » ولهذا الغاية أنقذه الى القاهرة في رفقة « مكسيم ليجران » وحمّلهما رسائل مختومة الى الخصى رضوان

ووصلا من جرجا الى البدرشين بعد خمسة أيام فلقيا فيها عثمان يتأهب للرحيل بعد مبيت ليلة واحدة في ذلك الكوخ ، فحملاه في القارب معهما ، وكان قد عجز عن اتمام رحلته الى الصعيد كما قدمنا ، فسافر وحده أحمد الصعيدى يحمل الى مراد رسالة من رضوان اذا كان قد شرح له فيها مقتل كليبر على يد الحلبي

وتعيين مينو في مكانه ووصول اسطول انكليزى الى أبو قير .
وبعد أيام مضت من وصول ستيفن وصاحبه الى القاهرة
أرسل اليه الخصى رسالة ذات مساء من بركة الفيل يدعوه
الى زيارته

فلما التقى به استقبله رضوان بالتحية والترحاب
ثم بدأ الخصى الحديث فقال « ان الحوادث تتعاقب بسرعة
يا أفندى وعندما يكون الدائنون على الابواب فما على المرابى
غير المفاوضة ووضع شروط طيبة للقرض . لقد وصلتني رسالة
من مراد بك وقد ترك لى العمل بما فيها عند سnoch الفرصة لها
وقد آن اليوم أو ان انفاذاها . لقد أمرنى مراد بك فى الرسالة
التي جئتنى بها أن أرسلك بتلك الاوراق الى القائد البريطانى
للمفاوضة معه . ان الاوراق يجب أن توضع فى يد القائد نفسه .
أسمعت يا أفندى ويريد منك مراد كذلك أن تفتح عينيك
وتدرك قوة الجيش البريطانى وعدته وعديده والوسائل التي
لديهم للغلبة على عدوهم »

فقال ستيفن « اذن يريد مراد ان اكون جاسوساً له ؟ »
قهز الخصى كتفيه وأجاب « لقد أمرنى كذلك أن اذكرك
بقسمك الذي أقسمت ثم ما بالك تغضب وتتألم . ان هذه الرسالة
ولا ريب تروق فى عينيك . وهذه المهمة لا تسوء لديك . لانك
ستكون بها رسول سلام لا رسول حرب »

فأجاب ستيفن «انك لا تدرك ما في نفسي فان هناك اسباباً
أخرى ولكنى على كل حال سأذهب»
قال ذلك وتناول الاوراق الملفوفة فى رزمة وألقاها طى
قهطانه .

ودفع اليه الخصى بشيء من المال وقال «وهاك المال لتستعين
به على مهمتك فافعل ما يوحى اليك به ذهنك ودبر لنفسك الخطط
التي ترى ولكن حذار والونى والتأخير فان الامور تتطلب شدة
السرعة»

وكان الليل قد أرخى سدوله على المدينة قبل أن يتم ستيفن
اعداده التدابير لمهمته

وكان قد أزمع الرحيل فى مطلع الفجر ولكنه بدلا من أن
يذهب الى بولاق انطلق صوب الجهة التى يقم فيها الحى الافرنكى
وكان يعرف كل ركن من ذلك الحى وقد ألف كل زاوية
فيه من طول سكناه فيما مضى من عمره ولكنه لم يلبث اذ بلغ
الحى أن عجب واستنكر بصره اذ شهد التغيرات التى حدثت فى
الحى منذ عامين فقد انتزعت الابواب الخارجية الكبيرة وأصبح
مدخل الحى طليقاً متسعاً وكاد ينسى البقعة التى انقذ منذ أعوام
ثمانية حياة مراد فيها ولكنه لم يلبث ان تنفس الصعداء اذ رأى
لمنزل الذى طالما سكنه باقياً لم تعمل فيه يد التغيير شيئاً

وتطلع ببصره الى النوافذ فرأى بصيصاً من النور يلوح من

وراء خشبها . فدفق الباب مترقفاً ثم دقه ثانية
ولم يلبث ان سمع وقع خطوات فوق السلم وطرق سمعه
صوت جول ليفبر وهو يسأله عن اسمه ومأربه
فأجاب « أنا يا جول . أنا ستيفن »

فنزح الشيخ المزلاج وفتح الباب واذا بستيفن يرى أمامه
العجوز ليفبر في قفطانه وطاقمته يخني تحتها رأسه الاصلم وفي
يده مصباح وهو ينظر متخازراً في وجه القادم الجديد
وتقدم ستيفن صامتاً فدخل البيت وأغلق الشيخ الباب خلفه
وأحكم الرتاج ومشى في المقدمة ينير له السلم
وابتداً الشيخ الحديث بعد أن وضع امام صاحبه لفائف
التبغ وقدم اليه القهوة « وهكذا جئت أخيراً يا صاح »
فهز ستيفن رأسه

فعماد الشيخ يقول بلهجة الخيب النادم « ماذا تعنى ، ألسنت
طائداً الآن ؟ لقد وددت لو أنك عدت العودة النهائية في سبيل
السيدة ، معذرة . لقد انتظرت دهرأ طويلا »

فأجاب ستيفن « أعلم ذلك . أعلم ذلك . أى صديقى جول .
لقد كنت أحمق مجنوناً وقد سلكت معها مسلك الكلب العقور
والحيوان الذى لا شعور له ولكنى والله ما كنت بال مخلوق الذى
يعود اليها الآن وقد خابت آماله وطاشت السهام »

فقال ليفبر « ولكن السيدة لا تحفل بذلك مادمت قد عدت »

فأجاب ستيفن « أعرف ذلك . أعرف ذلك . ولكن هذا
يحملني على الاصرار على الذهاب اذ لا ترتضى نفسى العودة على
هذه الصورة »

فقال ليفير « انك مدين لها باصلاح ما فرط منك وحسبك
انك قد عدت لاجل ذلك »

فاجاب ستيفن « لعلى حائد بعد الان يا صديقى جول ان شاء
الله وأرادت حكمته اذ لست استطيع الذهاب اليها خاوى الوفاض
صفر الكف ولكن اذا قبيض الله لى ان أبلغ الثراء ورفعة الشأن
فانى يومذاك طارح ذلك كله وعائد اليها مستغفراً مستصفحاً »
فراح الاخر يسأله بفضول « وهل أنت متأكد من انك
بالغ ذلك ؟ »

فأجفل الرجل من هذا السؤال ولم يزد على قوله « ومن
يعرف ؟ »

وبات الرجلان يتحدثان طويلاً حتى بدت بواكر الفجر
واذ ذاك نهض ستيفن من مجلسه قائلاً « يجب ان انصرف الان
يا جول واعتذر اليك عن ازعاجك ومنعك من الراحة والنوم
لتستمع الى آثامى واعترافى »

فأجاب الشيخ « ستعود يوماً فتكشف للسيدة عما حدثتني
به الليلة وثق انها ستسر بسماع قصتك كلها . سيدى . انك ان
فعلت فوالله لا غبطتك يومذاك »

فهز الآخر رأسه وأجاب « سيكون ذلك يوماً يا صديقي
 جـول فإن لم يقع لى ذلك فحدثها أنت به عنى »
 فقال ليفبر « ثق اننى فاعل ذلك . والان وداعا ايها الصديق
 وأرجو لك عوداً سعيداً »
 فأجاب ستيفن « وداعا »

وهز يد صاحبه هزة حارة وانصرف لا يلوى على شىء
 وما كاد يذهب حتى تتم ليفبر يقول « يمين الله لقد كدت
 الليلة اعرف شعور هذا الرجل واكون أقرب الى فهمه منى قبل
 اليوم . ولكن كلمة « الوداع » التى خرجت من فمه . واحسرتا
 تكاد ترن فى اذنى وداعاً أبدياً . له الله . . . ! »

الفصل الثانى والعشرون

عثمان يعرف اسم أبيه

بعد سفر استيفن الى الاسكندرية بمهمة من قبل مراد الى
 الانكليز ببضعة أيام ، كان الخصى وصاحبه عثمان يتزهران فى حديقة
 قصر مراد بك ببركة الفيل

وكان ذلك فى مستهل الصيف وكان النيل منخفضاً . ولكن
 كان يسمع من ساقية هناك يستدير حولها ثور معصوب العينين
 ساعات الطوال ، خريز الماء وهو يتدفق فى الجداول الصغيرة .

وكان يلوح على وجه الفتى سيمياء القلق وانشغال البال
ومضى يقول « اننى لأرى فى الظلام بأرقة نور يارضوان افندى
فان الافرنك الذين تهادن أبى معهم فى محرقة اليوم من أمرهم
وهم ولا ريب سيطردون من هذه البلاد كما جعلت تقول مراراً
وتكراراً ولكن أبى سيروح بعد طردهم فى موقف ملمعون .
فقد أقطعوه جرجا فى سبيل الصلح والسلام ، ولكن لن يلبث
أن يعود الترك الى حكم مصر ، واذا حدث ذلك فلن يفات منهم
بجياته »

فقال الخصى « ينبغى له ان يحكم أوامر السلام والمخالفة
قبل أن تدول دولة الفرنسييس فى مصر ، وقبل أن يخسر رجاله
الخمسة »

فبهت المملوك وقال « ماذا تقول يارضوان افندى اينفض
يده من اصدقائه وحلفائه فى ساعة خطرهم وويلهم »
فأجاب رضوان « أو يسقط معهم ان لم يفعل »
فاشدت حمية المملوك وقال « والله لخير أن يسقط الانسان الف
مرة بجانب اصدقائه من ان يتخطى الى النصر فوق جثثهم »
فأجابه الخصى « انك لست مملوكا يا غمان صميا »
فرد عليه الفتى بحمية وجراءة « والله اذا كان هذا فقل المملوك
الصميم القح ، فلينقذنى الله من ان أكون مملوكا ، ولكن أبى
لم يبدأ بعد المفاوضة مع الانكليز »

فقال الخصى « آه يا عثمان انك لا تبصر الا الذى أمامك . الم تر الانكليزى فلماذا قدم الى القاهرة ؟ »

فهرز عثمان رأسه وقال « والله لم يخطر لى هذا الخاطر »
فأسترسل الخصى فى شرحه يقول « لقد كنت أرسلت الى مراد رسولا يخبره بأن أحوال الفرنسيس سيئة وما سمعته من أن الانكليز قد يغيرون على مصر وطلبت اليه أن يرسل الانكليزى بكتب منه الى القائد البريطانى ، فلم يكديصل استيفن الى القاهرة حتى سافر الى الاسكندرية لتنفيذ هذه المهمة ، ويلوح لى انه لم يسر بهذه البعثة ولم ترق فى عينه ولا أدرى لذلك سببا الا ان يكون قد أراد ان لا يراه أهل قومه فى عمل كهذا ولكنى ذكرته بقسمه الذى أقسم فأطلق شهما ابيا محترما لا يمانه »

فقال عثمان « والله لقد كنت أود ان يحتفظ أبى كذلك بمعهده الى الفرنسيس »

فقال الخصى مبتسماً « ومن الذى علمك هذه المشاعر والاحساسات ؟ »

فاجاب عثمان بسرعة « انت يا رضوان افندى »
فعاد الخصى يقول وهو ضاحك ضحكة مريرة « هل لأغان يكون له مثل هذه الاحساسات » هذا شىء عجيب والآن قل يا عثمان ماذا فعلت اذ سقط جوادك صريعاً فى طريقك الى جرجا ، هل رقدت ليلتذاك فى القرية ؟ »

فقال عثمان « نعم ، رقدت فى بيت صغير لاحد الفلاحين ، وكان هو الذى جعل الجواد يجفل من منظره المرعب ، وكان المكان قذراً ولكن أعجب ما كان من أمرى فى تلك الليلة ذلك الحلم الذى تراءى لى فى المنام ، نعم لقد رأيت فيما يرى النائم انى عدت طفلاً كما كنت صغيراً وان امى جعلت تحملى فى ذراعيها ، يا لله ، لقد كان حاملاً رائعاً جميلاً حتى لقد نهضت من النوم فجلست استمع ، أصغى الى ذلك الصوت الخفى الذى سمعته فى منامى . ولى الله . ما أشد دهشتى اذ بلغ اذنى فى تلك اللحظة صوت امرأة ! »

فابتسم الاغا وقال « ان الاحلام غريبة ، حتى لكثيراً ما رأيتنى فى المنام رجلاً وحولى اطفال لى وغللمان »

فعاد عثمان الى حديثه الاول فقال « وأعجب من ذلك يا رضوان افندى انى عندما نهضت لاعود الى القاهرة فى الفجر وجدت عن كئيب منى خنجراً عجيب الصنع وأقسم انى لم أره قبل رقادى فى ذلك الموضع »

فسأله الخصى قائلاً « ألم نقل الفلاح شيئاً عنه »

فاجاب عثمان « كلا . لم يكن من الخناجر التى يحملها الفلاحون بل قدم بعد ذلك وأخبرنى ان فى النهر قارباً يريد القاهرة فذهبت أريد القارب فوجدت الانكليزى والفرنسى وجئت معهما الى القاهرة »

فقال الخصى بعد لحظة يفكر « أمر غريب ، وهل لا يزال -
الخنجر لديك ؟ »

فلم يجب عثمان بل انتزع من غمده خنجراً ودفع به الى
الخصى فى صمت

فجعل الخصى يتفحصه بدقة ويقلبه بين يديه ومضى عثمان
يقول وقد رأى اهتمام رفيقه بالسلاح « خنجر جميل لم أشهد له
مثيلاً ، ان الانسان ليحمله فيحس انه يهتز فى يمينه »

ولكن عثمان لم يسمعه الا السكوت لانه وحد ان الخصى كان
فى شغل بفحص الخنجر عن الاستماع الى حديثه

على انه راح يقول « عجباً . ترى من صاحب هذا الخنجر ؟ »
فقال الخصى وهو يحاول أن يتكلم بهدوء ولا يستطيع حبس
دهشته « أستطيع أن أقول لك من صاحبه »

فضحك عثمان وقال « أظنك ستقول انه الشحاذ ذاك »

فاجاب الخصى فى صمت رهيب « نعم انه الشحاذ »
فضحك عثمان ضحكة يمازجها القلق وقال « ولكن أية حاجة
الى سلاح كهذا لشحاذ مثله . ان مراداً لا يملك سلاحاً خيراً منه »
فأجاب الخصى « لم يولد الشحاذ يا عثمان شحاذاً . وستعلم
ذلك بعد علم اليقين . والآن نبشئ كيف كانت هيئة ذلك الفلاح »
فقال عثمان « كان أشبه بأبى فلاح آخر . طويل القامة عريض
الالواح ذالحية قصيرة وخطها الشيب وكان ولا ريب حسيروالبصر

لانه كان واضعاً عمامة فوق جبينه ليظلمها بها «
فضى الاغا يقول فى أثره « وكان يظلم فى مشيته يا عثمان
يا أعمى ؟ »

فقال عثمان مندهشاً « نعم . هذا صحيح لله ما أحقنى
لا ريب فى انه كان بعينه ذلك الشحاذ ولكن كيف وضع ذلك
الخنجر بجانب مرقدى فى تلك الليلة ؟ »

فتمتم الخصى يقول « لا يعلم ذلك الا الله وهو وحده الذى
أنقذك برحمته . ولكن هيا بنا فليست لدينا دقيقة نضيعها . فقد
فر من يدى مرة ورأس النبى ما هو بمستطيع ذلك مرة اخرى »
قال ذلك وشفق بيديه

فأقبل على النداء خادم فأمره الخصى اسراج جوادبن فى
التو والليظة من اكرم ماى المرابط من خيل مطهمة .

فبهت عثمان من شدة دهشته وقال « ايه العبارة . وما معنى
هذه العجلة كلها ألك عند هذا الشحاذ ثأر تريد أن تشفى نفسك
مما تجدد منه ؟ »

فقال الخصى « لو أنك عرفت ما الخبر لكنت أشد منى عجلة
واسراعاً . ولكن صبراً . صبراً . فستعلم الخبر بحذافيره قبل
صلاة العشاء فى هذه الليلة »

وفى مسيرهما الى البدرشين أندش عثمان اذ رأى الخصى
يركض مطيته لا يلوى على شىء حتى لم يستطع الفتى وهو العليم

بركوب الخليل أن ينزحق بجواده جواد صاحبه
 وكان الخصى متأدبا مع القرويين كثير الرعاية لهم ، وكان
 ذلك ديدنه وطبعه الذى لا يفارقه ، ولكنه كان يومذاك لا يحفل
 بالمارة منهم فى طريقه ، ولا يكثر بمن يدهمه منهم فى عرض
 الطريق ، كأنما قد ركب فراراً بحياته من خطر داهم . ونجاة من
 المطاردين

حتى اذا اقتربا من القرية تمهل الخصى وراح يسأل المملوك ،
 « أين المنزل يا عثمان ؟ »

فأشار الى بيت هناك كان يلوح على الطريق والجمائم ترفّ
 حول سطحه وقال « ذاك الذى يلوح هناك »

فاوقفا جواديهما قبالة بابه وتلفتا حولهما وراعهما مارآيا من
 قعر المكان وسكونه ولم يجد عثمان تلك البقرة ترى كما كانت
 فى حقل البرسيم . والفى الباب قد نزع من مكانه
 فقال عثمان متبرماً مضطرب الجأش « والله ان هذا البيت
 لاشبه بمقبرة أو مدفن »

وللحال صاح به صوت يقول « لقد قلت حقاً . فذلك مقبرة
 وبيت للموتى »

فدار الرفيقان بعينييهما فوجدا أمامهما زنجياً قد طلح لهما من
 المكان

فقال عثمان « لماذا تقول ذلك ، هل الفلاح الذى كان يسكن

هذا البيت مات أم ماذا ؟ »

فأجاب الزنجي قائلاً : كلا . ولكن الست « بتاعته » هي التي قضت نحبها منذ يومين . فأتراكا البيت ينمي من بناءه »
فصاح الخصى « اذذاك مروعا ملهوا فأتقول ماتت الست ؟ »
فلم يكذ الزنجي يسمع صوته الرفيع لأول مرة حتى أجفل
وزاجع وجعل الخصى يكرر قائلاً : « ماتت منذ يومين فقط بعد
كل تلك الاعوام ثم يقول الناس ان الله رحيم غفور ؟ »
وفي تلك الكلمة تبين عثمان روح الشك والتسخط ترسل في
اثناء كلماته رعبا وهولا .

فجعل عثمان يحملق في الخصى بصره مذهول اللب لانه لم
يره قبل تلك اللحظة على الحال التي شهدا منه في تلك الاونة .
وكاد الزنجي يتوارى وراء البيت مرتاعا مجفلا من صوت
الزنجي لولا ان رضوان راح يناديه قائلاً « تعالى هنا يا اسماعيل
يامرؤى ، أظننت ان الناس جميعا عمى لا يبصرون »

فوقف الزنجي لحظة في مكانه كانه قد جرد من الرعب وانحلت
أعصابه وتراخت قواه فلا يستطيع تحركا ولكنه حاول أن
يستجمع شتات قوته كأنما ليفرّ ويمدو عدو الظلم على أنه لم يلبث
أن طرد الفكرة من ذهنه وتماثل جأشه وأقبل طائدا صوب الرجلين
نابت الخطى واضعا يديه فوق صدره

فلما اقترب من الخصى مضى يقول « ها أنت قد عرفتني

يارضوان أغا، اه، أنا اسماعيل المروى فماذا تريد مني ؟ »

قال ذلك ووقف أمامها غير خائف ولا وجل

وظل عثمان ينظر الى هذا الخادم القروى مبهوتا

فعاد الخصى يقول « اريد أن أسألك عن شئ كثير وانما

كل ماأطلب اليك الان هو أين - وهنا أرتعشت شفتاه ولم يستطع

نطقاً ولكنه لم يلبث أن عاود يقول « أين اذن سيدك ؟ »

فقال الزنجي « ذهب ؟ »

فقال الخصى « نعم ، ولكن الى أين ذهب ؟ »

فانفجر الزنجي وراح يقول بلهجة التسخط المحزون لسيده

« أتريد مني أن احدثك بأنباء سيدى ، الادعه فى سلام ،

لقد كنت انت ومولاك سبب شقائه ، ألم تكن انت ومولاك

اللعين اللذين جعلوا حياته جحيما وعيشه جهنم وعذابا مقيها ، ألم

يكن تجسسك حوله فى القاهرة هو الذى دفعه الى تركها والفرار

منها ولولم يفعل فمن يدرى لعلها لم تكن قضت نجبا فمن ذا يعرف

عن حياته اكثر مما أعرف ، أنا الذى عشت معه هذه الاعوام

الطوال ، لقد والله رأيت كيف عذابه والالم والشقاء والنحس

التي احتملها . وكان ذلك كله من فعل مراد اللعين الذى لم يكن

يدانيه فى فضله ويسابقه فى همة نفسه »

فتحسس عثمان اذ ذاك بيده مقبض سيفه

ولكن الزنجي لم يذعر ولم يتراجع ولم يرفع يده عن صدره

وانما قاس بعينه المسافة التي بينهما

ورفع الخصى ذراعه وقال « سكوتا يا عثمان ولا تحاول امرأ »
ثم التفت ناحية السودانى وقال « اسمع يا اسماعيل ، انى اقسم
برأس نبينا الكريم انك انت ومولاك قد جرتما فى الحكم وظلمتما
فى الرأى واذا قيض الله لى من العمر بقية فسأنت لك ذلك حقا
ولكن الآن نبئنا اين مولاك فأن وراء هذا الامر أشياء غابت
عن علمك »

فابتسم الرجل ابتسامة مدهشة رهيبة واجاب « لقد وقعت ايضا
يا أغا امور لم تحلم انت بها واخرى لم تخطر ببال مراد نفسه لعنة
الله عليه ثلاثا

فسطع من عين الخصى بريق خفيف وقال « اذا لا تريدان
تقول الى اين ذهب سيدك ؟ »

وهنا انبرى عثمان يقول « دعه فأننا نستطيع ان نلجئه الى
الكلام اذا اردنا ذلك منه »

فضحك السودانى ضحكة خشنة وقال « اتقول تلجئنى الى
الكلام لقد قاتلت رجالا افضل منك واكثر شجاعة ييدى هاتين
عاريتين اعزل بلا سلاح . الله . الله اتقول انت انك ملجئى ! »

فترجل الخصى عن جواده وهو يقول « حسبك حسبك .
تعالى الى . اريد ان احدثك على انفراد »

فخنت عثمان وقل « أية مهزلة هذه واية حماقة انت راکبها
الا ترى ان الرجل مسلح ؟ »
فقال الخصى « ارى ذلك ولكن لاضرير ، ابق هنا حتى اعود
اليك »

ثم أشار الى السودانى ان يتبعه فمشى هذا فى اثره صامتا حتى
ابتعدا عن مسمع عثمان
فوقف الزنجي يقول ببرود « والان ماذا تريد ؟ الا اعلم
انك لن تستخلص منى شيئا قط »
فقال الخصى « حتى ولا اطلب اليك فى سبيل خير سيدك
وصالحه ؟ »

فضحك السودانى وأجاب قائلا « اتقول فى سبيل خيره
وصالحه ، عجبا لك اى خير أو صالح لعمرک يأتى اليه من
قبلك انت او من رجل من رجال مراد لقد كنت تعرفه
يوم كان فى اوج عزه وزهو سلطانه وعظمة مكانته ثم رأيت ما
صنع به ذلك الكلب العقور. لقد جعلتم من ذلك الرجل الاروع
لباس القحام البارز فى الطليعة متكففاً بحجوب الشوارع وازقتها
الضيقة لقد كان مائة يطعمون من موائده وهو اليوم يسأل الناس
قطعة من الخبز يسد بها ارماقه وتلك التى كنت تعرفها يوم كان
الترف يحف بها واطياب الحياة على منال يدها تلك السيدة الذكية
التي لا يدانها فى النساء امرأة فى ذكائها لقد كانت فى أخريات ايامها

في ذهول تميش بعقل طفل ونهى صبي مذهولة اللب مدخولة في عقلها فوالله لو انك سمعت صياحها وهي تنادى على اطفالها رق لصوتها فؤادك الصخري الجلمود المقيت ولكنها واحسرتاه عليها قد شهدت اطفالها قبل ان تموت »

فخلق الخصى ببصره وقال « ماذا تعنى بقولك هذا كيف رأت اولادها ؟ »

فاجاب الزيجي بقوله « نعم رأيتهم بوحى الخيال ، وفي مخيلتها وقد وضعت رأسها في حجر مولاي وجعلت تبكي وتعمل قائلة انها قد شهدت اولادها وانها رأت ابنها الا كبرنائما كهدها به يوم كان ينام ويضطجع في مرقدده وهو في ثياب أطفال الممالك التي كانت تحيكمها له »

ثم تولته دهشة غريبة وتابع حديثه يقول « اننى لأعجب لنفسي كيف لم تسول لى قتلك الآن في مكاننا... هذا. ان البك يقتل السيد ، فلماذا لا اقتل وأنا المملوك الخادم ... خادمه »
فلث الخصى وذعر واجاب « اذن لم يخطيء حدسى . لقد ذهب مولاك الى جرجا »

فسخط السوداني وشم وأقسم محرجة الايمان وهو يقول « الله لى ، ما أحقنى ، لقت نسيت ذكاءك وسرعة فهمك. ولكن ماذا يهم الآن انك لن تستطيع القبض عليه الان ، ولئن ارسلت الى .ولاك لتنذره بالخطر فما أنت بمدركه ، فانه الان ولا ريب

قد أطفأ غلة ناره وروى ظمأ انتقامه »

فتصبب العرق من جبين الخصى وصاح مذعوراً « تداركني الله ! ماذا أفعل الآن وقد فات الاوان . أبعء أن تموت الست « عليّة » يمضى الى حتفه ولا يزال فى الدنيا ما يغريه بالبقاء فيها » فضحك السودانى وقال « عجبى لك ، وأى شئبقى لمصطفى بك حتى يغريه بالحياة غير الثأر والانتقام ؟ »

فلم يفه الخصى بينت شفة بل أشار اليه ان ينظر ناحية عثمان وكان هذا جالساً على قيد أمتار قلقاً متبرماً بألم الانتظار وقال « انظر ، هل عرفتة ؟ »

فحدق السودانى البصر ثم التفت الى محدثه وعلى وجهه علام الشك وطلب اليه أن يشرح مقصده فقال رضوان اغا « ألا تتذكر الجيزة والطفل الذى كنت تعلمه الركوب واعتياد آداب المهاليك ؟ »

فاجاب اسماعيل المروى « وهل تظننى نسيت . رمانى الله بالسوء لو اننى نسيت ذكره ايوما ! »

فعاد الخصى يشير اليه قائلاً « اذن انظر وحدق البصر »
والحال صاح السودانى بوحشية وقد أمسك الخصى من تلايبب قفطانه « ماذا تقصد بهذا ، لست احتمل اليوم هزلاً ، ماذا تريد بهذا . قل . عجل »

فلم يحرج الخصى جواباً بل نظر الى الرجل ثم الى اليد القابضة

على ققطانه فلم يلبث الزنجى على شدة حنقه ان ارخى يده من خناقه

اجل لقد تولاه من الخصى زعر وتغيرت نظراته الى اعماق نفسه فلأتمها رعبا فقد سقطت عشرات من الرجال صرعى لجرأة اتوها اقل من هذه واصغر شأننا .

وانطلق الخصى يقول بصوت ساكن « لقد مضى على الى الان عامان وانا ابحت عن مولاك وانقب البلاد فهل تعرف ماذا كان باعنى لكى أعثر بك الآن قال ذلك وعاد يشير الى المملوك المنتظر هناك على أحر من الجمر واستطرد فى حديثه يقول « انظر ، الا تذكر مصطفى بك وهو فى العشرين من عمره فان كنت قد نسيت فانظر امامك من ترى ؟ »

فشهق الرجل شهقة خشنة وصاح يقول « حمانى الله ماذا اسمع ، ان فى قولك أثرا من الحق الرهيب ولكن ، ولكن .. لا يمكن ذلك ان يكون ، لقد مات الطفل منذ عشرين حولا نعم مات فى حريق المنزل الذى التهمته النيران فى الجيزة يوم شها ذلك الكلب فى جدراناه »

وراح يلتهم بعينه شبح الفتى عن كشب ثم قال « ولكن أين الفتاة ؟ »

فهز الخصى رأسه وأجاب « لا ادرى وقد وجدت الصبي صدفة واتفاقا واخفيتنه بضعة ايام علم ان اعثر مصطفى بك

مرة أخرى ثم احتلت على بيعه لمراد وهو لا يعلم شيئا من امر أبويه فرى وترعرع في دار مراد »

فقال السوداني مترددا في تصديقه « اتقول حقا الست فيما قلت كاذبا ؟ »

فأجاب الخصى بصوت رهيب « في هذا المكان الذي قضت فيه تلك السيدة نحبا اقسم اننى قلت حقا »

ففى الرجل بخطى ثقيلة رهيبة نحو عثمان غير مكترث بالخصى وهو يتبهم خطواته حتى اذا كان بينه وبين المملوك قيد خطوات قلائل وقف يتأمل وجهه بينما كان عثمان ينظر اليه مستريبا به ويده على مقبض سيفه

ولاحال شق الرجل شهقة شديدة وصاح منتحبا « انه هو بعينه هو والله العظيم ! »

ووثب الى الأمام وأمسك باللباس وطفق يقبله بحرارة ويتمتم كلمات لا تفقه فجعل عثمان ينظر الى الخصى مذهولا لا يدري ماذا عرى الرجل وهو يقول « ماذا ألم به أترأه مجنونا ممرورا ؟ » ومضى الرجل يصيح قائلا .. الا تعرفى يا بنى الحبيب ، الست تعرف اسماعيل المروى حقا ، الا تعرف الذى كان يملك بين ذراعيه يوم كنت طفلا والذى علمك الركوب وامتشاق سيفك رحماك اللهم وحمدك اذ ملئت عينى منك يا بن مصطفى ، لقد كنت والله أعمى مكفوفاً اذ لم ابصرك فى التو واللحظة ، لقد كان أولى

بالريح ان تحمل الى انفى رائحتك . وبالهواء أن ينبغى بقربك
ولكن ضلة لى لم آستم ولم ادرك ! »

فصاح عثمان متغيظا ، ماهذا اللغز الرهيب . اليس هذا
يا رضوان اغا خادم الشحاذ ذاك ماذا اجرى لسانه ان يقول كهذا »
فأجاب الخادم « ليس مولاي بالشحاذ يا بنى . بل هو مصطفى
بك الفرنجى »

فصاح عثمان فى عجب ودهشة « ماذا اسمع . ايكون هذا
الشحاذ حقا مصطفى بك ، ذلك الذى كان يوما وليا حميلا لمراد ، آه
لقد عرفت الان يا رضوان لم كنت تبجث عنه كل ذلك البحث
الطويل ولكن ماشأنى أنا والرجل ؟ »

فقال الخصى بسكون رهيب « انه أبوك يا عثمان ! »
فقال المملوك الصغير كأنما خرجت الكلمات من فمه كما تخرج
الرصاصه من فوهة الغدارة « ماذا اسمع ، هو ابى ! مصطفى
بك ابى »

وراح يجيل البصر فى وجه الرجل من حيرة وعاد يقول
« ومنذ عرفت ذلك الامر ؟ .. »

فأجاب الخصى - منذ سنوات عدة . هلم بنا فلا ينبغى أن
نضيع برهة من الزمن ، وسأحدثك عن الحديث برمته «
فعاد المملوك يتساءل « اذن والسيدة التى قضت نجبها منذ
يومين هم . . . ؟ »

فقال الخصى متما عبارته « أمك يا عثمان ، هلم بنا نضع
زهرا وريحانا على قبرها . هلم بنا الان »

فانبرى السودانى يقول « كلا ، دعا ذلك الان ، بل امضيا بلا
توان . اركضا كأنما رسول الجحيم فى طرادكما . اذهبا الى جرجا
والاضاع الرجاء . لا ترتقبا شيئا اتوسل اليكما ولا تنتظرانى
حتى امضى معكما . فسأحد جواداً فى القرية وانطلق فى اثركما
مسرعا »

فقال عثمان « عجباً . لا أدرى من كل هذا شيئا . ان ذهنى
قد داخله مس من الخبال »

فأجاب الخصى « انك لا تعرف قصة مصطفى بك ومبلغ
كراهيته مراداً . لقد ذهب امس الى جرجا مجنوناً فرعاً نائراً
النفس ليلقى هناك مراداً »

فتولى عثمان الذعر والرغب وقال من تأثير العادة المتأصلة
فيه « ويلاه . انه سيقتل أبى ! »

فعاد الخصى يقول « ان أباك سيقتل شيخ البلدة لجرمة
لم يرتكبها »

فلم ينبس الفتى ببنت شفة بل وثب فوق جواده وانطلق
الرجلان فى صمتٍ

وجعل الزنجى يصيح فى أثرهما « انصرفا . انطلقا ولا تتمهلا
لأجل . فانى فى اثركما قادم »

وأقبل الليل عليهما وهما يعدوان على الجوادين ، والكلاب
تنبههما نباحا مخيفاً حتى جعلت نسوة القرى التي يمران بها يتهايمن
قائلات « حمانا الله وأعادنا . ان الجن تعدو في هذه الليلة لا تلوى
على شيء ! »

الفصل الثالث والعشرون

الأخوان

في كوخ كبير من المدر بضواحي أوجرجا من بلاد الصعيد
كان يضطجعم على عنجريب منخفض رجل يتململ في نومه من
الحمى

وكانت الحجرة عارية الجدران خالية من الاثاث وعلى أرضها
بجانب العنجريب جرة ماء ورغيف تتناقره فراخ الكوخ
وكان الغطاء قد انحسر من المريض عن أطراف مهزولة وصدر
أشعر شاخص الضلوع ولكن آية القوة الداهية لا تزال تبدو
في تلك المناكب العريضة والهيكل الرائم
ولم يكن هذا النحول من أثار الهرم لان السواد كان لا يزال
يتغلب في شعره على البياض ولم يكن من وجه الرجل من الغضون
الآن ندبة مستطيلة تمتد ما بين عينيه وذقنه

على أن سوء الحال كان في ثيابه أظهر منه في بدنه اذ كان
قد اعتاض جلباباً قدراً رثاً لا يرتضيه أحقر فلاح مكان حلتة السنية

التي كانت من خلع الملوك وحسبه مصابا أنه بعد الاختيال في أبهج
الحلل الموشاة أصبح يلتحف غطاء كان لا يرضاه مداساً لحواضر
فرسه

لقد أصبح مراد آخر الممالك العباهلة الاقيال المشاييب
الأراوع يتأهب للقاء سلطان أجل وأعظم ممن يتبوا الأريكة في
الاستانة - سلطان الله العلي العظيم

وكان في ضواحي المدينة شراذم من الممالك بعضهم يركضون
أفراسهم يروضونها والبعض يتهايمسون ويتلفقون نحو الكوخ
تلقت المشفق الحذر

لقد كان شيخ البلد يعالج سكرة الموت وانما العجب العجيب
أنه كان يموت فوق فراشه وحف أنفه وذلك مستنكر في مملوك
وشيخ بلد

لقد أخذ الحمام بكظمه وأقبل الطاعون يحدو به الى قبره
فماهى الأبرهة يسيرة حتى تقوم المعركة للتنافس على الجائزة
السنية وهى تلك التى ما برحت منذ عدة القرون لمطمح أبصار
الممالك

ولم تكن قلوب أولئك النفر من الممالك القائمين اذذاك
بضواحي البلد خالية من العواطف فقريق منهم كانوا يحبون ذلك
الأمير المحتضر وآخرون يعظمونه ويجلونه وكيف لا . وقد كان
مراد المثل الأعلى والنموذج الأسمى لروعة الامارة وأبهة الراسة

ولقد جعلوا يتناولون فيما بينهم رقابة الامير المحتضر قبل أن يموت
صوته وينقطع بيانه فلما اعتقل لسانه تنحوا عنه ولما فاضت نفسه
عز عليهم رؤية ذلك المنظر الهائل .

كانت الشمس أثناء ذلك تشرق خارج الكوخ وتغمر فضاء
الله بطوفان نورها الوهاج وكانت الخيل تصهل وريح الشمال تزف
وتصفرو وتنفع الملا بصيب أنفاسها الفياضة بنعمة الحياة وأخذ المالك
ينصرفون ذاهبين في كل ناحية

في هذه الاونة أقبل رجل من اقصى المدينة يسمى كالذى
لا يتبين قصده فاقترب رويدا من الكوخ وانعطف حول احدى
زواياه فانزوى عن الابصار خلفه

وكان في السلالة وخفته اشبه شىء بالكلب المترصديستروح
رائحة العظام فى خشية ووجل من كان مثل ذلك الكلب بأشد
تلصصا وحذرا من ذاك الرجل حين اقبل نحو باب الكوخ ينظر
خلاله

التقى ذلك الرجل خلال الباب لمحة سريعة نفاذة وكان الكوخ
خاليا الا من شخص ذلك الراقد على العنجريب ولم تكن الا وثبة
مباغطة من ذلك المتجسس حتى كان داخل الكوخ
وشرع سلاحه ليضرب ولم يكن ثمت غرض أشد استهدافا
لرمية الرامى من ذلك الصدر الاشعر البادى المقاتل ولكن الرجل
أمسك بيده

ان من ضروب الانتقام ما هو ارواح لنفس المنتقم من طعنة
يطعمها وكذلك وقف ذلك الرجل بجانب العنجريب وتنفس كمن
سرى عنه همه حينما نظر الى مامامه
لقد سقط الجبار وهوى !

وقال الرجل فى تمهل واغتباط « هذا شيخ البلد ! هذا مراد !
لقد كان يطعم كل يوم على موائده خمسة آلاف رجل فاصبح
اليوم وماله سوى جرة من الماء الكدر وكان ثمن بزته يبتاع مائة
مملوك فاضحى اليوم وما عليه غير قميص لو مرَّ به اصغر الفلاحين
مطروحا فى قناة لما اخذه

لقد كان هذا سيد اهل مصر وكان السلطان نفسه يخشاه ويهابه
وما هو اليوم يموت منفرداً ميتة الفأر فى جحره
وهنا بدرت من فم الرجل ضحكة مبجوحة خشنة وقال
« لم يضع والله صبر كان هذا المغمم عاقبته وما ارسل الله عن قوس
آمالى سهم أمنية كان أقصى مما يقر الان عينى من هذا المشهد
المتع وهل ذهبت يوماً بامالى الى أبعد من هذا ؟ »
هنا حرك المحتضر شفتيه الذابلتين ووسوس قائلا ماء .
ماء . . . ! »

لقد كان الامر والنهى من طبيعة تينك الشفتين فأصبحت
اليوم للاستعطاف والرجاء
عند ذلك ضحك القادم ، ولدى تلك الضحكة فتح المحتضر

عينيه في ضعف وفتور وجمجم يقول « ماء . ماء . . . ! »
فقال الآخر « أراه لا يعرفني ولو عرفني الآن لكان حيراً
وأولى »

ثم سار يظلم نحو الجرة فتناولها وأدناها من فم المحتضر
فانحدرت في حلقه قطرات من ذلك الماء ولكن أكثره سال
من لحيته الكثبة على الفراش ، ثم ان القادم وضع يده على قفا
المحتضر متكرهاً وانهضه وجعل الجرة على فمه فاشتف المريض
ماءها بنهم وشرابية ثم حول عينيه الغائرتين نحو شخص ساقيه
مستفسراً « من أنت ؟ »

فقال الآخر « تأملنى ملياً يا مراد بك ، أراك تجهلنى الا أن
يكون أخذك النوم أو الموت ؟ »

فجمجم الآخر « لا أعرفك »

قال الآخر « تأمل فى رجلا اوليته المحنة والبلاء . اختطفت
زوجه وقتلت أولاده . تأمل فى من كنت حينما تدعوه أخاك
مصطفى بك الافرنكى »

عند ذلك تشنج وجه المحتضر وتم بين شفتيه يقول « لا . لا .
لقد مات مصطفى بك . لقد مات اخي منذ عهد بعيد »
فأجاب الرجل الآخر « لقد كاد يقتل نفسه فيعود اليوم رفقا
باليا لولا انتظار هذا اليوم وهذا المنظر . أما والله أنه لم يبصر
مشهداً الذ من هذا ولا فى اكذب أحلام أمانيه »

ثم أقبل يضحك كالجنون

وكأن بعض هذا الحديث قد تغلغل الى ذهنه المتبلد فنهض بمسقة واستند على مرفقه وظلل عينيه بكفه كالمستشف خلال حجب كثيفة وقال بصوت راعش « مصطفى هنا . لا . لا . الحقيقة . انى احتضر وما يشبه الى الان من قبيل أو هام المحتضرين ... » فقال الرجل الآخر وأمسك بكتفه وهزه هزة عنيفة « لا حاجة بك الى التشكك ... أفى هذا شك يا مراد بك ؟ »

هذه الهزة التى لم يألف شيخ مثله ولم يتعود نظيرها ايقظته من سكرة الموت واثارت فيه تلك الحمية التى كانت جزءاً من جبلته فصاح صيحة هى بارقة من شعلة بأسه القديم - من الذى يجراً على العتب بى الى هذا الحد ؟ »

قال الآخر « لقد رجوت والله أن أوقظك بهذا . اعلم انى مصطفى بك الفرنكى وأما والله لو كنت مت حقاً لاستطاع هذا الاسم وحده أن يبعثك من عالم الموتى »

فأنتفض بدن المحتضر مرة أخرى واستند على مرفقه واستضاءت اساريره بوميض من نور اليقين وقال « اذن لم يمت مصطفى . أين كنت هذه المدة الطويلة يا خى ؟ »

ثم مد المحتضر احدى ذراعيه كالذى يهم باعتناق صاحبه فأجفل الآخر نافراً وقال « لا يزال ابن الكلب فى أحلامه . تسألنى اين كنت وتدعونى اخا ! انت الذى سرقت زوجتى »

وقتل صبيتي ، وجذبت قدمي فتركتني أسلك سبيل الحياة
بمراجوين ؟ »

فقال المريض بمحزنة المحتضر « الكذوبة والله ، الكذوبة ،
ما فعل ذلك غير عمر سامه الله العذاب والموت »
فأجاب القادم « الكذوبة ، لا بأس عليك . القيها على غيرك ،
على من لا يستطيع تبرئة نفسه ، على من غادرك الى اعدائك ... »
قال الآخر « اوتعرف السبب ؟ لقد جاءني عمر باساليب
الاسترضاء لاسمح له أن ينضم الى ولكن رضوان الخصى نبأني
بنيته وكان يعرفه منذ سنين فلما علمت ذلك أرسلت الى عمر
لئن وقع في يدي لاقتلنه قتلة لم اقتلها أحداً في مصر ولعمرى
لا فعلن به ذلك جزاء على فعلته تلك »

قال الآخر « انك اتمهذي »

فتمتم المحتضر يقول « اذن سل رضوان الخصى فعنده علم
ذلك وهو بكل شيء عليم وهو الذي أخبرني عن عثمان ابنك »
قال الشحاذا وتلفت حوله كالحائر « ابني ، رحماك اللهم ، ان
الرجل ليهذي »

فعاد المحتضر يجمعهم قائلاً « كلا ، كلا ، عثمان سلحداري انه
ابنك ولقد بقيت على جهل من ذلك حتى أنبأني الخصى ، لقد
كنت أحبه كما لو كان من صلبى ولا بدع أفلم يكن كأخي مصطفى »
قال الشحاذا وقبض على ذراع المحتضر قبضة آلمته أشد الألم ،

« ما هذا ؟ »

فصاح المحتضر « رفقاً يا اخياه ، انى واهن مصى
امهلنى حتى اصبح ثم جرب قوتك معى بعد ذلك »
قال الآخر « وابنتى . ماذا جرى لها »

فعاد المريض يقول « لا أدرى ، ولا رضوان يدرى ، انه لم
يخبرنى عن ولدك ما أخبرنيه الا منذ أيام قلائل ولعله آخر غنى
هذا الحديث مخافة أن يكون فى افشائه الى ما يفضبنى ، لشد
ما جهل حقيقة أخلاقى ، لقد لطمنى مصطفى على وجهى فلم أحاول
قتله وهم الذين ضربوه بدافع الحسد والغيرة وظناً منهم ان ذلك
يرضىنى ولكنهم بعد هذا لم يستطيعوا ان يضربوا انساناً آخر
ولم يجزأ كلب منهم ان يمكسك بسوط ثانية اللهم الا بين اسنانه »
فدهش الشحاذ من هذا الكلام وقال فى نفسه « أترأه يكذب
أم قد مسه خيال ؟ لمن المستحيل والله على رجل محتضر أن يفوه
بكلمة يستطيع بها أن يزعزع عقيدة قد رسخت فى ذهنه منذ
أعوام عدة أكان كل ما سمعه كلاماً مصنوعاً وحديثاً ملفقاً ؟ »
وهنا أخذ الشك يتسرب الى ذهنه « أم ترأه كان فى ضلال
طول هذا الدهر وهل ترأه جعل يتعقب البرىء ؟ »

وهنا أخذت تبدوله وتتجسم امور كانت لا تزال تافهة
ضئيلة فى نظره . فاكتسبت أهمية وحظورة فى ذلك الموقف
وقال للرجل المحتضر « اقسم بالله ورسوله ! »

فاجاب المريض بصوت خافت راجع « اقسم لك ! وبعد
 قان كنت فى شك مما اقول فاقرأ هذا

وأشار بيده الرعشة الى كيس معلق فى عنقه وعاد يقول
 « لقد بعث به الخصى وما زلت احفظه منذ ذاك »

فتناولوه الشحاذ وقض ختامه ثم بسط الرقعة وكان فيها بيان
 مرسل من الخصى الى شيخ البلد حينما تقدم عمر بك الى مراد وكان
 فحوى هذا البيان ان الخصى كان يخشى ايقاع مكيدة ولكن مراد
 لم يكن يرضى بشيء من ذلك وأجاب بسرور كلما كان يعرفه من
 امر الدور الذى لعبه عمر بك فى المأساة التى جرت قبل ذلك
 بعشرين عاما فأبان ما كان من هجومه على دار الجيزة اثناء تغيب
 مراد عنها فى بعض قنصه وصيده مؤيداً أقواله ببراهين تلقاها
 بعد ذلك العهد بمدة طويلة من فم مملوك من ممالك عمر بك
 اعترف بها ساعة وفاته وابان ايضا ما كان من أمر اطلاعه على
 عثمان وعلى الحيلة التى كان يدبرها ليتدرع بها الى جعله مملوكا لمراد بك
 فجعل الشحاذ يقرأ سطور الرقعة حتى اتمها واذا ذاك جلس
 على طرف العنجريب واقبل يبكى وينتحب

فمد المحتضر ذراعه وقال « لقد قضى الامر يا مصطفى ، لقد
 انتهى الصيد والحرب وانا الآن اجود بنفسى ولكنى لا ابالى
 الآن امقطت على الموت أم سقط الموت عليك . وحسبى انك
 حى وانا قد تراضينا وتصافينا أفليس فى ذلك مسرة لايوب؟ »

الفصل الرابع والعشرون

واقعة ابى قير

وقف الجيش البريطانى بقيادة « اير كرمى » عند يفاع من الارض الرملية بين بحيرة مريوط والبحر الابيض مواجهها الفرنسيين بقيادة قائدهم مينو ، فلم يكن يفصل المتقاتلين اكثر من ميل واحد من التلال والرمال المترامية

وقدأوشك فتية الجيش البريطانى وغلماناه ان يلتحموا وجند فرنسا المغاوير المدربين اشياخ الحرب ورجالاتها فى مقدمة تلك المعامع التى بدأت بواقعة ابى قير وختمتها موقعة واترلو وكانت ميمنة الجيش البريطانى تمدها بضعة بواخر حربية قد استقرت فى البحر بينا كان جناحه الايسر قد أقام على شاطئ مريوط ، وبين الجناحين تلال مترامية

وفوق تلك التلال اطلال قديمة كان يسمع من ناحيتها أصوات المطارق منذرة بأن القوم يتأهبون لمعدات القتال والاستحكامات وكانت تلك الاصوات تبلغ اذن رجل قد جلس فى داخل ذلك الحصن المتهدم على دكة خشبية وهو فى أشد حالات اليأس والقنوط وكان الرجل مرتديا سراويل فضفاضة وسترة قصيرة وبجانبه عمامة ظلت حيث سقطت وقد دفن رأسه بين راحتيه

ولم يلبث ان أخذ الشعاع البسيط من الضوء الذى كان ينفذ من طاقة عالية فى الجدار ينفث ويضول رويدا وبدأ الظلام يسدل استاره ولكن الرجل لم يكن يحفل ولم يكن يكثرث . فقد آذنت صلاة المغرب ولم يتحرك من مكانه . ولم يمد الى الطعام الذى كان ملقى امامه يدا

لقد عادى استيفن هيلس نى ايامه ألوانا من تقلبات الزمان ولكن هذه المحنة التى وقع فيها كانت خاتمة مضافه ونهاية بلائه وآخر سهم فى كنانة القدر ريش له .

منذ ساعات قلائل كان هذا الرجل رسول مراد بك المكرم المحتفى به . طليق سراح يعيش حيث اراد فى ذلك المعسكر ولكنه الان كان سجيناً حبيساً فى ذلك المكان المظلم .

ولقد تغيرت تلك الحال بمنتهى السرعة حتى لم يكن يشعر كيف وقعت

وقد مضت عدة ايام عليه منذ دخل المعسكر البريطانى يحمل كتابه الى القائد فلما قدمه اليه . أمر بأن يرتقب الجواب وقد قيل له فى ذلك اليوم بعينه أن يستعد لتلقى ذلك الرد فلما كان الظهر طلب اليه ان يأتى الى خيمة قائد القوات . فحياه القائد تحية أدب وشرع يختم الرقعة التى اراد ان يعهد بها اليه ليوصلها الى مراد ووقف ستيفن يحيل بصره فيما حوله . من موائد صفت فوقها الاوراق والارانيك العسكرية وخزانة النقود الموضوعة فى زاوية

من الحجرة والسيف وحمائله المعلقة فوق الجدار . فلم يلبث ان
 حادت الذكريات القديمة الى ذهنه ، واثارت في فؤاده اثار الماضى
 الذاهب البعيد ولم يشعر الا وقد وقف مستوى القامة وقفة الجندى
 المدرب على اداب الجنديه امام قائده

ولم يلحظ ستيفن ان ضابطاً من ضباط فرقة المهندسين كان
 قد دخل الحجرة فى تلك اللحظة وقف يراقبه ويمدحه بنظره
 ويرمقه شذراً شأن المستريب به

وكان القائد يهم بأن يدفع بالرسالة اليه ولكن ذلك الضابط
 تقدم خطوة نحو القائد وهمس اليه بكلمات فى أذنه
 فمضى القائد والضابط فى أثره الى ركن فى الحنية
 ووقف ستيفن فدهشة لا يدرى ما معنى ذلك الموقف والباءت
 عليه ولكن لم تكد تمضى لحظات قلائل حتى عرف ما هنالك اذ
 حاد القائد الى مقعده واطال النظر اليه ثم راح يسأله على غرة
 « هل انت انكليزى ؟ »

لم يجد ستيفن مناصاً من ان يصدع بالحق فقال « نعم :
 ياسيدى »

فقال القائد « اكنت فيما مضى من عمرك جندياً ؟ »
 فتردد فى الجواب لحظة ولكن لم يلبث ان قال « نعم ياسيدى »
 « وما اسمك »

هنا لم يجد ستيفن حيلة فى الكذب فقال « هيلس ياسيدى »

وفي تلك اللحظة انبرى الضابط المهندس يسأله هو الآخر
قائلاً « وكنت من قبل في فرقة الاستحكامات ؟ »
فأجاب . نعم .

فبدت على وجه الضابط ابتسامة المنتصر لاكتشافه أمر الرجل
ثم تولى الى القائد العام ومضى الرجلان يتكلمان بصوات منخفضة
ولكن صاحبنا استيقن لم يسمع منها شيئاً غير أن طرق أذنه
صوت الضابط الصغير وهو يقول لرئيسه « اننى على يقين ياسيدى »
فأطرق القائد برأسه ملياً ثم التفت الى استيقن وخاطبه بلمهجة
لا تهم عن الخشونة « لقد علمت انك فررت من كتيبة كانت مسافرة
الى الهند واذا لم تنجل حقيقة هذا الأمر وينحسر قناع الشك
فى أمرك ، فانى آسف ان اقول لك أنه ينبغى لك ان تعد نفسك
سجيناً رهن التحقيق »

لقد وقعت تلك الضربة على الرجل كالصاعقة ، أكان اذن من
الهاربين ، ويلتا ، لقد أنسته حلاوة العيش فى مصر تلك الحقيقة
ولم يستطع فى ذلك الموقف شيئاً ، بل جمد فى مكانه لا يعير حراكا
وراح يقول متلعثماً « هذا صحيح ياسيدى فاننا من الوجهة العسكرية
المحضة رجل فر من الخدمة فلا أستطيع نكرانا ، ولم لعمري
النكران ، ولكنى تركت فى السويس بين حى وميت ولم يعبأ
الجيش بأمرى ولم يحفل أنجوت من الحياة أو احتبلت فى أسار
المنون فلا غرو اذا انا بقيت فى مصر ولم ابرحها »

فيكان جواب القائد مختصراً مقتضياً اذ قال « نحن لانستطيع التحقيق في الأمر الآن وسأسمع ماذا تريد أن تقول في وقت آخر أما الان فأنت سجين »

فاحتج ستيفن وطالب بحقه كرسول من لدن أمير خطير ولكن لم يكن ذلك ليجدى نفعا وأقبل عليه نفر من الجنود . فاقتادوه من حضرة القائد وكذلك لبث في السجن تلك الساعات ولقد قطعها وهو يسب لعنات الأرض جميعاً على رأس ذلك الضابط المهندس الذي اكتشفه من النظرة الأولى، وجعل يتسخط على نفسه اذ لم يتبين الضابط في الحال فقد كان قائداً لفرقة التي كان هو فيها حامل اللواء

وما كاد يسمع خطوات الحارس لدى الباب حتى ابتسم لتلك الذكريات القديمة اذ لم تكن أول مرة رأى فيها سجين الشكينة ومحبس الجنود

ولكن لم يكن الموقف يستحق ابتساماً ولا ضحكاً ، فمثله يدرك صلابة القوانين العسكرية في الجيش البريطاني . وانهم ليتساهلون في معاملة أى جندي يرتكب الوانا من الاغلاط أما الهارب من الخدمة فلا رحمة يستحق عندهم ولا حنان

نعم سيجد عدة الشفائع وجملة المعاذير ولكن الظروف المخففة لم يكن لها اعتبار كبير في الجندية البريطانية ، وان في الهروب ولو الى خطوط الاعداء أملا في النجاة اكبر من التعلل بالبراءة

أمام مجاس عسكري

ولما حضرت له تلك الفكرة جعل يتلفت حوله مستطلعاً منقبا عن منفس للخلاص ويرفع بصره الى النافذة ذات القضبان والى جدران الحجرة فلاح له انها متينة لا يستطيع أن يشق لنفسه ثغرة ينفلت منها ناجيا ، ولكن كان عليما بأسرار النازل في مصر ، وكان يدرك ان لكل حجرة منافذ غير الباب . فراح يتفقد كل ركن فيها قطعة قطعة وشبرا شبراً علّه يهتدى الى فرجة للخلاص وطفق ينبش الرمل هنا ، ويشيره هناك ويتحسس الجدران حتى تبين له أنه قد وجد أخيراً ضالته ، فانتظر حتى خيم الظلام ودخل عليه الحارس فألقى اليه طعامه التافه ، فغادر مقعده الخشبي وتحسس قطعة الحجر التي كان قد وضعها ليهتدى بها الى الموضع المنتظر وكان الرمل قد غطى اديم الحجرة بطينة يبلغ عمقها قدماً واحداً ولكنه أسرع في نبش الرمال لايلوى على شيء ، وانما كان يتمهل بين كل فترة وأخرى يتسمع مخافة أن ينم عنه شيء الى الحارس وطفق يحترق دأباً بجهده حتى وقفت يده أخيراً على حلقة من الحديد فواصل الحفر يهيل الرمل كثباناً صغيرة مضاعفاً قوته متحاملاً على شدة بأسه ، حتى أستطاع ان يزيج التراب عن باب صغير مغلق في بطن الأرض مصنوع من الصخر وأغرته نفسه بأن يحاول فتح ذلك المدخل السري فبسط عباءته فوق ذلك الصخر اذ سمع وقع اقدام واصواتا في الخارج

ولكنها لم تلبث ان سكنت فقام الى الموضع ثانية ورفع
 العباءة عن الحجر ومضى يجاهد في نزع ذلك الباب الصخري
 وجعل يشد الحلقة بكل قواه فلم يفلح اذ كانت الحلقة لا تلين
 لجذبه . فاسند ظهره الى الجدار وشد بما بقي له من بأس . وقد
 تصبب العرق من جبينه ، وتحيرت قطراته على وجهه . وتوترت
 عضلاته من شدة الاجهاد . ولم يلن الحجر ولم ينثن عن مكانه
 فمسح عرقه بعمامته وسب وسخط اذ لاح له انه قد مضى على
 ذلك الباب عدة السنين والاعوام وهو موحد كذلك حتى تسرب
 الرمل في شقوق الارض التي حوله فملأها .

فجعل ينبش تلك الرمال باضافره مستميتا . وينفخ بضمه ايتطار
 من اماكنه ولكن الحجر مازال في موضعه
 ولو ان له بسكين اذذاك لنزل عن كل مايملك في الحياة من أجله
 أدركه اللغب . واستولى عليه القنوط فعاد الى مكانه فوق
 المقعد الخشبي . ومضى يفكر ويستريح مما عراه . واذا ذاك أصابت
 رجله في الظلام الواء الصفيح الذي ملئ ماء له ليشرب منه اذ ظمى
 فتمتم يقول مضطربا بالالبث ان يبلغ منى الظما قبل أن يتنفس الصبح
 ولكنه ما عتم ان قام يتلمس في الظلمة ذلك الواء وقد اهتم
 في تلك اللحظة فكرة أخرى . ثم امسك به فغالبه من حفافه حتى
 ثناه وجعله قطعة مستطيلة واحدة وفي ذلك جرح يده ولكنه
 لم يكثرث بالجرح ولم يعبأ . بل عدا الى الموضع فجعل يخرج الرمل

بجد ذلك الوعاء

وكان الصخر سميكاً ولكنه كان يعمل في نواحيه بسرعة
شديدة كفعل من اصابته حمى راجفة . فلم يلبث ان استخلص
الصخر من صدأ ما جف من الرمل حوله

وأمسك ثانية بالحلقة وطفق يجذبها اليه بكل ماأوتى من بأس
حتى كاد ظهره ينخلع وبدأ يتمكن من أزالته عن مكانه شيئاً
فشيئاً واثبت قدميه تحت الصخر مخافة أن يسقط ثانية الى موضعه
ثم أمسك باطراف الحجرة وجلس القرفصاء ورفع به بكلتا يديه
حتى اسنده الى الجدار

وقفز الى الداخل وكانت الحفرة غير عميقة الغور وللحال
أحس قدميه استقرتا فوق القاع فمشى حتى وجد جانباً من المكان
قد دار مفضياً الى ممر طويل

فزحف في ذلك الممر حتى بلغ نهايته واذذاك رفع بصره
فرأى الكواكب في السماء تسطع

فتسلق حتى بلغ القمة فاذا به لايزال عند سور مهدم من
ذلك الحصن الخرب يجلس هناك يلهث وينضح عنه العرق ويريح
البحر الصرد البارد يلعب فوق صفحة وجهه

ومكث في ذلك المكان ماشاء الله أن يمكث حتى استعاد قواه
واعتادت عيناه رؤية الاشباح في ذلك الضوء الضئيل
وكانت بحيرة مربوط الساكنة الصفحة الى جهة الجنوب منه

ورأى ناحية الشمال ضوء الكواكب ينعكس فوق صخور البحر
 وشعابه وساحله ، وما بين ذلك ظلام دامس ، ولكنه كان يدرك
 أن حوله فى تلك الخيام والمضارب والخنادق عشرة آلاف مقاتل
 فكث على حاله تلك لا يدري ماهو صانع فمن خلفه الجنود
 البريطانية ، ولا سبيل الى الخلاص من تلك الوجهة الا على طول
 جسر القنائة التى كانت تجرى هناك وقد أدرك ان المكان لا بد
 من أن يكون حوله الحراس ساهرين

وعلم ان قبائله كيان الجيش البريطانى ومن بعده كان الفرنسيون
 رابضين ولذلك أدرك ان بينه وبين النجاة سداً مزدوجاً ، على
 أنه كان ثمت أمامه فرصة حسنة . لو أنه تيسر له ان يوافى الجيش
 الفرنسى ويبلغ مكانه فقد كان يعرف كثيرين من صحابه ولم يكن
 هؤلاء فى استطاعتهم أن يحذروا المهمة التى من أجلها قدم الى
 أبى قير ، وما أسهل عليه ان يخلق قصة من وحي الخيال يستشفع
 بها عن حضوره ، فان كل ذلك خير له وأفضل من الوقوف أمام
 مجلس عسكرى .

ومشى حول تلك الأطلال ببطء متقدماً خطوة فخطوة
 محاذراً ، منبطحاً فوق العشب اونة يتسمع الاصوات . وآونة
 متعزراً فى طريقه ، حتى انتهى الى أرض محايدة بعيدة عن منطقة
 المعسكر ، وهناك رقد يتنفس الصعداء . ويسترجع انقاسه اللاهثة
 ويحمد الله لهذا الظلام الذى نجا تحت استاره وكلته الغاشية .

وفي تلك اللحظة بدأ يفكر في المجازفة التي خاطر بها، والفعلية التي ارتكبها ولم يكن قد فكر في ذلك من قبل ولم يجد وقتاً للتفكير وأدهشه انه لم يجد في طريقه خطراً . وانه نجى من الشر المحقق به بمعجزة . وخيل اليه انه لو مرّ كلب مجتازاً الطريق التي سار فيها لما افلت غير معارض . فان الحراس كانت مبثوثة في كل مكان واذ ذاك اخذته العزة بقومه ، اذ تذكر انه يشارك هؤلاء الجنود الرابضين كالليوث في الدم والجنسية . ان لم يكن في الدين كذلك . وانطلق شاخص نحو خطوط الفرنسيين زاحفاً على يديه وقدميه : مترقماً في خطاه متلفاً من حذر متلداً حوله ، وكان الحذر لا بد منه لمثله . فان الفرنسيين لم يكونوا غواة في الحرب ولم يكونوا لها بالمستخفين . ولو كان الوقت نهراً ، لمشى الى خطوطهم مشية الجري لا يخشى شيئاً ولا يخيفه شيء ، أما ان يتقدم اليها في فحمة الليل . فمن يدرى ماذا مصيبه ، فقد يبتدره صوت الحارس بالنداء . . من أنت ؟ . ولا ينثنى حتى يتلوا النداء صوت الرصاص فتردد اذ رأى النجاة في العراء فتحفز حتى بلغ اخدوداً في الرمل فانزوى فيه وانتظر

وانتصف الليل ، وأمسى في موهن وما زال على الفجر ساعات حتى ينبثق

ولاحال طرق اذنه صوت حركة امامه فرفع رأسه وأصغى واذ ذاك تبين ان جموعاً من الجنود المشاة والفرسان

كانت في تلك اللحظة متأهبة للاصطفاف

ترى ماذا يراد بذلك !

فزحف مبتعداً قبالة الجنوب . وهناك رأى كتائب كذلك
تصطف ، فتملكه الفضول وجعل يقترب منهم ويبدأ حتى استطاع
ان يسمع أصوات الضباط وهم يصدرون كلمات النداء للجنود في رفق
ولم يلبث أن مر بجانبه ضابطان منهم وكان أحدهما يقول
لصاحبه « أفهمت اذن ماذا أنت صانع ، عليك ان تلفت انظار
العدو الى الميسرة وان تصدحهم عن التقدم ، هذا كل ما ينبغي لك
ان تقوم به ولكن لا تحمل عليهم ، فلا جدوى من ذلك قط »
وتجاوزاه وهما آخذان في حديثهما فخطر لاستيفن لأول
وهلة أن ينادى على الرجلين حتى يحمله الى معسكر الجيش
ولكنهما كانا قد تجاوزاه مبتعدين ، واذ ذاك لم يستطع ان يدرك
ماذا ينبغي له أن يفعل فولى وجهه على غير هدى صوب خطوط
البريطان

نعم لقد كان معصم النجاة من امامه ومن ورائه المجلس
العسكرى وخشية الموت اعداما بالرصاص كهارب من الخدمة
العسكرية ، ومع ذلك . . . لقد تضاربت الخواطر في ذهنه ،
وازدحمت الانفعالات في صدره ، فضى يتنقل من مكان الى مكان
كالكلب الضال الذى لا يجد مأوى له بين خطوط الفريقين ، حتى
اقرب من قلب الجيش البريطانى فرقد ثانية وراح يستمع ويصغى

ويزن الافكار ويقيس النتائج بعضها ببعض فترك النية للمقادير
كمادته وخلقه المتأصل في نفسه

وسمع حوله مواقع الخطى وكلمات النداء والتعليمات تتنقل
وتتردد بين الكتيبة والكتيبة . فأدرك أن البريطان في يقظة
ومرصد ، لا بالنائمين ولا بالساهين ، بل كانوا ينتظرون الهجوم
ويعلمون بنية العدو ، وان كانوا لا يعلمون من أى الجهات سيقع
واللحال بدأت ميمنة الجيش الفرنسى القريبة من بحيرة
مربوط تطلق النيران فأدرك اذ ذاك ان الفرنسيين قد اقتحموا
هجوماً على فيلق القائد كرادوك

وكان السكون سائداً فى ميمنة البريطان ولكن سمع ستيفن
من الميسرة أصوات الرصاص تدوى فى الفضاء وتلتها قصف
المدافع الثقيلة

فجعل ستيفن من ممكنه ذاك يراقب تلك الشهب الصفراء
ولكنه لم يلبث أن استوى على قدميه كأنما أغرته نفسه الثائرة
بأن ينطلق يريد تلك الانوار ولكن وقف عن المسير وراح يتمم
قائلاً لنفسه « كلا . تلك مقدرة تافهة ، ان القتال الحقيقى سينشب
على اليمين »

فولى تلك الضوضاء ظهره وأجمع نيته على ان يسير قدماً الى
الوجهة الاخرى

وفى تلك الآونة بلغ اذنيه مواقع خطى متقدمة نحوه ، وبدا

من بهرة الظلام فرقتان سائرتان مسرعتان لامداد الميسرة
فصاح مروعا «يا لهم من حمقى ، والله لقد خدعهم الفرنسيون»
وللحال جرى وهو غير مكترث بهذه المجازفة الخطرة لملاقاة
الفرقتين وكان القائد يسير في الطليعة فصاح به « عودوا من حيث
أتيتم ، عودوا من حيث أتيتم ، ان الهجمة على الميسرة ليست
الا خدعة فان الفرنسيين انما يتجمعون الآن في الميمنة ، عودوا
من حيث أتيتم بحق السماء »

ولما رأى أحد الجاويشية شبهاً مخيفاً غريباً في الظلام قد
هجم على القائد ، ولم يكن قد ادرك ذلك الجندى كلماته ، رفسه
واوقعه على الارض ولكن القائد كان قد سمع الكلمات فصاح
به في صوت خشن حاد « ما هذا الذي تقول ؟ »

فعاد ستيفن يكرر نذيره قئلاً « عودوا من حيث أتيتم ،
فان هذه الهجمة خدعة »

فسأله القائد « من أنت »

فأجابه ستيفن « رجل من الانكليز في خدمة مراد وقد
سمعت بخطة الفرنسيين خلسة »

ولم يكن ثمت وقت للأسئلة وكأنما أرادت الاقدار ان تؤكد
لقول ستيفن للقائد فسمع اذ ذاك صوت النيران من اليمين .
فاصدرت الاوامر وللحال انطلقت كتيبة لامداد الميسرة
ودار الباقون وقفلوا راجعين سراعاً نحو الميمنة والقلب

وكانت عودتهم في الحين المناسب ، اذ كان الفرنسيون قد حملوا على البريطان في ذلك الجناح ، وكادوا يطبقون عليهم تحت امرة القائد رامبونت الفرنسى ، فلما اقبل ذلك المدد ، استمر القتال وحى وطيس الحرب ، ولم يلبث ان اشتبك الفريقان في معمة متلاحمين

وفي هذه اللحظة زالت من ذهن ستيفن جميع خواطره وأفكاره وشكوكه وعاداته التى ألفها من مقامه في تلك البلاد . ففسى اذ ذاك انه قطع على نفسه عهداً ان يكون ابداً ولّى مراد وخادمه المطيع . نسى اسلامه الجديد ، ومصريته الطريفة ، نسى الحياة وكل ما فيها الا شيئاً واحداً هو انه كان اذ ذاك في بهرة قومه ووسط أهل وطنه فالتقط سونكياً قد سقط من جندى خراً اذ ذاك صريعاً ومضى يقاتل وهو في أثوابه تلك ، والعمامة على رأسه جنباً لجنب اخوانه جنود الفرقة الثانية والاربعين وضاع على الفرنسيين ما كانوا يبتغون من وراء تلك الخدعة ، وخفت في المعمة موازينهم ، ولكنهم ظلوا يقاتلون ويجاهدون وقد كانوا سادة مصر عدة الاعوام ، وما كان لقوم هذا شأنهم أن يسلّموا الغنيمة بسهولة ، ولكن هؤلاء لم يكونوا بالمهاليك ، ولا هم بالاتراك حتى يثبتوا الى النهاية ، ولم يكن على رأسهم قائد عظيم ، فلم يكن مينو كبونايرت ، وما كان كومبى ايضاً وزيراً تركيا

فلما انشق عمود الفجر من خلف الخطوط البريطانية ، كان الفرنسيون على الرغم من صدة البريطان لهم ، لا يزالون ثابتين في الميدان ولكن البريطان راحوا يصبون عليهم نيراناً مميتة مهدمة وفعلت قذائف المدافع في صفوفهم وساعدتها مدافع البواخر من الساحل ، فلم يلبث جيشهم وقد سقط من رجاله اربعة آلاف واربعة قواد صرعى لا يستطيعون قتالا ، بين جرحى وقتلى واذ ذاك ارتد عن موقعة ابى قير الى الاسكندرية .

في ذلك السهل وتلك الحفر والاخاديد رقد الموتى والمحضرون ولم يبق في ذلك البصيص القاتم من الضياء من جيوشهم الا اكوام منتثرة في دلك الصعيد القفر ، هناك كان اشياخ الجنديّة من اهل فرنسا وصبيّة البريطان وشبابها الناصر رقوداً متقاربين متساوين في الآلام وخاتمة الحرب ، فالموتى وقد بردت جثومهم وسكنت اطرافهم ، وتوترت وتقلصت اعصابهم ، والجرحى وقد رفعوا اصواتهم الخافتة بالتوسل والشكاة والانيّن والنحيب والبكاء ، يعانون ما يعانيه أبناء آدم جميعاً .. سكرة الموت بالحق ! من بين تلك الاثواب العسكرية المضطجعة فوق الثرى ، المعفرة في ذلك السهل ، كان رجل في لباس غريب يختلف عن اللباس العسكري البريطاني مضطجعا راقداً مع الراقين في السهل المنبسط ، فكان محتفياً ، في سراويل فضفاضة وحذاء قصير ، وكان مرقده في الطليعة بين الرقود من فريق الجيش الفرنسي وقد

تفدت رصاصة الى صدره

وكان مسنداً رأسه الى الرمل والدم ينث من فمه قطرات
قطرات ، وبجانبه سونكيه الاحمر القاني من اثر الدماء التي سالت
على خده ، ولم تزل انامله قابضة على ذلك السلاح من مقبضه
ورفع رأسه متحاملاً وصدر من شفتيه صوت خافت يقول ،
قدح ماء ، قدح ماء ، وليس في كلمات المنطق الانساني كلمة بلغت
في مصر مقام هذه الكلمة من الاحترام والمبادرة الى اسعاف
قائلها والظامئين الى مدلولها ، فلما قال ذلك تلفت جندي يبحث
عمن يسأل للجريح رياً

وكان هذا الجندي الفرنسي قصير القامة بدينا وكان جالساً
فوق الرمل يعالج ساقه من طعنة سونكي تفدت فيها
ومضى هذا الفرنسي يقول لنفسه « لهم الله هؤلاء الانكليز
في سرعة التقاط اللغات الغريبة عن لغتهم صحيح ، مويه ، مويه »
وعاد يتلفت حوله

وراح ذلك الجريح الظامئ يئن أنينا متواصلاً متمزجاً بتلك
الصيحات الخافتة « مويه . مويه »

فلم يكذ الفرنسي يسمع ذلك الصوت حتى صاح وهو ينتشل
الجريح من سقطته آه . هذا أنت . يا صديقي : لك الله . ورأس
النبي من ذا أرى غير اسماعيل افندي . ها . انتظر يا صاح . انتظر
وانطلق يطلع نحوه تاركاً خطاً من الدماء وراءه حتى اقبل عليه

فوضع ذراعاً من ذراعيه حول عنقه وقرب « الزمزية » من
شفتيه المتقلصتين الراعشتين الملطختين بالدم وهو يقول . اشرب
اشرب بالله . اشرب ما فيها حتى الثمالة . هذا انا مكسيم
ليجران

فبدأ على وحه ستيفن ظل الطمأنينة اذ تبين صاحبه . ايه
يارفيقى هل جئت لتدافع عن اهل وطنك الى الله لقد
ظننت ان لا خير في . لقد تركت القاهرة بعد رحيلك وطلقت
المرأة واضطرم في فؤادي احساس جديد كان كامناً وغلبت الوطنية
الكراهية فأسرعت الى الميدان لأحارب في سبيل بلادي »
أما ستيفن فلم يستطع لصاحبه شرحاً ولكنه ججم يقول . لقد
أصابني حرح بليغ يا مكسيم .

فقال ليجران . وأنا كذلك فان دمي يتصبب كالثور المذبوح
ولكن وجهه لم يلبث ان أظلم وعلته كآبة اذ فك ازرار سترة
الرجل ورأى الموضع الذي نفذت منه الرصاصة
وكذلك لبث مكسيم واضعاً رأس صاحبه فوق ساقه السليمة
ساكباً قطرات من الماء في حلقه بين أونة وأخرى

ولم يكن الجراحون قد وصلوا الى الموضع بعد ولذلك جعل
مكسيم يتلفت حوله تلهفاً باحثاً عن جراح منهم واضعاً قبعته
فوق سونكيه ومثبتاً السونكي في الرمل ولكن لم يأت أحد .
وصاح مكسيم وقد رأى وجه رفيقه تعلوه صفرة الموت

« رباہ . ان به جرحا ممیتا . »

ففتح ستیفن عینیه ونظر الى وجه صاحبه وابتمسم ابتسامة ذابلة وتتم قائلًا « لم نكن نظن أن خاتمتنا ستكون هكذا يا مكسيم فأجاب مكسيم « نعم . يا صديقي . لقد كنت انا وأنت احمقين نعم . اننا من المجانين الطائشين »

وظفق يتلفت يمنة ويسرة ويقول « الهى . الا يأتون . يالهؤلاء الانكليز من وحوش . لو كان مسيو لارى الجراح حاضر أمرنا لجا في لحظة مسرعا . ولحملنا الى المستشفى فى التو والساعة » ثم التى نظرة على وجه صاحبه فرعد اذ رآه بوجود بانقاسه وتمم يقول « الهى . انه ذاهب : يا صديقي . صديقي »

ومن شدة لهفته وجزعه طفق يهزه وهو لا يشعر ففتح ستيفن عینیه ثانية ونظر الى صاحبه ملبأ وهو يقول بصوت خافت « زوجتى يا مكسيم زوجتى ! »

فأجاب مكسيم « نعم . يا صديقي لن أنمى ما حييت » ولم يزد الجريح على ما قال ولا يدرى أحد ماذا كان يريد ان يستوصى صديقه ، بل جعل مكسيم يكلمه ويهزه ويصبح فى اذنه ولكنه كان قد سكنت نأتمه وبردت أطرافه . وسقط رأسه ورأوها القوم بعد ذلك فكان من أدهى المعجب المنظر الذى رأوه ... !

الفصل الخامس والعشرون

قصة الشيخ فضل

وكان في المنزل الذي في الحى الافرنكى زائر أقبل يقص على
أهل البيت أنباء غريبة

ذلكم حسن الأكبر وقد وصل اخيرا من الصعيد فزار المنزل
في المساء وقص عليهم بلهجته الجدية الرزينة الوقورة كماداته ما
وقم في جرجاعن مراد والشحاذ وعن عثمان صديقه فجعلت مرغريت
وتقيسه تسمعان ما يقول وهما في اشد الاستغراب

وصاحت تقيسه من عجب ولم تكن ترد بصرها عن وجه
المحدث « والله انها لقصة مدهشة »

وقالت مرغريت « انقول مات اذن لا عجب بعد ان قضى
اسبوعا في فرح وهناء بعد مكث عشرين عاما في بلاده »

فأجاب الآخر بلهجة رهيبة « لعل ذلك خير له فقد كان به
من الخبال مس وقد ذهبت الآلام بعقله فاختلط به وقد مات كما
قلت لكم بعد اسبوع بالطاعون ودفن بجانب قبر مراد بك اسكنه
الله فسيح جناته »

فذرقت عين مرغريت بالدمع وقالت متأوهة « صنع الله
له ترى أى عيش كان يحيا وأى حزن كان يجده من وهم وقع
فيه لم يكن له اثر »

فأجابها المملوك دكل شيء مقدر ومكتوب فى لوح القدر
ومن يدرى لعل الله يكتب لى يوماً أن التى عمر بك «
فقلت مرغريت « ومتى يعود عثمان فانى اليه مشوقة ؟ »
فقال حسن « سيكون هنا غداً فهو قادم مع الخصى وهو
يحمل اليك أنباء تختص بك . ولا يعلم غير الله ما هى تلك الانباء
لانه لم يكشف لى الستار عنها ولكنى أراه أكثر انشغالا بها عن
شؤونه خاصة وقد قال لى انه لا يستطيع ان يبوح بها الى مخلوق
ولو اعطى ألف دينار ذهباً اذ أصر على أن يقولها هو لك بنفسه
وأكبر ظنى ان الخصى بها عليم فهو بكل شيء كذلك ولكنك
تظلمين محالا اذا طلبت اليه ان ينزل عن تلك الانباء اذا لم يشأ
ان يكشفها هو لك من تلقاء ذاته »

واستأذن بأدب من مرغريت وحيا نفيسة تحية خجلة منكشة
متوردة الوجنة . وادركت الفتاة منه ذلك الحياء فابتسمت ابتسامة
نسائية ذات معان فاتنة

وقالت بعد انصرافه وكان لسانها « يأكلها » على قص تلك
الحكاية الغريبة التى سمعتها من حسن وكانت تريد ان ترى تأثيرها
فى وجه الشيخ ليفبر « يجب أن أقص القصة على التاجر الافرنكى »
فاجابت مرغريت « لقد تأخر الليلة على غير عادته فى التبكير
وأرجو الله الا يكون مريضا اذ لم أره سحابة اليوم »

ولكن كان العم جول اذ ذاك فى الحارة قادماً الى البيت

وقد مر بالباب ثلاثا ولم يستطع دخولا ، وتردد ولم يجد شجاعة كافية للدخول ولا دق الباب

وتتم يقول « يلوح لي انه قد قدر لي ان اكون ابدأ حامل انباء السوء والله يعلم انى أود ان انزل عن كل ما املك في سبيل ان أحمل اليها يوما خبراً مفرحاً ساراً ولكن ما حيلتي »

وكان بعد ساعة في حجرة مرغريت يسمع قصة نفيسة وهو في ذهول ، حتى غضبت الفتاة في نفسها اذ لم تر دهشة منه ولم تجده قد عجب لشيء منها

ولكن جول كان لديه قصة هو الآخر يريد ان يقصها ومن يستطيع ان يكون مثله يحمل قصة كذلك التي جاء بها ويجد من نفسه اقبالا على سماع قصة من انسان آخر .

وقال بعد ان انتهت نفيسة من سرد حكايتها « انها والله قصة عجيبة ولكن قد ألفت من طول مقامى بمصر كل غريبة فهي بلد الغرائب ، ولذلك لم أعد ادesh من أغرب غرائبها »

فضحكت مرغريت لتجهم معارف وجهه وقالت « مالى أراك هكذا يا مسيو جول كانى بك تحمل أخباراً سيئة »

فأجاب بسرعة وقد طارت خواطره التي أعدها من قبل للهجوم عليها بالموضوع « نعم » انى كذلك . وما الحيلة وقد قدر على أن تكون هذه قسمتي وتلك وظيفتي »

فقلت مرغريت « ولماذا . هل احترق الخانوت أم خسرنا



عقداً لتوريد بعض البضائع ؟ »

فهرز رأسه بابتسامة محزونة لمزاحها والتفت صوب نقيسة
وفى تلك اللحظة ثار فى ذاكرة كل من المرأة والشيخ ذكرى
تلك الليلة التى جاء فيها منذ أعوام ثلاثة يحمل إليها نبأ زواج
شتيفن بامرأة شرقية

فنظرت مرغريت الى الفتاة وقالت « الا تتركينا يا عزيزتى نقيسة
لحظة لوحدنا »

فقامت نقيسة من مكانها مجفلة ودنت من المرأة فتناولات
يدها وهى تقول « يا امى ماذا حدث . اننى أرى سيمياء القلق
بادية على وجهك . فدعيني أبقى لأشاركك فى عاطفتك وآلامك »
فاجابتها مرغريت بهدوء « كلا . اذهبي يا ابنتى فان فى الدنيا
أموراً لا يستطيع الانسان أن يشاطر غيره فيها ولو ان حبك لى
عزيز على امرأة مثلى فقدت كل حب »

فانصرفت نقيسة على غير ارادتها وهى واجمة محزونة لصاحبها
فلما غابت عن نظرها أنشأت مرغريت تقول وقد نظرت الى
وجه الشيخ « والآن هات ما لديك »

فقال الشيخ جول برنة أسف وحزن « سيدتى . انت
تعرفين اننى لست ممن يحسنون السياسة واصطناع الكلمات
والمقدمات وحسبى انك تعلمين غنى ان حزنك وما يثير شجرك
يفت فى فؤادى ، ويحزننى الحزن كله . انت تتذكرين اننى

حدثتك شيئاً مما سمعته من ستيفن يوم رحيله الى الاسكندرية
وتبأ لى من احمق لقد كنت اظن ان الخير كله فى ذهابه اذ حسبت
انه اذ يكون فى وسط قومه وأهل وطنه سينسى مصر والمصريين
ويبعد عن هذه الفتون التى فتنته من هذه الارض وأهلها وخطر
لى ان رؤية الجند ومساير الحرب فى بلاده كفيلة بان تعيد اليه
الشعور بمجد الجندية التى كان فى سلكها وبطريق الشرف الذى
كان يسير فيه قدما »

فلم تحر مرغريت جوابا اذ كانت ترتقب خاتمة هذا الحديث
وراح جول ينبئها بان زوجها اكتشف وعلم عن أمر فراره من
الجندية وزجه فى السجن

فلما سمعت ذلك ثارت فيها نساءيتها فقالت وهى تحتج وتفرق
فى الدفاع عنه « فى السجن . لهم الله من حمقى . وعلام . أَلقراره ...
حقا لقد كان فراراً وهم الذين تركوه فى السويس ليموت مطرعا
منبوذاً وحيداً » وفضلا عن ذلك . ألم يكن هو اذذاك فى
خدمة شركة الهند الشرقية ؟ »

فقال الشيخ « لا ادرى ماقيمة هذه الحجة ولكنى اظن
أنه لهم بعض الحق »

واذذاك زال غضبها فى الحال وتولاها الرعب على زوجها
وراحت تتمم قائلة :

« اننى اعلم مبلغ قسوة القوانين العسكرية فى الجيش البريطانى

وهم لا يولون الهارب منها شيئاً من الرحمة . اذن سأسافر غدا
الى الاسكندرية لأرى القائد بنفسى . انهم لن يقتلوه .
سأتوسل اليهم فى سبيل انقاذ حياته . بل سأقف بينه وبين
رصاص البنادق

كلا . لن يقتلوه مادام فى عرق ينبض »
فجمل الشيخ ليفير يصنى الى هذه الحمية وهو مصعوق لا يدري
ماذا يقول

وحدات مرغريت تتوسل قائلة « لا تذهب معى اليهم ياسيدى ؟ »
فلصق لسان الرجل بحلقه ولم يجر جواباً فرمقته بنظرها فى
حيرة وذ هول وقالت انى مؤمنة بأنك لن تتخلى عنى الآن ، الست
فى ذلك على حق ؟ »

فتحركت شفتا الشيخ برعدة وجعل يتمم قائلاً « الله يعلم
ياسيدتى انى لا أتردد فى المسير معك ولكن لقد فات الاوان »
فحفظت عينها رعباً وخوفاً راحت تكرر كلمته قائلة « فات
الأوان ، رباه ، أقتلوه . هل اعدموه ؟ »

فقال الشيخ مبهوراً « كلا . كلا . ياسيدى : نعم . انه قد مات
ولكن حمداً لله فلم يميتة دنيئة بل قد سقط فى ميدان الشرف »
ففتحت فيها صمقة وقالت « مات ، الا نبئى بكل شىء ،
لا تخف عنى أمراً »

فجواباً على سؤالها اطلع الشيخ من جيبه كتاباً أرسله اليه

مكسيم ليجران في المستشفى يقص عليه فيه كل ما حدث استيقن
ويشرح القصة ببلاغته ومغالاته وزهوه بمكانه اذ وقع اسيراً
في ايدي الانكليز وامضى الكتب هكذا » مكسيم ليجران
جندى في جيش الجمهورية ! »

فأكاد ليفبر ينتهى من قراءة ذلك الكتاب حتى فاض فيض دموعها
وألقت رأسها فوق المائدة وراحت تنتحب وهي لا تستطيع ان
تمسك شؤون عينها

وجلس جول ينظر اليها ولم يكن يعرف الا اليسير من اخلاق
النساء وعاداتهن ومنازع نفوسهن ولكنه أثر تلك الدموع والعبرات
السخينة على الحزن الصامت الأجش الرهيب فبدأ يقول على
سبيل التعزية والمؤاساة « سيدتى ستجدين بعد الآن ان موته
لم يكن شراً ... نعم انه لم يكن يطلب خاتمة اشرف من تلك ...
علاّم تحزينين وقد مات شريفاً ممجد الذكر »

فرفعت وجهها الندى بالعبرات وقالت « اننى ابكى لان موته
قضى على كل شىء ... قضى على بقية آمالى وبدد آمالى الحبيبة الى
نفسى لقد انتظرت وكنت اريد ان انتظر أكثر مما فعلت اذ كنت
بحاجة الى عاطفة فياضة اعيش في ظلها ... كنت افتقد حبا فلم اجده »
فقال ليفبر « انك تعلمين ياسيدتى اننى لو كنت رزقت فتاة
فما كنت احب ابنتى أكثر مما احببتك »

فأجابت والدموع تجول في عينيها « اعرف ذلك اعرف ذلك

ولست جاحدة الجميل ناكرة الصنيع ، ولكن لقد كان لى زوج
 وولد أفلا تدرى ماقيمة ذلك عند المرأة ؟ وقد رأيتها يرحلان
 عن الحياة وبأخذان معها لب حياتى تاركين خلفهما الحسرات
 احتملها واللوعة أ كوى بحرهما ومحدثين فى الفؤاد فراغا لن
 يشغل الدهر كله »

وفى تلك اللحظة دق الباب دقامتواصلاودخلت نفيسه تقول
 « بالباب شخص يريد الدخول يا امى »
 فاشاحت بوجهها لتخفى مابقى فى العين من عبرتها وقالت
 « لا استطيع مقابلة احد الان »

فمضت الفتاة لحظة ثم عادت تصيح قائلة « ياأمى هذا الشيخ
 فضل وقد اخبرته بانك مريضة ولكن الشيخ رفض الذهاب مع
 انه السهل القياد الساذج كالطفل وهو يتكلم كالاخيد المخلوط
 فى عقله فقلت له ان يحضر فى بكرة الغد ولكنه اجاب ان حامل
 الانباء السوء هو الذى يعود فى الغدا أما رسول الخير والبشرى
 فلا تؤجل زورته ، انه بلا ريب مجنون واسمعى ياأمى لقد رأيت
 أخى عبد الله متسكماً خلفه فى الحارة منزوياً لا يريد ظهوراً
 كأنما قد ارتكب ذنباً ويخشى ان يقبض عليه من أجله فهل أمره
 بالانصراف مرة اخرى ياأمى فانى أراك فى ألم ؟ »

فكفكت مرغريت عبراتها وقالت « كلا . كلا . دعيه يحضر
 واننى لنى دهشة لاادرى ماذا يحمل من الانباء واخشى ان يكون

عبد الله في ألم أو خطر ويريد الشيخ المساعدة «
وصعد الشيخ السلم في ببطء متعثراً في اذياله ونهضت
مرغريت لاستقباله

وكان الشيخ اشيب اللحية وعماءته خضراء من عمامة الاشراف
فوق رأسه واثوانه البيضاء النقية تبلغ قدميه وفي عينيه النجلاوين
نظرة الطمأنينة وهدوء النفس وقد وقف لدى الباب كأنه يرسل
انقاس الطمأنينة والسلام الى حب تلك الحجرة
وكان كل شئ فيه وحوله ينم عن الطيبة والرافة والحنان ،
تلك الرافة التي تفيض من نبعة فؤاد رحيب يتسم لآلام العالم
جميعاً ، وعليه مهابة وجلال لا يكاد أحد من كرادلة المسيحية يملك
انبل ولا اجل منها ،

ورد على التحية التي حيته بها مرغريت ووضع يده على
صدره ثم رفعها الى جبينه واجاب « وعليكم السلام ورحمة الله
وبركاته »

وتنفس . جول الصعداء اذ أبقذته هذه الزيارة وقام ليقدّم
دلائل الاحترام للشيخ واقترّب منه وهمس له في اذنه ، معذرة ايها
الشيخ الجليل لتأخرنا عن المسارعة الى استقبال فضيلتك . فان
« الست » اليوم في ألم وحزن اذ سمعت اخباراً سيئة فقد قضى
زوجها نحبه في الاسكندرية »

فترّبّع الشيخ أولاً في مجلسه فوق المتكأ وظل صامتاً مشغول

الذهن قليلاً ثم أنشأ يقول «ان حكمة الله عظيمة لا تدركها الالذهان»
 فنظرت مرغريت اليه وللحال تبينت انه متعب مقطب الجبين
 كأنما قد وصل من سفر بعيد
 ولكننه لم يلبث ان أفاق من غشيته وتلفت حوله قائلاً
 «الولد ابن الولد ؟»

فقلت نفيسة «اتعنى بذلك اخي عبدالله لقد كان خارج البيت
 ولكننه جرى عند دخولك»

فتأوه الشيخ وقال «اللهم اخرجني من الظلمات الى النور واهدني
 سبيل الرشده، اسمعني يا ست. ان لدى قصة أريد أن افضيها اليك، يحكى
 ان شيخاً كان يحب العلم ويظماً الى نهلة منه ظمأ الساغب الى رشفة
 من الماء النмир العذب وكان مخلصاً الى كتبه وأسفاره وتواليفه
 لا يحفل بعدها من شؤون العالم بشيء. فاتخذ في بيته مكتبة هيأها
 الله له صبياً يعلمه ويهيء له سبيل المنفعة والدرس وكان الشيخ
 معجباً بالفتى مزهوا به كأنه كان ألمعياً متوقداً للذهن حاضر البديهة
 حتى أصبح الغلام على مدى الزمن عزيزاً لديه كأبنة وتغلغل حبه
 الى أعماق فؤاده فأترج منه بالروح والدم، وكان يتوسم فيه
 ان يصبح للاسلام هدى ونوراً ويصير شيخاً من أعلام الأزهر ممن
 لا ترسلهم القوة الالهية الا على فترة القرن البعيد ثم لم يلبث فجاءه
 ان جاء الى الشيخ كتاب يقول فيه كاتبه ان الغلام لم يولد من
 أصلاب مسلم ووشيجة مؤمن بل كان أبواه من النصارى. فيا عجباً

ايكون ذلك الشيخ الفتى الذى نشأ فى مهد الاسلام . وتفقّه فى شرائعه ، ودرس أحكامه وفرائضه وكاد يصبح شيخ الازهر كله ابن نصرانى . ومن رحم امرأة على دين عيسى بن مريم .

فلما خلا بفلامه ، انطلق الشيخ يقص عن الفتى حديث ما علم لعله سيجد من عقل الغلام ورجاحة لبه هاديه فى الملة ، ولكن الفتى لم يكذب يسمع بالباء حتى نار ثأره وراح يحتج بأنه مؤمن مسلم بن مسلم صميم فى الاسلام وانه لن يتخلى عن دينه ولو فى سبيل لهفة أم ووالدة . فلم يكن من الشيخ الا ان اشتمل بقفطانه واتكأ على عصاه واقبل الى المرأة يقص عليها القصة لانه رأى يد الله فى تلك الملة . ولهذا ها انا يا ست قد جدت ! » فحملت مرغريت البصر اليه فى ذهول وغشية قائلة « لم افهم

سر هذه النادرة يا سيدى الشيخ »

فقال الشيخ فضل فى رفق « لا عجب فانها والله قصة مذهشة ولكن نبئيني ألم يكن لك ولد ؟ »

فاجابت « نعم . ولكنه غرق فى الخليج منذ حوالى اثني عشر عاما ولكن لم هذا السؤال ؟ »

فعاد الشيخ يقول « الله الذى أعطى الحياة قدير على أن ينقذها من أمواج اليم ، أليس الكون كله من خلقه »

فتمتم جول لنفسه يقول « عجبا . ان الشيخ قد ضل ، وجن وذهب ليه ! »

فاسترسل الشيخ في حديثه قائلاً ، لقد أخذت البينة من صديقي الشيخ السائل الذي يجوب ازقة المدينة متكئاً ، لم تعرف يوماً رجلاً من القبط يسمى ميخائيل ؟ »

فقلت مضطربة نعم لقد كان قبطي بهذا الاسم في خدمة زوجي فعاد الشيخ يسألها « وقد عذبه زوجك وضربه ضرباً مبرحاً ؟ » فأجابت مرغريت « نعم ، ولكن لماذا هذا السؤال ؟ » فأسترسل الشيخ « وكان عندك خادم بربري يسمى حسن احمد ؟ » فأجابت المرأة وهي في أشد الدهشة والخوف « نعم ، وهل انسى ذلك ماحيت . انى لا ذكر يوم دخل على وأنبأنى بأن ابني غرق في الخليج »

فقال الشيخ « اتقولين غرق ، كلاً لم يفرق . فقد انقذه الله من اليم اذ اختطفه ذلك القبطي » وباعه الى امرأة من اهالى طنطا « فزاغ بصر مرغريت وارتعش بدنهما ونهضت واقفة وهي تقول « ماذا أسمع ؟ رباه ، ماذا تقول ؟ »

فتمتم جول وهو يهز رأسه هزة الأسف النادم « مجنون مجنون . مش عاوزه كلام ! »

وزاد الشيخ على قوله « اقول لك يا ست ان ابنك حي يرزق » فصاحت مرغريت والهة « ابني حي يرزق . رباه ، هل ذهب الحزن بلبي ، ألا قل يا صديقي انى لست فى حلم » والتفتت الى الشيخ ليفبر تتوسل اليه ان يهدى روعها ويطمئن خاطرها

فأجاب هذا وهو لا يدري ماذا يقول : « لا أعرف شيئاً عن هذه القصة الا ما سمعته اللحظة من فم الشيخ ، ثم دار بعينه نحو الشيخ فضل وقال بلهجة المستريب « ماهى البينة على ماتقول؟ » فأجاب الشيخ وقد بدا عليه اثار التعب والكلال « لقد رجعت الليلة فقط من طنطا وقد وجدت القصة صحيحة لا غبار للشك عليها افتظن ان مثلى يجيئ الى هذا البيت يحمل الكذب على شفتيه ، كذبا قد يجرمنى اعز شئ لدى ويفرق بينى وبين اسلام فتى قد ينتفع به الدين .

فصاحت اذ ذاك تقيسة بصوتها الناعم « اتعنى اذن عبد الله؟ » فجنمت مرغريت امام الشيخ وتشبثت بقفطانها ورفعت اليه وجهها وقد تجلجت فيه ادلة الحزن العميق وراحته تقول « الرحمة بى . الرحمة . الا قل لى ثانية . اعد على مسمعى ان ما اخبرتنى به الساعة حق صراح لاشائبة عليه من الباطل ، قل انك غير خادعى فانى رباه قد احتملت اكثر مما تحتمل امرأة فى العالم كله ، ان لديك البينة على ما قلت ، نعم ، انك قد استوثقت مما سمعت أليس كذلك ؟ »

فوضع الشيخ يده برفق ورعاية على رأسها وقال متلطفافاية التلطف « اتظنين باسئ انى آت الى هذا المكان وأقول شيئاً دون ان استوثق من انه حق وصدق كالإيمان فى حقه وصدقه لقد عدت الليلة جريح الفؤاد محزوناً لأننى سأفقد الفتى ويفرق

الله بينى وبينه ولكن حمداً لله ، ان حزنى والمى ليصفران بجانب
فرحتك وهنائك ؟ »

فقامت من مجثمها راعدة مرتعبة وهى تصيح « ولكن اين
عبد الله . اين هو اذن ؟ »

فقال الشيخ وقد اضطرب للمرة الاولى « صبراً يا ست صبرا ،
انت تعلمين انه تربى ونشأ فى حجر الاسلام وليس فى خاطره
ذكريات الماضى البعيد وهو صبي صغير والشباب لا يعرف تسامحا
ولا هوادة ، وليس فى الازهر كله فتى اشد من عبد الله عصبية
لدينه واستمسكا بملته ثم لا تنسى انه نشأ فى ايام عصبية وزمن
خطير مفعم بالة لافل »

فأجابت مرغريت باكية ولكن ألم تخبره انت باننى أمه التى
حملته كرها ووضعته كرها ؟ »

وكانت مرغريت تحسب ان ذلك كان ليزيل كل شئ آخر من
ذهن الغلام ويرده اليها كما يقذف النيل الزبد والجفاء فيلقيه على
ساحله

فأجاب الشيخ « نعم يا ست . لقد أخبرته الخبر ولكن هونى
عليك . واصطبرى فلعله راجع اليك على عمر الزمن »
فضحكت مرغريت ضحكة تشنجية وقالت « أقول لعله ،
ألم يأت معك الآن »

ومشت تريد الباب

فقال الشيخ « نعم . لقد جاء معى ياست ولكن مجيئه أشبهه
بالقدوم أمام القضاة للحكم وقد جعل يتوسل الى أن أرجع به
قائلاً اننى أبوه وامه معاً وانه ليس بحاجة الى انسان آخر غيرى
وانه مسلم من أصلاب المسلمين ولا يريد أن يتحدث الناس عنه
أنه من أبناء النصارى »

فلم تكترث مرغريت بما سمعت من فم الشيخ وهى التى تخلت
عن زوجها لانه ارتد عن المسيحية لاعتناق الاسلام ، كأنها لم
تكن تدرك كيف لم يرد ابنها أن يعترف بها لانها من المسيحيات
فأسرعت الى السلم فهبطته بسرعة وفتحت الباب فرأت شبحاً
فى عمامة وقفطان يراقب البيت مستخفياً وراء الجدران
فتبينته عيناها فصرخت صرخة تفتت الالكباد وهى تصيح
« عبد الله . بنى . بنى !! »

وسمع الشيخ ليفبر الصرخة وكان قد نزل من البيت فى أثرها
فارتعدت فرائصه وانزوى فؤاده تأثراً ورعباً من عمق تلك
الصرخة وما تكن من عاطفة وآلم

ولم يفق من الصدمة الا وقد سمع وقع الخطى فى الزقاق .
وكان عبد الله يجرى مطلقاً ساقيه للريخ لا يلوى على شىء ...



الفصل السادس والعشرون

الليلة الاخيرة في القاهرة

دارت دائرة الحرب على الفرنسيين ، اذ اقبل الاتراك من الضفة الشرقية للنهر وتقدم البريطانيان على الضفة الغربية نحو الجزيرة ومن القصير جاء القائد ييرو بجيش من الهنود ، على حين كانت البغضاء والعصبية والاحقاد توشك في القاهرة ان تنفجر وتبدو بأرهاب مظاهرها .

ولم يلبث غزاة الامس ان أصبحوا أسرى اليوم .
ففي الليلة التي كان الفرنسيون سيرحلون عن البلاد في صباحها الى رشيد وعلى صدر البحر الى اوطانهم ، كان رجلان جالسين في حديقة قصر مراد ببركة القيل وهما منشغلان بمحدث طويل وكان احدهما الخصى رضوان والاخر الكبتن ديبون
وكان المساء قائظا ولكن النافذة التي كانت عن كئيب من مجلسيهما جعلت الهواء سيجسا من امواها المتصاعدة منها وخريها العذب الجميل
وكان الخصى في اخر الثياب، قفطان من الحرير الغالى الثمن وفي يده الشبق يرتضع افوايقه
وكان صاحبه الضابط الفرنسى في ثياب السفر وكان قد جاء

مع عثمان من الروضة ليودع جميع اصدقائه الذين عرفهم واختلف بهم منذ تعارفه بهم وبينما كان عثمان قد ذهب لزيارة الشيخ جول ليفبر بقى هو مع الخصى يتحدثان

وكان الفرنسى يقول « أظنك لا تغضب ولا تتألم أذ يبلغك اننى شجعت عثمان على ان يأتى معنا الى فرنسا »

فألقى الخصى الشبق جانباً وأجاب « كلا وأنا كنت قد احببت الفتى كما لو كان ولدى ان لم يجرمنى الله قوة اخراج البنين ، أننى لن أرضى له فى مصر بعد اليوم مقاما أذ من يسرومن يرضى بالملك ، فأن مصر لم تعد تصلح له فقد نشأ نشأة الممالك وعاش عيشة المقاتل الفارس المصارع المحارب ، ولقد رأيته قد فتن بعيشة الفرنسيين وأخلاقهم وآمياهم وهو لا يدري »

فأجاب الضابط « انه سيذهب معنا فى رعاية وحسن وفادة فان القائد قد أحبه ووعد أن يصادقه ويوليه حبه . وان للفتى جميع غرائز الجندى المغوار ، وتلك لوازم الرقى فى جيش الجمهورية » فابتسم الخصى وقال « ولا أظنه يستغنى هناك فى بلدكم عن المال ، بل لابد له من الشيء الكثير منه »

فأجاب الكبتن « لقد كنت اريد ان اكلمك عن هذا الامر فلو تواتى له منه شيء صالح اعانه وسهل عليه العيش كثير أعلى اننى سأعمل على ان أكفل له كل ما ينبغى له »

فابتسم الخصى ثانية وقال « انك لرجل كريم . ولكنى قد

مهدت لذلك من قبل مع التاجر الفرنسي «جول» وقد حول له مبلغاً طائلاً على بنك فرنسا

فصاح الفرنسي عجباً «لك الله، انك لا تترك شيئاً حتى تفكر فيه» فقال رضوان أغا « وهل لمثلي مشغلة لك الله غير التفكير ان المال الذي ساكفله له مائة كيس ذهباً فهل تظن في هذا القدر كفاية؟ » فصاح الكبتن « يا لله ، انك مرسله الى فرنسا اشبه بقائد القواد لا بقتي صغير ،

فقال الأغا « وهل يليق ان يذهب ابن مصطفى الى موطن ابائه كالصعاليك ؟ »

فابتسم الضابط وقال « اذن لم يستنفد مواطنتي ثروة البلاد كلها؟ » فضحك الخصى وقال « نعم . لا يزال فيها بقية من النضار والآن لقد ذكرتني شيئاً كنت قد اعددت لك على سبيل الهدية ذكرى للصدقة وعهود اخي وولي نعمتي مصطفى بك رحمة الله عليه ، واذا ذاك نهض الى السلامك وعاد في الحال يحمل في يده سيفاً جراحاً في غمده ودفع به الى صديقه قائلاً « ان هذا السيف ايها الأفرنجي طالما لمع في المعارك وامتشق في رأس الابطال والصناديد »

فبرق الغمد في يد الضابط حتى صاح من عجب « الله اكبر » انه من الذهب « هذه هدية خليقة بأن تقدم الى ملك » فقال الخصى « بل خير من الملك وهو الصديق » وبعد لحظة ٢٦

سكون انشأ الكبتن ديبو يقول « كنت أود ان أرى حسن
الأكبر وهو يهز مثل هذا السيف في يمينه . ولقد والله تمنيت ان
يذهب هو كذلك معنا فانه ويمين الشرف سيروح ضابطا في فرقة
الفرسان خيرا من أهل الوطن جميعاً »

فهز الخصى رأسه قائلاً « ان حسن مملوك في كل شيء ولكنّه
لا يميل الى الهجرة وفضلاً عن ذلك تراه اليوم وقد تامه الحب
وهام بعشق الفتاة التي كنا نحسبها اخت عبدالله فلا يرح مصر
ولواعطى جبال أحد ذهباً ومثله اذا احب بقى على الحب
الدهر كله »

وفي تلك اللحظة سمعت أصوات من مدخل الحديقة ، وللحال
بدا الفتى عثمان وفي أنفه جول ليفبر وقد أحضر عبدالله معها
فبدأ المملوك بالتحية قائلاً « لقد جئت بالتاحر معي لأنه خشي
الاتراك غداً وقد وجدنا عبد الله كذلك يحوم حول الحى الافرنكى
على غير هدى وان كان قد أصبح من مشايخ الازهر »

فأجاب عبدالله « لقد كنت مزوداً من الشيخ برسالة ولكن
لقد والله سرنى لقاءك يا عثمان فقد سمعت اليوم انك تريد خروجا
من مصر مع الكفرة »

فصاح عثمان عجبا « اسمعوا ماذا يقول . وهل رأيتم مسلماً
قبله على عصبية كهصبيته ثم أعجبوا أن يكون كذلك من نسل النصارى »
فصرخ الفتى صرخة غضب وحنق وقال « كلا . لم اكن من

نسلهم ، كلا ، لم اكن ، هذه فرية ورب الكعبة ، انا مسلم
لأنصرانى المولد .

فاعتذر المملوك عثمان لصاحبه ولم يجد هذا مكاناً صالحاً لجلوسه
من القعود بجانب الخصى لأنه كان يدرك عواطفه ويفهمه أكثر
من أحد سواه .

واذذاك انبرى الكبتين ديبو يخاطب جول قائلاً والآن أأنت
تأزما على العودة الى فرنسا معنا غداً ؟

فهز الشيخ رأسه وقال « كلا . كلا . ياسيدى لقد استطاعت
ثلاثون عاماً ان تمتنع منى امنية الشباب ورغبة الصبا فقد كدت
اليوم اكون مصريا صمياً »

فابتسم الضابط وأدرك ان للرجل مأرباً آخر وبواعث تدفعه
على البقاء فى مصر

وحاد يقول « ولكن الا ترى انك قد تعودى وما ياسيدى ؟
فأجاب ليفبر بصوت رهيب وقد نظر صوب عبد الله « ربما
تلك مشيئة الله ! »

فقال الخصى « ولكن كثيرون لم يقيموا فى مصر مقامك
بافندى ولا يزلون أكثر منك اجتواء للرحيل عنها »

فأجاب الفرنسى فى سكون « انك تقصد بذلك الى صديقي
ليجور لافون فهل رآه أحد منكم اليوم ؟ »

فتمتم الشيخ ليفبر يقول « لقد رأيته انا صنع الله له ، لقد

آلمنى اننى رأيتـه فلم أشهد رجلا محزوناً ممتالماً مكتئب الطلعة مثله اليوم»
فأجاب الضابط «آه . نعم . انه لا يدرى ماذا يصنع بنظلى
فانها تريد البقاء فى القاهرة رباه ، اننى لم أر رجلاً فتنه فتون
الحب مثل صاحبنا هذا ، تلك ملمة خطيرة . وأنت مارأيك فيها
يارضوان افندى ؟ .»

فقال الخصى « والله خير له ان يحملها معه فان القاهرة لن
تكون مكان أمن لمثلها بعد اليوم »
فقال الضابط « ولكن انسيت الاتفاق . ألم ينص فى الشروط
على ان امثالها ينبغى ان يعيشوا فى امن ولا يناولهم سوء . هذا
لعمري نص صريح فى شروط التسليم »
فابتسم الخصى وتنفخ ذؤابة من الدخان من شبكه وقال «انها
لاتساوى نفخة كتلك يوم يذهب الفرنسيس والانكليز عن
هذه البلاد »

فقال الرجل « رباه ، اترى أذن انه سينالها أذى »
فأجاب الخصى « أرى . بل اننى بذلك عليم . انتم تعلمون
ايها الفرنجة اننا نحن المصريين نغار على نساءنا وبيض خدورنا
ونحن نرى المرأة السافرة مخزية ورفع النقاب نكراً وأمرأ اداً
ثم هانحن نشهد ابنة أعز اشياخ مصر وانبل رجالها تصبح خلية
رجل من الفرنجة وعشيقة نصرانى . الا تدرك مبلغ ذلك . ان
الفتاة ليست من بنات الشوارع . حتى يحميها خمول ذكرها وضؤولة

نشأتها »

فهز الآخر رأسه متألماً أسفا وقال : « انها ملمة خطيرة ، فماذا ترى لاجل الخلاص منها »

فأجاب الخصى « دعه يبق في مصر ويعتنق الاسلام ويبتئ بها عروساً ، فتلك الوسيلة الوحيدة للخلاص منها »
فصاح الضابط مجفلاً من هذه الفكرة « ماذا تقول . اينفر من الجيش ويرتد عن ملته ؟ »

فابتسم الخصى وأجاب بجفاء « ما الحيلة ليس أمامه الا أحد امرين . اما ان يتخلي عن جنسيته أو المرأة التي مكنته من عرضها ووثقت به »

فأجاب الكبّين « ولكن له زوجة في فرنسا »
ولاحال سمع القوم مواقع حوافر ولم يلبثوا ان رأوا فارسين يدنوان من الفناء

وتبينوا من طول قامة الأول انه حسن إلا كبر وفي أثره
اقبل اسماعيل المروى وهو يبتسم ابتسامة الفرح
فنادى عثمان صاحبه مجيباً وهو يقول « لقد كنا نخشى ان نسافر قبل رؤيتك »

فجابه حسن « ماذا تقول . اكنت تحسبني تاركك ترحل عن مصر يا أخى دون كلمة التوديع . اذا حسبت ذلك . فهل امتشق سيفك ان كنت لا تزال تحمل سيفاً وتعال تتجالد لأغسل هذه

الظنة السوء بأخيك »

فضحك عثمان وأجاب « كلا، لم اعد اقاتلك . اننى ملك لقومى
الآن . ولكن اين كنت ؟ »

فضحك الزنجى ضحكة خشنة وأجاب « لقد ذهبنا لنأتى
بهدية اليك يا حبيبى »

قال ذلك ووثب عن جواده بنشاط وهو يقول « لقد مات
عمر بك »

فانبرى الخصى يقول « اذن هل نجحتما لقد خفت ان تعودا
بالخيبة تجران اذيالها » فضحك الآخر وهز فى يده كيسا من
الخشيش فسقط فوق الحشائش رأس اصلع بلحية كثة مستطيلة وقال
« هذه هى البينة ها هو رأس ذلك الخائن ! » وركلها بقدمه
باحترقار واستكبار

وبعد لحظة سكوت عاد يشرح القصة فقال « لقد وقع فى
الفخ الذى نصبته له كالطفل . على فرط دهائه ومكره وخبثه لقد
كانوا ثلاثة وكنا اثنين ولكن الله امدنا بقوته فمشت الى عمر
بك وكنا اتفقنا سويا انا وحسن الاكبر على ذلك وهشى هو الى
الآخرين فرمى حسن احدهما بطعنة القته صريعا وقد احسن فى
ذلك واصاب . اذ سوى بيننا وبين مقاتلينا ونعم الراى ذاك فقد
كان عمر وصاحبه يقاتلان قتال الضراغم »

« وقد ترك عمر بسيفه اثرانى بدننى ... انظروا - واسار الى ذراعى

اليسرى وكانت معلقة الى منكبه - ولكن سبني نفذ الى صدره وعنقه ولم اكن مملوكا من ممالك مصطفى بك عبثا وقد عرفني الرجل والله وتبينني فكان ذلك عذابا لقواده فوق عذاب الموت والله لوددت ان اظفر كذلك برأس ذلك الاثيم فرج الصعيدي فقد كانت له في ذلك الجرم يد ائيمة شنعاء ولكن حسن اغنانى عنه على انه لم يلبث ان تركه يفلت من يده . ولذلك يلوح لى ان هذا الفتى حسن لا يزال امرأة على فرط سمنه وضخامة جثمانه » فنظر الخصى الى حسن نظرة المستفسر ولكن المملوك الطويل البدين لم يحر جوابا بل ابتسم كأنما كان ذلك بغيته ومهواة نفسه فعاد الزنجي يقول بلهجة المستريب « اننى لافهم سر ما فعل فقد صرعه الى الارض بعد ان اجتذبه من فوق صهوة جواده كما يجذب كلب الصيد رنما ولا كنهه لم يلبث ان تركه ينهض وقد علاه بالسيف ، كلا ، لم يكن القتال فى ايامنا على نحو ما رأيت اليوم »

فتقدم الخصى الى حسن وقال « ماذا حدث . نبئني ماذا قال لك ذلك الرجل ؟ »

فأجاب حسن الاكبر « لقد اخبرني عن ابنة مصطفى بك شقيقة عثمان ومن تكون »

فقال الخصى « وماذا قال عنها ، انها قضت في لهب النيران محترقة » فابتسم المملوك وقال بلهجة المنتصر « لقد ضل ضلالا

يارضوان افندى انت الآخر انها ليست غير نفيسة اخت الشيخ الصغير تلك التى بأذن الله سأأخذها زوجا »

فتمتم الخصى يقول «عجبا . ان يد الله فوق كل شيء» وما كاد الآخرون يسمعون بالنبا حتى اقبلوا يحدقون بالفتى وابتدر الكبتن ديويو يسأل عثمان «ما تترى فى هذا النبا الجديد يا عثمان» فقال الفتى بصوت رهيب «كنت أود لو ان ابى عرف ذلك قبل متوفاه، الا اعطى يا حسن جوادك فقد ودعت نفيسة والسيدة الفرنسية ولاكنى ورأس النبى لا تطاوعنى النفس على الرحيل قبل ان اعانق اختى»

فتمتم الزنحى يقول «وى . اسوق اليه رأس عدوه وينبئه حسن نبأ اخت له فينسى احقاد عشرين عاما فى سبيل اخت عرفها منذ لحظتين . ان هذا لشيء عجاب ، لم نكن هكذا فى ايامنا وشبابنا نحن »

فقال الخصى بصوته الرفيع الجرس «لو كنا آثرنا الحب والوفاء يا اسماعيل على العداوة والبغضاء ، لما كان المصريون كما تراهم اليوم لعبة فى ايدى الأمم . وغنيمة يطمح اليها الشعوب !»



الخاتمة

الأم وابنها

وغادر الجيش الفرنسى الجزيرة قبيل الفجر فى السفن والبواخر
 وهم يحملون جثة القائد كليب معهم الى مدفن عظمائهم
 وخرج مع الخارجين جول ليفير وفى رفقته مرغريت ونفيسة
 لتوديع عثمان ووقفت الفتاة على الرغم من دماؤها الفرنسية متشبثة
 بنحر أخيها مستسلمة معولة شأن فتاة مصرية . ولولا انها كانت
 فى حضرة مرغريت لطاوعتها نفسها على تمزيق ثيابها والصياح
 ولطم خديها

وبدأ عثمان الحديث فقال « لولا ان حسن سألنى ان يتزوج
 بك لما رضيت لنفسى ان أسافر وأتركك فى مصر ولكن الان
 أدعك مطمئن الفؤاد راضياً متعكماً الله بالسعادة جميعاً »

وكان الفتى عبد الله يرتقب رؤية البواخر وهى تمخر النهر
 تحمل الجيش ليقول كلمة التوديع لعثمان والضابط ديوب فلما انكشف
 الغبار امام شبرا عن النظر رأى عبد الله عثمان وصاحبه فرفع ذراعه
 بالتحية والتوديع وصاح قائلاً « لم استطع ان أدعك تذهب قبل
 توديعك يا عثمان »

فأجابه هذا قائلاً « ليس هذا بتوديع يا أخى فلعلنا ملتقيان

بعد الآن في أوربا »

فضحك عبد الله مضطرباً خائفاً « كلا ، لن يكون هذا أبد الدهر ، حسبك يا أخى لا تذكرنى الآن بقرايتى مرة أخرى . واستمسك بالدين فى بلادك . وإياك والزيف يا عثمان فانك مسافر الى بلاد الكفرة وتذكر ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله »

فقال الضابط ديو بصوت رهيب « اجل ، يا عبد الله ، لا اله الا الله ولكنه كما يقول شيخك رب المسلمين والمسيحيين على السواء ولا تنسى يا طفلى العزيز ان الانسان قد يكون له على ممر الدهر عدة اديان ولكن ليس له فى العمر كله الا أم واحدة »

فهز عبد الله رأسه وأجاب « اننى مسلم . ودا . ودا . وكأنا كان عثمان بكلمته قد ألهم الغيب فقد قدر الله ان يرى عبد الله بعد ذلك هو ومرغريت امه

وأقبل الصيف . ولا يزال فؤاد مرغريت يتمنى امنيته وهى لما تتحقق ، وقد تحول حبها لزوجها كله الى ابنها وكان هذا يخيل اليه انها لم تكن فى الاحياء

ونقد منها الصبر واعادت أن تغشى الاماكن التى كان يختلف اليها فكانت تقف فى ركن من الطريق المؤدية الى الجامع الازهر مرتقبة بروز طلعه فتعلمى العين منه قبل ان يحتجب عن النظر فتضع يدها على فؤادها من شدة الخفقان

ولما خطر لها ان تجرى راكضة اليه فتعنتقه ولكن كانت

ساقاها تخونانها فلا تستطيع الحركة

وكانت تعود تسائل نفسها ما جدوى ذلك وما فائدته وهى تعلم انه سيفر هاربا وانما كلما اقتربت منه افلت عاديا ،
كلا . لاحيله لها الا الصبر فان الله سيتولاها آخر أمرها برحمته
ولم يجذ ليفبر لديه من نصيحة يستطيع اسداءها وانما كان
كلما رأى وجهها المفكر الحزين المكتئب . يعلوه حزن ويتولاه
الحسرة عليها

وساءت صحتها ، وأثر في ذهنها ما كانت ترى من علاقة الميجور
لافون والفتاة نظلى ، فقد كانت ترى انها كانت السبب فى تلك
العلاقة . وان لم يوجه الشيخ البكرى كلمة لوم أو تأنيب لها
وجاء اهلها بعد اهل الجيش فأخذوها الى دارهم . فجعات تخشى
ان يثار القوم منها لما فعات

ولم تكن نفيسة فى بيتها فقد ذهبت هى كذلك عنها . اذ مشت
وحسن الاكبر الى القاضى فعقد لها عقد الزواج وسافرا الى بنى
سويف ليقضيا الاشهر الاولى فى الريف ناعمين هنيئين

ولم يعد الشيخ ليفبر يكثر من الكلام والامازيح كمادته بل
قد تغير الرجل ووجه وطال اطرافه . وجعل يحفل من أى صوت
ويتزعج من اقل ضوضاء ويتلفت احيا نالتفت الخائف المستريب المروع
واحست مرغريت ذلك منه ولكنها لم تدرك السبب . ولم
يكن هذا منه الا بعد حادث كتم امره عنها كل الـكتمان وذلك

انه لمائد بعد الفسق من خان الخليلي اذ هجم عليه شيخ من خلفه
وامسكه من ذراعه وهمس له في اذنه بخشونة «ألم تعلم ماذا فعل
الكلاب بها ، الا تدري ماذا صنع زبانية الجحيم ، لقد قتلوها
خنقوها «هكذا» وطوق عنقه بيديه على سبيل التشبيه وعاد يقول
« لقد كانت تعيش في بيت رجل من الفرنجة ولذلك قتلوها »
فوقف جول جامدا في مكانه كالتمثال بينما جذب الاخر ذراعه
واختفى في الظلام بغتة فجعل ليفبر يتبع نظره وهو يقول في
ذهول « زباه زباه هذا هو الميجور لافون ! »

واسرع في خطاه الى البيت وهو يرتعش خوفا ورعبا ويناجي
نفسه من شدة دهوله قائلا «صنع الله له لقد فر من الجيش وعاد
الى القاهرة فاذا به يرى الخاتمة السيئة لأجلامه وهو الان في جنة
نعم مجنون مذهول . حقا لقد اصاب الخصي اذ قال « من ذا
يجهل مصر واهلها »

وفي تلك اللحظة اوقفته عن المسير فكرة اخرى ارتعدت
فرائضه من أجليها فقد خشى ان يلقي الشيخ البكرى في طريقه
ومنذ تلك اللحظة لم يكن ليفبر ليفارق الدار بعد مغرب
الشمس ، وادعى المرض لكي يدع أحد الخدم ينام معه في حجرته
ولم يشأ ان يقص مارأى على مرغريت حتى يثير في فؤادها
اشجانا جديدة على اشجانها ولئن كانت مرغريت قد جمعت ثقل
من الكلام عن عبد الله ابنها فقد كان ذلك القى يملا جميع خواطرها

وقد فكرت في حيلة بعد حيلة ، وخطئة اثر خطئة ، فلم تبق في ذهنها الا واحدة منها فكشفت عنها للشيخ ليفبر تسأل الرأى والمشورة

فجعل ليفبر يستمع الى تلك الفكرة وقد حاودته ذكرى خواطر ستيفن زوجها يوم جاء لأول مرة يعرضها عليه ومضى يقول بعد ان انتهت من شرح غرضها « ماذا اسمع ، اتريدى ان تعتنقى الاسلام ياسيدتى انت ترتدين عن مسيحيتك ؟ وضحك الرجل ولكنها اجابته قائلة « نعم . ذلك ما انتويت ان افعل فليس لى من حيلة الى التوصل الى ولدى غير هذه . اريد ولدى . اريد ولدى »

قالت ذلك بصوت متشنج مرتعش متهدج
فجعل الشيخ ليفبر يهدىء من روعها قائلاً « هونا . هونا .
ياسيدتى وهدئى من روعك »

فاتفجرت تبكى وتقول سخريه من نصيحته « هونا ! ألم يكفى صبرى الطويل حسبك . حسبك... انه يجتوينى ويفر من قربى لاننى من النصارى فليغفر لى الله ان رفعت هذا الحائل الذى بينى وبينه »

فعاد يقول الشيخ ولكن روحك ياسيدتى روحك الخالدة »
فقالته وهى تنشج باكية « لا اريد غير ولدى . اريد ولدى ! »

فجعل الرجل يتوسل اليها ويناقشها واغرو رقت عيناه بالدمع
 > بقنمها ولكن توسلاته وحججه ودموعه وعبراته لم تجد
 نقما فقد كانت تريد ولدها وحسب

قضى اليوم التالى انطلقت تريد بيت الشيخ فضل لتكشف له
 عن نيتها وردتها عن دينها للدخول فى دين الاسلام
 وكان الشيخ فى داره وقد ادهشته تلك الزيارة ولكنه تقبلها
 بأدب ولطف

وانشأ يقول اذ اطمأن بها المجلس « يلوح لى أنك فى ألم وحرزن
 يا ابنتى ؟ »

فاجابته مرغريت « نعم يا سيدى الشيخ وقد جئت ألتمس اليك
 الغوث والنجدة »

فتمتم الشيخ يقول « ان الله على كل شىء قدير وقد يلهمنى
 القوة على مساعدتك فما خطبك يا ابنتى وما أمرك ؟ »

ثم بدا على وجهه الألم والقلق وعاد يقول « أنك تريدن ان
 تكلمينى عن ابنك عبدالله ، فالصبر يا ابنتى الصبر الجميل فقد رأيت
 ادلة على قرب تحقيق املك .

فصاحت المرأة معولة « كلا ، كلا ، لقد سئمت هذه الفكرة ،
 كلا ، لم يعد هذا الصبر بمطاويعي »

فقال الشيخ فضل « اذن نبئينى ياست برغبتك لعلى أجد لك
 مخلصاً بعون الله »

فمضت مرغريت تشرح له جميع اجزاء نفسها وتعرف بما يفيض
 في اضعاف روحها كما لما جلست أمام احد كرادلة رومة
 واذذاك فتح الباب الخارجى ولكن لم يسمع الشيخ الصوت
 ولم يطرق اذن المرأة . وكان القادم الفتى عبدالله وهو يجلس
 الخلى فلما رآها وقف على صوتها وهو يصغى الى كلماتها بكليته
 وكانت صوتها وانتحاباتها تبلغ اذنيه ممتزجة بصوت الشيخ
 فضل وهو يؤاسيها وينفس كلماته العذبة كربتها
 وسمعها وهى تقول « نعم ، اننى راضية ان اعتنق الاسلام
 اذا كان فى اعتناقى له الظفر بولدى وفلذة كبدى ، نعم ، اريد ولدى
 اريد ولدى ! »

وصاح الشيخ وقد امنلك العجب عليه مشاعره « الله اكبر
 ان حبك له لعظيم ، ولكن ما حاجتك الى هذه التصحية يا الفتى
 فقد توسمت فيما شهدت من الصبي ما سيرد عليك فلذة كبذك وشيكا
 ألا ابقي هنا يا ست حتى اذهب الى الصلاة فأدعو الله العليم بذات
 الصدور ان يهدينى فى هذه الظلمات »

ونهض الشيخ والسبحه فى يده ومضى الى مخدعه
 فسقطت مرغريت وقد انهكها الالم على ركبتيها امام الممتكأ
 وراحت تنتحب وتشق بالعبرات اذتولاها اليأس وقطعت كل رجاء .
 وفى تلك اللحظة تقدم شيخ صغير فى الحجرة ، وعيناه تبرقان
 بنور حمية جديدة وأقبل بخطوات بطيئة فهبط بجانبها ومضى

يهمس بصوته العذب فى اذنيها كلمات حلوة معسولة لم
تكن تفكر أن تسمعها من شفتى مخلوق وتلك كانت الكلمات
« اماه . اماه . يا أمى العزيزة . . . ! »

فلما عاد الشيخ من مخدعه رأى بدين معتنقين ، وشبهين
ينتحبان ويبكيان ، وقد هبط كل فى ذراع صاحبه
فأسدل الشيخ الستر عليهما فى رفق وتتم يقول وهو يسمح
بيده « حمداً لك اللهم يا أرحم الراحمين ! »

تمت

حقوق طبع ورواية (المملوك المفقود) محفوظة لمجلة مسامرات الشعب

العدد السابع

صُرِّعَ عَلَى الْهَمُومِ

نقلها عن اللغة الألمانية حضرة الكاتب الناثر البليغ
محمود إبراهيم الدسوقي — المحرر بجريدة الأخبار
وتليها روضة مسامرات الشعب حاوية من طرف الأدب
مالذ وطاب

